FB/mashro3pdf

أحمد ناجي

أيمن الزرقاني

استخدام الحياة

رواية

استخدامُ الحياة

أحمد ناجي وأيمن الزرقاني

الكتاب: استخدام الحياة
تأليف: أحمد ناجي
رسومات: أيمن الزرقاني

عدد الصفحات: 240 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-02-6

رقم الإيداع: 15506/ 2014

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

منشورات مرسوم - مصر

مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332 فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

توزيع دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس

استخدامُ الحياة

أحمد ناجي، يكتب
أيمن الزرقاني، يرسم

استخدامُ الحياة

أحمد ناجي، يكتب

أيمن الزرقاني، يرسم

«الولادةُ تتكرَّرُ من شيء إلى شيء، والحياة لا تُعطَى لأحد كملكية وإنما كاستعمال»

لوكريتيوس[1]

Lucretius

55-96 ق م

(1) وقعت بالمصادفة في السجلات على اسم «لوكريتيوس» كأول من ابتدع سلك الرهبنة الخاص، ووهب نفسه للحراسة، لقد حاول الوصول إلى معادلة التوازن الخاصة به من خلال العبور عبر بقايا الديانة والأفكار الفيثاغورسية عن العالم والحالة الصفرية، ثم عبر من الأبراج الحسابية والرقمية مبكرًا إلى التمثيل الأبيقوري للحياة، هو عوْن دائم في تجاوز الهنَّات الصغيرة للتردد والضعف البشري والندم على ما يمكن الأسف عليه.

الفصل الأوَّل

في العَام الأخير، جاءت رِيَاحُ الخماسين خَفِيفة على القَاهرةِ. هبَّت ليومين عواصف ترابية ثم صَفا الجو بعد ذلك. عبرت موجة حارة بأجواء البِلاد دامت لمدة أسبوع ثم عاد كل شيء لما كان عليه. في نهَاية شهر يوليو استيقظ سُكَّانُ القَاهرة ليجدوا أنفسَهم مَدفونين تحت أَطْنَانٍ مِن الرِّمَال وَالأَتْرِبَة.

لم تكن رياحًا، أو رطوبة، أو موجة حر.. بل خليط من كل ما سبق مع نكهة من دخان الحريق ورياح الخماسين مضاعفة. ظَاهرة مُفزعة، ستُعرف بعد ذلك بتسونامي الصحراء. أيام وليال. ليال وأيام. عشرة أيام، خمسة عشر يومًا. حالات اختناق. التهابات في العيون. أزمات تنفسية. البشر يتحركون داخل العلب والمباني المكيَّفة، هربًا من جحيم ملعون حلّ على مدينتهم ذات التاريخ العريق. لكن الجحيم كان يتسلل ببطء داخل حصونهم. أعطال أجهزة التكييف ازدادت، مواتير المراوح كانت تحترق بفعل ارتفاع درجات الحرارة وتسلل ذرات الرمال والأتربة إلى أحشائها. وفي فترات مُتقطعة كانت الرؤية تنعدم على الطرقات، تزداد الحوادث، ووفيات الرُّضَّع ترتفع، كذلك معدل إصابة المسنين بالأزمات القلبية.

درجات الحرارة المرتفعة والرياح الترابية الشديدة سبَّبتا خسائر وأعطالًا فادحة في شبكات الكهرباء والاتصالات. الحكومة تعاملت مع الموقف بوصفه أمرًا لا يدعو للقلق. في اليوم العشرين كانت الرمَال تُغطي شوارع القَاهرة. نَتحدث عن منطقة مُحددة تبدأ من مدينة نصر إلى أهرامات الجيزة، ومن المعادي إلى حدود شبرا. طبقات فوقها ظلماتٌ من الأتربة والرمال تجاوزت في بعض المناطق النصف متر. اختفى الرصيف في شوارع رئيسة حيث تعطل الكثير من السيارات وبعضها لم يستطِع الحركة. وإذا حدث وكنت تسير تحت أحد الكباري التي اشتهرت بها المدينة فقد كانت الرمال تسقط كشلالات من على جانبي الكوبري. ثم حدث الزلزال، بل للدقة مجموعة الزلازل والهزات الأرضية. زادت العواصف الترَابية. غطى العذاب كل شيء.

بدا أنه من المستحيل إعادة بناء ما ضاع، الخسائر البشرية تحوَّلت لأرقام مُفزعة، والخسائر المالية تجاوزت المليارات. بدأت حملات الإنقاذ والتكاتف، أطلقت حملة «معدن المصريين يَظهر في الشدة». في شهر سبتمبر بدأ سكان المدينة يفيقون من صيف الصدمات، حينما حدثت مجموعة من الهزات والزلازل أصبحت تعرف بعد ذلك «بالزلزال العظيم» الذي نتج عنه تهدم نصف المدينة، ثم سلسلة من التشققات الأرضية ابتلعت شوارعِ كاملة، وأصابت مجرى نهر النيل بتحورات مُفزعة، الأمر الذي نَتج عنه اختفَاء جُزر كَاملة على رأسها جزيرة الزمالك. التصدعات ضَربت الأهرامات ولم ننجح في إنقَاذ الهرم الأكبر الذي تحول إلى ركَام من الحجَارةِ المتناثرة، ما تبقَّى من تراث، حضارة، عمارة، أرشيف موثق رسمي أو شَفهي على هذه الأرض كل هذا كان مصيره أسوأ حتى من مصير الأهرامات التي سقطت من جرَّاء الزلزال العظيم وطُمرت تحت بحور الرمال.

غضبٌ من الله. لعنةٌ من السماء. الرب قرَّر عقاب المصريين بالسبع لعنات. كل ما مر على هذه المدينة من قصف، وحروب، وثورات، وفوضى، واحتفالات وكرنفالات لم يكن ليقارن بما حدث ولًم يعد هناك مجال للمقارنة في المستقبل، لأنه لم يعد هناك مستقبل لتلك المدينة بعد ما حدث. انتهت القَاهرة، تم نقل العاصمة إلى القاهرة الجديدة. التفاصيل الآن مُسجلة وموثقة، عشرات الكتب والأفلام سعت لتسجيل ما حدث، العواصف التُرَابية استمرت لسنوات، منَاطق كاملة من القاهرةِ الفاطميةِ والخديويةِ تَحولت إلى صحراءِ. خسارة فادحة.. فَاضحة للحضارة والتاريخ الإنساني. والأكثر ألمًا ملايين البشر الذين فقدوا حياتهم، والملايين الأخرى الذين عاشوا في ألم الفقدان بقية حياتهم. كل هذا يبدو بعيدًا الآن. ولا أسعى من وراء ما أكتبه إلى إعادة التذكير بما كان، أو تحليل ما حدث. فليست هذه إلا مجموعة من الأوراق والذكريات لرجل عجوز احترف الكتابة سرًّا لسنوات. خطاب طويل مرسل إلى الماضي. خدعة كاذبة جعلتها تأخذ شكل النصائح والأدلة السياحية. لا تبرير للكتابة لأنني فشلت في إيجاد المبررات، أو ربما لأن المبررات لم توجد في الحياة أبدًا.

بتدوَّر على الجنة والجنة حواليك

٥

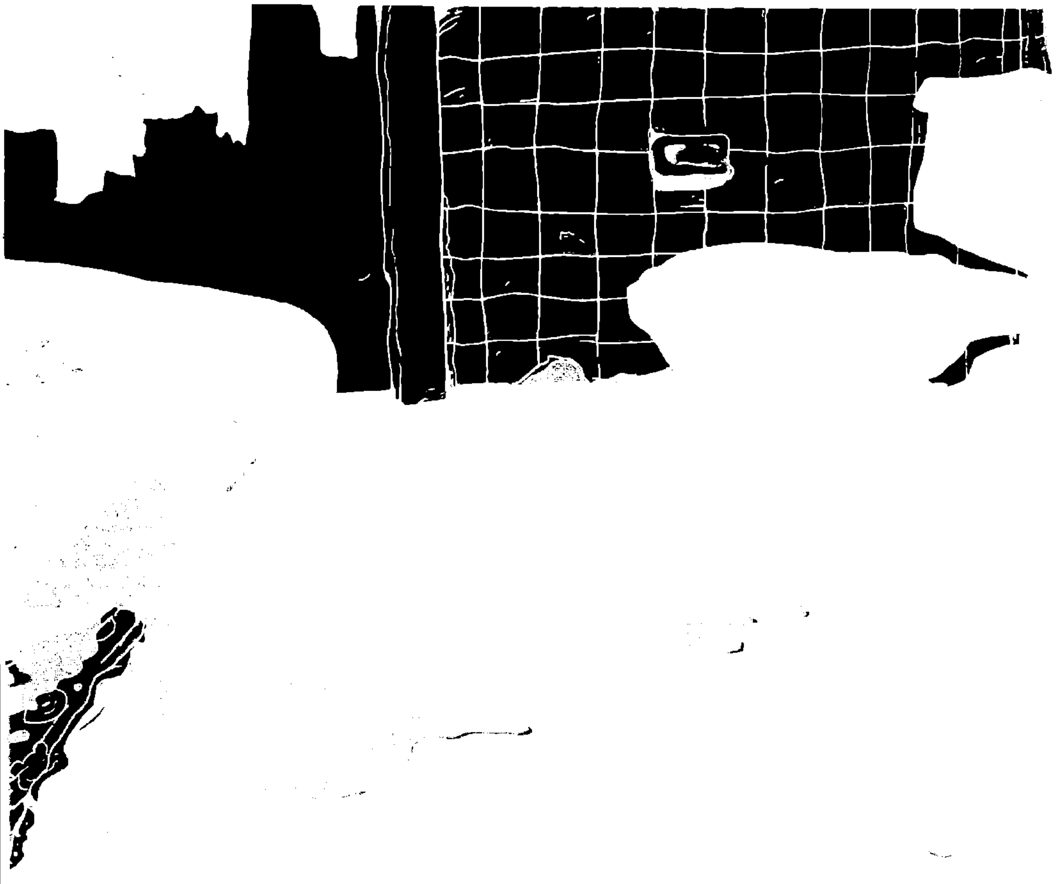

نتاشا أطلس

أين مقبرة الموسيكا؟

«أنا بردت» قالتها ثم تلفَّتت إلى الخلف. تناولتْ تي ـ شيرت أبيض مُلقى بإهمَال على طرف السرير. ارتدت التي ـ شيرت، ثم أكملتْ لف الجوينت. سوَّتْ أطرافه ثم برمته، صنعت في نهايته طربوشًا صغيرًا. تناولت الولاعة وأحرقت الطربوش. في العتمة بدا كأنه يحترق ببطء لكن بمتعة. شعرت بحكة خفيفة على طربوش زبي، وبرغم ذلك هرشت في شعر العانة. مدت الجوينت إليَّ، فابتسمت وتناولته منها بينما عدلت هي من وضع الوسَادة واتكأت عليها لتتمدد نصف جَالسة في مواجهتي. حلمتا نهديها الصغيرتين بارزتان من أسفل التى-شيرت وساقاها ذواتا الصوت الهادئ مفتوحتان في مقابلتي. رائحة دهن عطري فواح تنبع منهما.

ربما قلت نكتة أو إفِّيهًا ما، ضحكتْ، وحكتْ حكاية قصيرة حدثت مع واحدة من صديقاتها. ضحكنا ودخنّا. وقبل أن ينطفئ الجوينت كنا قد تساجلنا حول موضوع ما بالتأكيد يتصف بالتفاهة، انتهى الأمر بقمصة من الطرفين، وكالعادة فقد تراجعتُ عن موقفي وأخذتها بين ذرَاعَي في دردشة قصيرة قبل النوم. وحينما فَتحت عيني شاعرًا بالعطش استيقظت فلم أجدها بجواري.

نورٌ خفيفٌ يتسلل من النافذة «راحت عليّا نومة ولا إيه» مددت يدي باتجاه الموبايل، كانت الساعة لا تتجاوز السادسة صباحًا. بَحثت عن زُجَاجة الميَاه بجوار السرير فلم أجدها. كأن أجفاني معلقٌ بها أثقال صفراء، العقل مشوَّش، آلاته تحاول العمل لكنها تحتاج للماء. خَرجت من الغرفة عَاريًا، فى هذه اللحظة بالتحديد لم أعرف هل أبحث عنها أم عن زُجاجة المياه. في الصالة وجدتها نائمة فوق الكنبة وبجوارها الكلب نَائم في وداعة، ولكي أصل إلى الثلاجة حيث الكثير من زُجَاجات المياه كان يجب أن أعبر

الصالة دون أن أوقظ الكلب على الأقل، وهو الأمر شبه المستحيل. دائمًا ما كنت أخشى مواجهة الكلب عاريًا، بل كل الحيوانات كنت أخشاها عاريًا. لهذا فضَّلت التوجه إلى الحمام ووضعت فمي تحت الصنبور. بللت يدي ومسحت بها على وجهي. أخذت أدعك أجفاني تحديدًا بالماء مُزيحًا أثقال النوم، كنتُ أريد الرؤية واضحة. حتى وإن تأخر استيقاظ باقي أعضاء جسمي، فالعين يجب أن تستيقظ الآن. أن ترى الآن! وهنا حيث سيبدأ كل شيء. نظرت لوجهي في المرآة. وطرحت على نفسي السؤال بشكل جدِّي..

لماذا أنا هنا؟

إذا كنت أتحمل كل حذلقتها وحماقاتها وهلاوسها ومخاوف وهواجس أزمة الثلاثينات التي تمر بها، فما المقابل؟ على الأقل حتى لو كنت أحبها وما زلت شغوفًا بها فلا يوجد أي معنى لوجودي هنا، حيث إنه من الواضح أن وجودي يسبب خللًا في عَالمها، بدليل أنها تركتني وخرجت لتنام وحيدة على الكنبةِ.

دخلت الغرفة وارتديت ملابسي بهدوء مُحَاذرًا من أي صوت، وضعت «الموبايل» في جيب البنطلون وتأكدت من وجود المحفظة في الجيب الخلفي. أذكر بدقة أن نَسمة هواء عَبرت الغرفة من الشبَاكِ مُحمَّلةً برَائحة النعناع المزروَع في شباكها. لم أكن غَاضبًا أو مُستاءً. لكن ما إن فتحت الباب حتى استيقظ الكلبُ ونَبح نبَاحًا قصيرًا لمحته يقف على قوائمه الأربع ويهم بالهرولة نحوي، فأغلقت الباب سريعًا وخرجت.

قرَّرت ألا أدخل هذا المنزل بعد ذلك أبدًا، لكن متاهات الحوادث القدرية قادتني إلى هناك مرة ثَانية، في تلك المرة التي تكشف فيها لي جزء كبير من الحقيقة، حملت الكاميرا ووضعتها أمام ريم، وهذه المرة لم يكن هناك كلب، ولا سجائر، بل ريم فقط وعلى رأسها حجاب، وفي عيونها رأيت انعكاس الظل لما هو قادم، وأدركت أي كارثة قد دفعت فيها سفينتي.

علاقتنا لم تنقطع، بقي الود وقدر من الحنين. حب مدخن كسمك الرنجة.

أحيانًا أفكر أن كل ما حدث لي طوال حياتي كان نتيجة لضغوط أبي الذي ربَّاني على

عبارة «عايزك تطلع من الأوائل» أغرق مُتذكرًا حياتي، وأشعر بضيق بالغ. لماذا لا أشعر بالسعادةِ مثل بقية الناس؟

وهل يشعر بقية الناس بالسعَادةِ، سؤال أكثر اتسَاعًا، الخاص يَعكس العام، والعَام يفشخ الخاص، والاثنان يغرقان في التعاسة.

لكني أحيانًا أشاهد زوجين في مكان عام، أو امرأة تحتضن طفلها، أو صديقين يتأملان واجهات المحلات ويضحكان على نكتة مشتركة. أجد أن الآخرين يشعرون بالسعادة، فأنظر لحالي، لَمَ أنا؟ ولَمَ لا؟

من بين الآخرين هناك من ينظر لك ويسألك لماذا لا تكون سعيدًا مثله. يومًا ما حينما يقرر الله مكافأة الإنسان على شقائه في هذه الدنيا، فسوف ينتزع عنه البصر والبصيرة. يرده للسعادة، للصفاء الروحي والسكينة النورانية، بهيمة عمياء ترعى في حدائق الجنان الخضراء. لا تعرف من المشاعر إلا سعادة إشباع الشهوات والاحتياجات. هكذا هي الجنة.

بينما هنا في هذه الحياة. صحراء شمسها شوكية. تائهون تبحث عنا الأشياء ونظن أننا من نبحث عنها. ريم مثلًا لم يكن لدي أي مشاعر تجاهها. كنت أراها حينما تأتي إلى المُنظمةِ الحقوقية التي عملتُ فيها بعد تخرجي لتنجز بعض مهام الترجمة. شهور مَعدودة هناك ثم فقدت أي نوع من الإيمان بالعملِ المدني، بصراحة كنت أعملِ في هذه المنظمة لأني لم أتمكن من الالتحاق بوزَارة الخَارجية، وفضَّلت مثل مُعظم زُملاء الدرَاسة المهووسين بالليبراليةِ الالتحاق بتلك المنظمة. وحينما ظهرت الفرصة للعمل كمعد أفلام تسجيلية ثم كمنتج فني بأجر لم أكن لأحلم به. ودعت العمل المدني. تَركت الشقةَ التي كُنت أعيش فيه مع اثنين من رفَاق الجَامعة، لأنتقل لشقة أخرى في مدينة 6 أكتوبر وقتها[2] وحينما احتجنا في الشركةِ لترجمةِ أحد أفلامنا إلى الإنجليزية بحثت عن رقم تليفونها ليحدث أول اتصال مُبَاشر بيننا.

تبعت اللقاءَ الأولَ الرسمي، والذي شمل شرح أبعاد العمل المطلوب منها، رسالةٌ وصلتني منها بعدها بأيام على الموبايل. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف

(2) لم تكن 6 أكتوبر وقتها قد أصبحت محافظة، وبالطبع كان هذا قبل انشاء الميناء وتحول أكتوبر إلى ما ستكون عليه الآن. كانت أكتوبر لا تزال طفلة وليدة ترضع نارًا ودخانًا وحيوانات منوية من ثدي القاهرة.

الليل وكانت دعوة لشرب البيرة فوق سطوح فندق «أوديون» بوسط البلد. ذهبت وبعدها بيومين كنا نطبع آثار أسناننا على لحم كل منا أثناء ممارسة الجنس على أريكة منزلها.

***

ثاني يوم غادرت فيه بيتها نهائيًا تحت غطاء الليل تلقيت اتصالًا تليفونيا منها، نشبت بيننا مَعركة كلامية حَفلت بالكثير من الألفَاظ البذيئة ثم أغلقت التليفون في وجهي، لم أعرف لماذا تصرخ في وجهي، وما هو الموضوع، ولا أين يقع الخطأ. لكني أيضًا كنت أرد السبَّة بالسبة، والصرخة بالصرخة ولم يكن يعنيني ما سوف يحدث أو ما سيكون. كانت هذه النهاية وكنت أدير المحادثة بمنطق «كس أم الفيل في المنديل». عَاهدت نفسي ألا أرد على مُكَالماتها بعد ذلك، وإمعانًا في تَحفيز النسيان بحثت عن اسمها على الموبايل «ريم» وبدلته بـ «X3» لتصبح النمرة الثالثة التي لا أرد عليها مهما تكررت مرات الاتصَال.

ظللت طوال اليوم مَشغولًا بالبحثِ عن إجَابة لما حدث. يمكنني أن أتحمل أي غباوة من غباواتها، أن أتحمل تلك النظرة التي تحمل قدرًا من أمومة تَسرب من بين يديها وأحسها مع لمساتها على وجهي. جرس إنذَار. كارت أصفر. تذكرني أنها أكبر مني بسبع سنوات، لكن في الوقت نفسه هذا هو ما كان يجذبني إلى تلك العلاقة. إنها خرَاء مَشوي. قطعة استيك مُجفف. شريحة جمبري غارقة في السمن البلدي. كل هذا مقبول، لكن لن أقبل أن أستيقظ من النوم ولا أجدها بجواري. خصوصًا إذا كنت في شقتها، هذا غير أخلاقي، غير عاطفي، تصرف فج ووقح وهي تعرف ذلك جيدًا. أنا أعرف أنها تعرف أنني أعرف. يا لها من جملة. لهذا كان لا بد أن أترك شقتها، منزلها، لها. وكل هذه الفجاجة تحتاج إلى وقفة، لكنها فضلت أن تكون وقفة طويلة وإلى الأبد.

في الليلة الأخيرة وقبل أن ننام كنا نستمع إلى موسيقى تنتمي إلى روك الستينات، شيء ما لـ ليد زبلين، ماريسون واحد من هؤلاء الخراتيت الهرمين، وكالعادة جرَّتنا هي لمُنَاقشة موسيقية أنهتها بعبارة:

- بص يا بيسو.. الموسيقى ماتت في السبعينات.

قلبت الحوار وسألتها:

ـ طيزك قرعة.. طيب والمقبرة دي فين؟ وين مقبرة الموسيقى؟ أين محراب الموسيقى حيث يرقد جثمانها الطاهر؟ جاوبيني أيتها الآلهة القاسية.. أين مقبرة الموسيكا؟

اكتفت وهي تطفئ الجوينت برسم ابتسامة خفيفة على شفتيها كأنها سحابة على وشك التبول فوق مدينة أوربية. رددت عبارة موجزة قالتها ببطء وبصوت أقرب للهمس «بُص للمزبلة اللي حواليك» تبعتها بتنهيدة وعبَارة أقصر «بص للشوارع».

بعد مُكَالمة الانفصال فكرت كثيرًا هل سبب كل ما حدث أنني استفززتها في حديث «هرتلة حشيش» عن مكان مقبرة الموسيكا؟

كل هذا الآن يبدو سخيفًا وتفاصيل هامشية لا أعرف لماذا بدأت بها. لكني أعرف وأثق أن اللحظة الحقيقية لكل ما حدث هي اللحظة التي تلت هذا الانفصَال بأسبوعين حينما تلقت «ريم» تلك الرسَالة القصيرة على موبايلها باسمي. سوف أعلم بعد ذلك، أن هذه الرسَالة المُزيفة كانت أول اتصال بينها وبين «المنقذين» كما ستطلق على جميع أعضاء الجمعية الذين التقت بهم أو قابلتهم. تم استغلال اسمي في تحقيق هذا الاتصَال الأمر الذي يجعلني واثقًا أنهم كانوا على درَاية وعلم بالكثير من تفَاصيل علاقتنا.

وصلتها الرسالة:

«أحتاج 400 جنيه ضروري جدا. مطعم ماجو شارع شامبليون[3]. بكره الساعة1»

(3) على سبيل الفضول نقبت في نسختي الخاصة من الأرشيف عن سجلات الجمعية التي نجحت في الحفاظ عليها، كان من الطريف أن أعلم أن الأخ شمبليون كان أحد الآباء الفاتحين الأوائل، والداعمين بعد ذلك لأفكار السمعاني.

مُربعات ابن عروس

فِي مَرْحَلَةٍ مَا حَدَثَ اخْتِلال صغِيْر فِي مَعْلُوْمَاتِي الْعَامَّة[4]، أَخْبَرَنِي أَحَدُهُم بِمعْلَوْمَة مَا خَطأً. أو وصلتني بشكل خاطئ. أصبح اسم ابن عروس في ذهني هو اسم الشهرة للمغني الشعبي الراحل شوقي قناوي[5] وهكذا فلم ألتفت لقراءة أي شيء عن ابن عروس وانجذبت لفترة طويلة في حالة دروشة مع موسيقى وأغاني شوقي قناوي. صحيح أن معظم كلمات أغانيه هي في الأساس مربعات لابن عروس والسيرة الهلالية. لكن يظل لديه بعض الأعمال المختلفة عن هذا السياق، كما أنه ليس ابن عروس وتفصل بينهما قرونٌ طويلة.

المعلومات الخاطئة المُترَاكمة عن الاثنين قادتني إلى منطقة ثالثة تصورت فيها حياة شوقي قناوي مُنقسمة إلى قسمين يفصل بينهما الحدث الدرامي الشهير، الذي حوَّل حياته من قَاطع طريق بلغ الستين مُتربعًا على عرش من البطش والقوة وفرض الإتاوات، إلى

(4) اختلال المعلومات لا يحدث فقط نتيجة تضاربها أو التعمية حيث يُستبدل اسم باسم أو معلومة بمعلومة. بل ينتج في معظم الحالات نتيجة الفجوات المعرفية حيث كفاح الإنسانية في نقل خبراتها جيلًا بعد جيل، وهو النقل الذي لم يحدث أبدًا بشكل أمين وتركنا معلّقين على شفا هاوية غير معلومة.

(5) لا للأسف لم يكن شوقي قناوي عضوًا أو يعرف أي شيء عن كل ما سيأتي ذكره لاحقًا. راجعت هذا الأمر وتأكدت منه أكثر من مرة. كان هناك موسيقيون ومغنون وأحيانا عازفون موهوبون لعبوا أدوارًا بسيطة وعظيمة في تاريخ التطور العمراني، أتذكر هنا الموسيقار فيليسيان دافيد ودوره في استغلال جولته الفنية عام 1846 للدعاية لمشروع قناة السويس في ألمانيا والنمسا، أحد أهم مشاريع الجمعية في القرن 19. لكن لم يكن شوقي مثل هؤلاء. على حد وصف الدكتور وحارس القاهرة، كان شوقي ينتمي لتلك الفئة من البشر التي تجعل فنانين من أعضاء «العمران» يشعرون أن لحياتهم معنى ويجب الترفق بمن لا يعلمون، وأحيانًا التعلم منهم وعدم الاكتفاء بالمراقبة.

عاشق ولهان أحبَّ عروسًا في الخامسة عشر، فتركته يوم العرس وهربت مع حبيبها، ليهجر كل ما كان من أمره مُنقلبًا على شأنه، مُغنيا مأساته مع كيد النسا ولعبة الزمان وغدر الأيام. شوقي/ ابن عروس برقبته الطويلة وربابته، أظل منسجمًا مع إيقاع الموسيقى وصوته الخشن وأفكر، بالتأكيد تاهت عروسه مع حبيبها حتى سكنت غرفة رخيصة في بدروم عمارة في شارع فيصل[6] يا لها من حياة بائسة!!!

---

(6) أكن كراهية عميقة لهذا الشارع، حتى الآن لا أزال أشعر باشمئزاز لمجرد تذكره. إنه بالضبط مثل الزائدة الدودية. في مرحلة من التطور البيولوجي كانت مهمة حيث تساعد أجسام البشر الأوائل على هضم السيلولوز الموجود في النباتات.

حينما كان العمر أخضر.. أتعرف، أتفهم؟

على أي حال كانت الزائدة الدودية تفرز هذه المواد وتخزنها وتهضمها بصبر، والآن تطورت أجسادنا وتغير نظامنا الغذائي، الفتيات الآن يتبعن أنظمة غذائية تعتمد على أكل الحبوب. تخيل لو أن واحده منهن نزلت إلى شارع فيصل ربما يغمى عليها فقط من رائحة عربات الكبدة. لقد تطورنا لكن لم يتطور شارع فيصل. ظل موجودًا هناك ليذكِّر هذه المدينة بأن الخراب جزءٌ منها. فيصل كان يهدد «القاهرة» كما خنجر فضي يبعد مليمترات قليلة عن الشريان الأورطي. وطبعًا لم يهتم أحد.. ثم.. ثم

..ثم كان كل هذا

يا إلهي كم أكره شارع فيصل.

الفصل الثانى

سكت الهوى.. والناموس طار

شوقي قناوي (ابن عروس)

دخلت ريم إلى مطعم «ماجو». في القَاعةِ الأرضية وقف رجلٌ هرمٌ أسمر ذو شارب كث، ابتسم لها على غير العادة. اقتربت منه وقبل أن تتكلم أشار بإصبعه إلى الأعلى صعدت السلم الخشبي الضيِّق. ترتدي تنورة سوداء طويلة. فكرتْ أن البدين العجوز قد يرى ساقيها من أسفل السلم لكنها لم تهتم. كانت ترتدي تي-شيرت أزرق سماويًا ضيقًا إلى حدٍّ ما، يُبرز نهديها كليمونتين صغيرتين وشعرها الكيرلي الطويل مَربُوط على جبهتها بوشَاح من اللون نفسه أزرق سماوي. لونها المفضل.

لجَسَدهَا رَائحَة شَيْء مَا قَاس، برَغْم هشَاشَة وُجُوده، حينَمَا كُنْت أُقَبِّلُ رَقَبَتَهَا أَو أَلْعَقَهَا كَكَلْب جَوْعَانٍ، كُنْتُ أَخْشَى فِيِّ أَحْيَانٍ أَن تَنْكَسرَ تَحْتَ شَفَتَيّ.

في الأعلى كان هناك عجوزٌ آخر لكنه نحيف، في مُقدمة رأسه صَلعة بينما شعر أبيض يتسلل بكثَافةٍ إلى بقاياها. في المكان رائحة همبورجر يحرقه الزيت. على أنفه استقرت عوينات رقيقة. ابتسم لها. واستغربت مَنظره في تلك البذلة الكاملة و«البوبينة» الصغيرة المعقُودة على عنقه. فتح بابا ذا لون أحمر في الجدَارِ فبان خلفه مَمر مُضَاء إضَاءة خفيفة.

***

أمرٌ غريبٌ كيف نتخذ قرارات عَنيفة بلا مُبرر واضح تجَاه علاقاتنا بالآخرين. القريب منك يصبح غريبًا. والصديق قد يتبدَّل عدوًا. لكن الماضي يظل جزءًا من العلاقة، وجزءًا منا. إلى جانب أن هناك قيمًا شديدة الرسوخ من الصعب ـ في الغَالبِ ـ تجاوزها.

هي مثلًا كانت قد اتخذت قرَارًا واضحًا بأن علاقتها ببسام «صفحة وانتهت» وكامرأة نَاضجة مُدربة، فقد كانت مدركة لكل تبعات قرارها. صحيح أنها كانت تود أن يظلا أصدقاء، لكنها مؤمنة أنه في حَالةِ استمرار جسور من أي نوع فهذا سوف يُفسد استقرارها.

لا تنظر إلى الخلف فتتحوَّل عمودًا من الملح.. تقول الأسطورة، وتحدَّث ريم نفسها. لكن كل هذا فجأة تَحول إلى رِمَالٍ تَذروها الريَاح مع رسالة على الموبايل.

حاولتُ في البداية الوصول أو الاتصال به لكن الهَاتف الذي طلبته ربما يكون مُغلقًا، في النهايةِ لم يكن أمامها سوى اتباع تعليمات الرسالة والذهَاب لمطعم «ماجو» في الموعد المحدد.

**

للوهلة الأولى بدا الممر لها طويلًا مُعتمًا حتى إنها اندهشت من وجوده دَاخل هذا المطعم الصغير نسبيًا، لكنها لم تخطُ أكثر من ثلاث عشرة خطوة حتى وصلت لنهَايته التي كانت عبارة عن بَاب سميك، في أعلاه يوجد مصبَاح الطوارئ الكهربائي الأحمر فتح العجوز النحيف الأصلع الباب بهدوء فخرج تيَار هواء مُكيف يَحمل نسيمًا بَاردًا، وأصوات موسيقى مُضحكة الإيقاع. تَنحَّى جانبًا وأشار لها بالدخول. دخلت فأغلق الباب خلفها.

في الداخل قاعة سينما صغيرة، الكراسي حمراء، والجدران مَكسوّة بقطيفة زرقَاء. في الصفوف الأمَامية تَجلسُ فتاةٌ ذات شعر أصفر التفتت نحوهما ما إن دخلا القاعة. وقبل الصف الأخير يجلس رجل عجوز وبجواره صبي لا يتجاوز عمره الرَابعة عشر. شقت الصفوف لتجلس في المنتصف وعيونها مُعلقة بوجه العجوز الذي يضع نظارات شمسية مُعتمة داخل قَاعة السينما وشعره مُصفف على الجَانب الأيمن كمحمود ياسين. العجوز بدا لها لافتًا للنظر أكثر من شاشة السينما لأن سحَّاب بنطلونه كان مفتوحًا وقد برز منه عضوه الذكري ويد الصبي الجَالس بجواره تدلكه ببطء وهدوء كسكّر يذوب في عصير الليمون.

على الشاشة تُعرض مَجموعة من الإعلانات السريعة لأفلام بورنو مُتنوعة لكن مُتشَابهة، نساء منفوخة تفتعل المتعة. شفاه مَفتوحة على اتساع. عيون تتصنع الإغماء. كُتَلٌ لحمية غير محددة الموقع ترتج من فعل الرهز. قُضبان مُنتصبة بشرايين زرقَاء وخضراء تكاد تنفجر. أصوات تأوّهات. وعيون الصبي مُعلَّقة بالشَاشة بينما يده تَتحرك على قضيب العجوز نصف المنتصب في حركة آلية مُنتظمة، للأعلى وللأسفل. «يلعن أبو اللي جابوك يا بسام.. أنت فين؟».

تسترخي أكثر في الكرسي. وتُحَاول التظاهر بعدم الانتباه لما يُعرض «سوف يظهر بسام قريبًا ويفسر كل شيء» فجأة يختفي إعلان فيلم البورنو الأمريكي الرخيص. ليبدأ علان آخر عن ضرورة مُسَاعدة لاجئي درافور مع الكثير من الصور لأطفال يُغطي الذباب ؤجوههم في أشكال كلاسيكية للفقر والبؤس، وابتسامة جورج كلوني تلمع وسط سواد فريقيا. ثم تصمت الإعلانات. نسمع تَصفيق الشقراء في أول صفوف القاعة.

"الرقصة الأخيرة لذبابة
الإست الزرقاء"

تمكن إنسان المستقبل من المعرفة . صور له غروره تحدي الله ، و صنع ذبابة.

-أنا الذبابة الذكية. لدي عقل إلكتروني مميز، مهمة دائمة. أنظف مؤخرة صانعي بعد التبول .

-صانعي من قوم لا يعرفون الشطافة. ويرفض استخدام ورق التواليت حفاظاً على البيئة. صنعني لكي أنظف طيزه.

" بقايا الخراء العالقة بأجسامنا سببت تشوهات، أدت لتدهور العلاقات الزوجية ثم الوفاة "

....

-ما تسيبنيش يا يوهان، أنا بموت ..
بحبك، بحبك، بحبك.

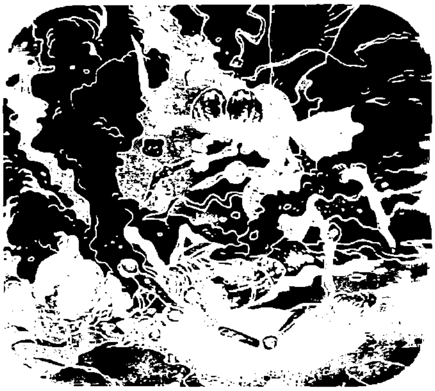

-لااااا ..

-كانت معركة قاسية.

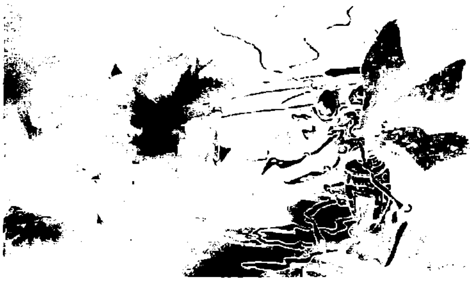

-سالت الكثير من الدماء.

-لكن كان يجب أن ينتهي عصر الإنسان.
لإنقاذ الأرض والذباب.

-لكن أصبنا بالاكتئاب، لم نجد
من ننظف طيزه بعد الآن.

بورتريه لعجوز في 6 أكتوبر

أتذكَّر كل ما سبق، محاولًا استعادة رؤيتي للأمور وقت حدوثها في العشرينات من عمري، لا كما صرت أعرفها الآن. ربما لهذا بدأت في كتابة هذا التقرير.

أتذكر لحظة البداية في شروعي في كتابة التقرير المعنون باسم «استخدام الحياة». كنت أمارس روتين الوحدة وتربية الأمل، ثم استلقيت على فراشي ذات مساء وبينما أتفقد «إيميلي» قبل النوم لفت نَظري تاريخ اليوم، لأكتشف أن غدًا هو عيد ميلادي السادس والأربعون. اندهشت من الرقم، فقط 46. أطفأتُ الجهاز وأنا أفكر في معرض «برقية حب لضفادع» الذي شاهدته منذ بضعة أيام.

أين ذهب اللون الأخضر. هل كان أصلًا موجودًا؟ لماذا إذن الحنين للون الأخضر هو الذي يطغى على معظم التصميمات في المدينة، حتى الفنانين الطليعيين دائمي الهروب من الكيتش والحنين، والذين ربما كانوا أطفالًا رضع وقت «النكسة»[7]، يظهر اللون الأخضر في مُعظم أعمالهم بكثافة. يبدو الأخضر كأنه معنى أكثر منه درجة لونية. مفهوم مستقبلي وفي الوقت نفسه استعادي لإرث ثقافي وحضاري لا يرتبط فقط بالهوية الوطنية لمصر، بل جزء من حرَاك فني وثقافي عَالمي. يترافق هذا بالطبع مع تلك الحملة القومية لتخضير الصحراء والشعَار الأثير للدولة «لنُحَارب الأصفر»، تنويعة جديدة على الشعار القديم «عايزينها تبقى خضرة».

الأخضر لم يظهر قبل الفاجعة، بل وُلد باعتباره دينًا جديدًا وحزينًا في النصف الثاني من القرن العشرين، أخذ يكبر مع تطور قدرة الإنسان على مراقبة الطبيعة وتغيراتها.

---

(٧) واحد من الأسماء المستخدمة للإشارة إلى حادث غرق القاهرة.

ومثل كل الأديان يؤمن أتباع الديانة بقوة إلهية غير محدودة هي الأم «الطبيعة». والإنسان هو الابن العاصي الضال لهذه القوة الإلهية. وإذا لم يتعظ ويتوب عما يفعله من ذنوب وكبائر في حق أمه الخضراء، فسوف تنتقم منه وتغرقه وتدمره. هكذا تم تصوير ما حدث للقاهرة ولمدن أخرى في السنوات الأخيرة كغضب من الإله الأخضر سيد الديانة الخضراء.

واقع الأمر أن الطبيعة ليست حالة ساكنة وتغيرها وتبدل ظروفها المناخية والجغرافية هو الأمر الطبيعي، ولولا التبدلات المناخية تلك ما كان الجنس البشري وغيره من الأجناس ليظهر على سطح هذا الكوكب. واقع الأمر أن الطبيعة أيضًا ليست خضراء. فالصحراء برمالها الصفراء وأحيانا الحمراء في بعض المناطق الجغرافية هي جزء أساسي من الطبيعة، ومحاربة اللون الأصفر لصالح اللون الأخضر تحت زعم خدمة إله الطبيعة الأخضر هو تضليل بيِّن واعتداء وحشي على الطبيعة.

لكن نقول لمين؟ أنصار البيئة دايمًا معرَّصين.

وحتى الآن وبعد عشرين عامًا لم نستوعب حجم الفاجعة.

طُرح الأخضر كلون في شعار تحالف شركات التعمير الجديدة بعد سلسلة الزلازل والفيضانات الرملية التي اجتاحت الكثير من المدن، لكن في غضون سنوات قليلة أصبح الأخضر مصدرًا لفعل، ومن الفعل خرجت مجموعة من المشتقات اللغوية المتنوعة، كوَّنت تلك المشتقات مفردات خطاب، والخطاب انبثقت عنه مجموعة خطابات، الخطابات تحولت إلى ظاهرة وانعكست في مجموعة متنوعة من الفنون والممارسات الثقافية الاجتماعية. حتى القمر الفضي والأبيض صار لونه أخضر.

في معرض «برقية حب للضفادع» بذلت سارة رفقي الكثير من الجهود لتخفي الحنين إلى ما مضى، لكن الضفادع التي توزعت على اللوحات وعلى أكثر من تكوين في قاعة العرض حملت داخلها رسَائل من المَاضي لا يمكن تجَاهلها. في أحد الأركان تراصت مَجمُوعة كبيرة من التمَاثيل الخضرَاء للضفَادع فوق بعضها بعضًا مُكونة هرمًا صغيرًا أخضر اللون. عقدة الذنب الكلبية لدى هذا الجَيل الجديد من الفنانين تصل لدرجة أنه حتى الهرم الأصفر يتمنون لو كان أخضر. حرف «لو» ينتهك عذرية مؤخراتهم كل يوم.

ماذا «لو» كنَّا أكثر حرصا؟ ماذا «لو» كنا أكثر اعتناءً بالبيئة وجغرافيا المدينة؟ ماذا «لو»

كنا أقل إزعاجًا للطبيعة؟ ماذا «لو» كان عدد النباتيين أكثر في المدينة؟

العجول الشابة تظن أن ضياع القاهرة فاجعة تقارب الخروج من الجنة.

والجنة حديقة البهائم العميان.

لسنوات ظلّت المحاولات اليائسة لإنقاذ ما يمكن إنقَاذه تتكرَّر في غبَاء يَشترك فيه مصريون واليونسكو وشعوب العالم. الإنسانية تواجه كَارثة، وتُراثنا مُهدًّد بالضيَاع. حوه يعني. وكأن وجود القاهرة بحد ذاته قبل ذلك لم يكن كَارثة. وكأن ترْكَها حتى تصلَ ى وضعها قبل النكسة، وتحول البشر داخلها إلى حيوانات متنوعة الفصائل وحشية روح لم يكن كارثة.

مع ذلك استمرت محاولات الإنقاذ. بُعُوثٌ استكشَافِيَّة للتَنْقِيب فِي بَحْر الرِّمَال دَائِم حرَكَة، لَكِن الكُل كَان يَغِيْب فِي صَحْرَاء الرِّمَال الْمُتَحَرِّكَة وَلَا يَعُوْد. إذن لنعيد بناء ما ضاع. لنثبت أن الروح التي بنت الأهرامات، والحلواني الذي رسم القاهرة لا يزالان حيين حاضرين فينا لنبني مصر من جديد، لتنهض من مقبرة الرمال. ليشدو صوت أم كلثوم «وقف الخلق جميعًا ينظرون». كانت هذه هي الروح الجديدة في البلاد. وهي كما توقعت «بابريكا» ما دفع مصر والمنطقة إلى قفزات طويلة نحو المستقبل. أي مستقبل؟

نحن فيه الآن، وكم أشعر بالسأم منه.

هو الماضي يغير أشكاله، هي صور الذات تَدعي الانتعاش.

أصبُّ الماء الساخن في الكوب، أحرك النعناع فيتحول لون الماء إلى الأصفر. أقف في النَافذةِ أُشَاهد بعيدًا السفن تَتحرك في مينَاء أكتوبر الرملي. الحركة دائمًا هادئة صباح يوم الجمعة.

***

أقرأ بضع صفحات من رواية «الإخوة كرامازوف» ثم أنظر إلى شاشة الموبايل. أترك الكتاب وأستلقي على الأريكة. أعيد النظر لشَاشةِ الموبايل. أعرف أنها لن تتصل ومع ذلك يائسًا أنتظر اتصالها. أمسك التليفون وأقلب في الأسماء مُفكرًا في شخص مُنَاسب يمكن تمضية النهار برفقته. عشرات الأسماء لا أعرف لماذا أحتفظ بها، والآخرون أعرف

أنهم بالتأكيد مَشغولون. يهاجمني نوع من الندم على القرارات الماضية التي اتخذتها لكني أبعد المنغصات عن ذهني، يا حبيبي مضى وقت العتاب. أتوقف عند اسمها «مونى مي». أتردد في الاتصال ثم في النهايةِ أرسل لها رسَالة نَصية:

ـ مياو مياو:-)

الفصل الثالث

هامى باشا
مساء الخير
بسام مدير وحدة البحوث والإعداد عندنا.
الأستاذة دولت من جمعية معماري المدينة ومهتمين بالتعاون معانا وعايزين يعملوا فيلم دعائي عن الجمعية.

لا نريد فيلماً عن **الجمعية**. نرغب في شيء أكبر، سلسلة أفلام تسجيلية عن عمارة **المدن**..

عن أم
المدن القاهرة
عمارة القاهرة.

رسالة من ريم

حيث إنك عامل مطنِّش، ومش بترد على التليفون، لم يكن أمامي سوى أن أكتب لك هنا على الإيميل.

تعرف جيدًا كم هذه المهمة ـ الكتابة ـ ثقيلة على قلبي، لكن قلبي على ابني انفطر، وقلب ابني عليّا حجر.

صديقي العزيز بسَّام،

كيف حالك؟

أنا بخير حال. أشعر أني قد وصلت لقلب الحكمة. مثلما أخبرتك فقد تركت العمل، لم أعد أتحمل كل هذه الضوضاء والإزعاج والجلوس أمام الإنترنت للرد على الإيميلات وكتابة الإيميلات، كل هذا تحت شعار دعم الطفولة. الشيء الوحيد الذي خسرته من هذه الوظيفة؛ أنه لن يكون هناك سفر بعد اليوم، لكن في الوقت ذاته لم أعد أحتاج إلى السفر أتمدد على السرير وأغمض عيني فيحضر العالم كله على أطراف أصابعي.

لقد كان الأمر كله تبريرًا.. تمحُّكًا.. حَكًّا فيما لا يُحكى يا بيسو. وأنت كنت غبيًا لدرجة كبيرة. أحمق متهورًا. منفلت الأعصاب كالعادة.

لكن ليس لك شأن بكل هذا. أنت لست طرفًا وليس عليك حرج. كل ما مضى بالنسبة لي صار اليوم بعيدًا. أتذكر الماضي فيبدو وكأنه سيرة امرأة أخرى لا أعرفها.

حينما أخبرتك بأني أفكر في ترك العمل، كان رد فعلك كله غريبًا بالنسبة لي. أتفهم أنك تعتقد أن العمل مع مُنظمة دولية لرعايةِ الطفولة من المنزل مقابل أربعة آلاف جنيه هو

مبلغ السعادة ومرسى الآمال. لكني لم تعد لدي آمال لأنتظر رسوّها يا بيسو. لا أبحث عن شاطئ لأن حياتي فقدت الضفاف منذ زمن. لهذا فلا تهمني الراحة والعمل من المنزل، ولا تهمني الفلوس، ولا الحب، ولا السكس، ربما الحشيش من فترة لأخرى كفيل بمنحي الراحة وذلك لأنه مخدر محترم وابن ناس كويسة.

لقد كانت معرفتك أمرًا مبهجًا. أنت ذكي، ولديك الكثير من عناصر السحر والجاذبية. صداقتنا سوف تستمر.

لكني مدينة لك بشيء ربما لم تكن لك علاقة به، الأمر أشبه بمصادفة. فتحت لي الكثير من الأبواب داخل نفسي، وعلاقتي بالعالم.

ما حدث هو أنني قد وصلتني رسالة من رقم تليفونك نصها كالتالي «أحتاج 400 جنيه ضروري جدًا. مطعم ماجو شارع شمبليون. بكره الساعة1» ماتفتكرش إنّي كنت ناوية أعبَّرك، قلت لنفسي أول ما قريت الرسالة «كس أمك، إنشا لله تولع» لكن علشان أنا بنت أصول، وأهلي علموني أعمل حساب للعيش والملح، بالصدفة كان عندي مشاوير تاني يوم في وسط البلد قلت أعدي أشوف في إيه. اتضح إن المطعم قفل من أسبوع. المبنى كله اشترته جمعية «معماري المدينة» بالصدفة أيضًا كانوا في انتظار واحده تقدمت لشغل منسق إداري في الجمعية، وبخطأ غير مقصود فقد تعاملوا معي كأني من جاءت لهذه الوظيفة. وطبقًا لمجريات الأمور في هذه الجمعية حيث الصورة قبل الكلمة. عرَّفوني أولًا بمهمتي من خلال فيلم سينمائي بحضور جمهور عرفت أن بعضه من أعضاء الجمعية القاهريين. لم يكن الفيلم الشهواني الغريب عن الجمعية بقدر ما كان عن فلسفة عمل الجمعية. الفيلم كان مدهشًا. والأكثر إدهاشا المقابلة التي تلته مع رئيس الجمعية إيهاب حسن[8] أوضحت له أنني لم آت من أجل الوظيفة، لكنه عرض عليّ في كل الأحوال التفكير في الأمر، تناولنا الغداء معًا بعد ذلك في كافيه ريش.

راجل لطيف جدًا، من زمان لم أقابل شخصا وارتحت في الحديث معه مثل إيهاب، الحديث مع إيهاب يجعلك تكتشف الكثير عن العالم المحيط وعن العالم داخلك. يُهيأ

(8) هل أضع ثقة في نفسي حين أقول إن كل هذا كان مدبرًا للإحاطة بي؟ لكن حتى حينما أفكر في ذلك أتذكر كلماته: «لا تجعل الهوس يتملكك.. أحيانًا وغالبًا حركة قبل أو بعد توقيتها أو رفيف فراشة أو نباح كلب في توقيت خاطئ يسرِّع المتسلسلة، ويسحب الحبل حولك».

إليَّ أن القرف الداخلي ليس سوى انعكاس للقرف الخارجي، أو ربما العكس لكن في كلتا الحالتين فهذا القرف يتسلل داخل روح الجميع ويفسدها، لهذا من الطبيعي أن نفتقد القدرة على التواصل في سلام.

لا أعرف إذا كنت أنت مَن أرسلت تلك الرسالة أم لا حتى الآن، وهل تعرف الجمعية؟ سألت مستر إيهاب عنك لكنه أخبرني «بسَّامٍ بهجت... لا أعرف أحدًا بهذا الاسم المبهج»[9] في الأغلب ربما يكون الأمر خطأً تقنيًا غير مقصود، أو رسالة مقصودة من الله ليفتح لي ذراعيه مرة أخرى وينتشلني من السحابات السوداء التي تجثم على حياتي.

ربما تكون قد أرسلت «أنت» الرسالة إليَّ بطريق الخطأ. وفي كل الأحوال أشكرك على أن اسمك أرشدني بطريقة ما إلى هذا الطريق.

سلام.

(9) حتى حينما يحاول الادعاء يفعلها بأسلوب الجنتل مان.

بورتريه لمونى مي في العشرين

ـ مش بس كدا يا تارانتينو، أنا ممكن أبضن على نفسي، وأقعد آكل في دماغي ودماغي تاكلني، والمشكلة أن دمَاغي مُمكن فعلًا تكسب وتاكلني.

ـ لا لا يا بيسو... كدا أقلق عليك. أنت بالذات لو دماغك أكلتك مش هيتبقّى منك غير طيز

هاها ها هاهاا هاها ثم انفجارات متواصلة في الضحك، هبطت «شوطّات» التكيلا على الطاولة، أخرجت لسانها الطويل ولعقت كف يدها وعيناها تتدحرجان على خدي ورقبتي، ثم أخذت ترش الملح بكثَافة على يدها ونَاولتني الملاحة لكني وضعتها على الطاولة مكتفيًا بشريحة الليمون في يدي.

لحست الملح من على كفِّها، ثم رفعنا التكيلا مرة واحدة. ضَغطتُ على الليمون تحت أسنَاني وأنا أمص عُصَارته. أغمضت عينيها ثم فتحت فمها وقد أحاطت ذرَات من الملح بشفتيها «حححححاح» تناولت سيجَارة من عُلبة الميريت الأصفر على الطاولة وأشعلتها وهي تقول بطريقتها السريعة في النطق وأكل مخَارج الكلمات:

ـ ممكن أسألك سؤال؟

ـ ممكن تسألي سؤالين كمان.

ـ إيه قمة الأدب؟

ـ مش عارف، إنك تستأذني قبل ما تسألي سؤال مثلًا؟

ـ لا، لما تبقى «هافنج إنال سيكس» والبنت تتدَوَّر وتطَّلَّع فيك وتقول «سوري مدِّيَّاك

ضهري».

إلقاء النكت ذات الإيحاءات الجنسية كان واحدة من المهَارات المُتعدِّدة لمونى مي، إلى جانب مهَارات أخرى طالما أثارت انبهاري كارتداء الكيمونو والمشي به في شوارع القَاهرةِ، دَلق زُجَاجة البيرة بعفوية بَالغة، إغواء جاك دانيلز وجعله يُحَاسب على كل المشاريب في نهَايةِ السهرة، قتل الأطفال الصغار بضربهم في العنقِ بمقدمةِ حذائها المدببة، مص القضيب تحت المياه في حمامات السباحة، لعق المني وشربه كله في دفعة واحدة، قطع الأشجَار الصغيرة وزرع أخرى أضخم منها ذات زهور حمراء عملاقة، إطلاق أشعة ضوئية من أصَابع يدها عند الرقص لإحداث تأثيرات هارمونية في المكان، مَعرفة الطبقات المتشَابكة المتداخلة التي يتكون منها تاريخ السينما الأمريكية، صُنع فيروسات بيولوجية من مكونات مَنزلية بَسيطة، تحويل طلبة الجَامعة الأمريكيةِ الذين لا يروقون لها إلى جرَادٍ وبيعهم كجمبري لمطاعم السوشي، ضربة النسر المحلّق، قبضة النمر الشرس، التحدث بخمس لغات حية وقتلها، وطبعًا مهارتها الأهم ضربة الكف الخماسي التي تمكنها من إخفاء أي شخص في رمشة عين.

***

وقعتُ في حبها، وفي حب التكيلا، وفي حب الملح وذراته، والليمون وطعمه الحامض.

لكني كنت قد تعلمت من تجاربي السابقة الكثير. ففي زمن كهذا الزمن لم يكن مسموحًا بالوقوع في الحب بتلك السهولة، أو الاستسلام لأشعة شمس الرومانسية حينما يعمي وهجها عينيك، وإلا فأحقر ميكروباص يعبر الطريق سيتكفَّل بدهسك وأنت مكانك معميٌّ من الحب. من يعبرون عن مشاعرهم في هذه المدينة حتى لو كانت متبادلة كان مصيرهم السخرية، أو النظر إليهم كمصابين بالقذف السريع، لا يمكن الثقة في ردود أفعالهم، يجب أن تكون مثل الكائنات الميتة الباردة المحيطة بك في المدن. يقولون هنا «كُل كما تشاء، لكن عبِّر عن مشاعرك كما يريد الآخرون».

تظاهرتُ بالتماسك. سيطرتُ على انفعالاتي ومارستُ لعبة الاصطياد بأعصاب باردة ومهارة. يخاف الواحد حينما يقع في الحب في مدينة كالقاهرة من السيناريوهات البسيطة. لا يمكنك مثلًا أن تتقدم نحوها وتعترف «مونى مي لقد وقعت في حبك».

عبارة مثل هذه كفيلة بنسف كل خطط وأحلام المستقبل.

أتعرف كم مغازلة ومعاكسة تتعرَّض لها في اليوم الواحد؟ أتعرف كم عرضًا بالزواج أو همسة ذكر عابر «عايز أعمل واحد» تسمعها في اليوم؟ إذا كانت الحياة في القاهرة بالنسبة للذكور كابوسا. فقد كانت للإناث واقعًا جهنميًا لا يمكن الإفلات منه. والبحث عن صداقات خالية من العواطف الجيَّاشة حيث يمكننا احتساء الشراب وتبادل الأحاديث كقوم متحضرين كان بالنسبة لهن أفضل من عبارات عاطفية جياشة حتى لو كانت صادقة.

لهذا فعملية الصيد أو المصارحة يجب أن تمر عبر أنفاق عميقة، وتعبر كباري شاهقة، وطرقًا ملتوية. وللأسف لا يكون لدى الواحد خيار سوى ارتداء ثياب الحمل، حتى لو كان إنسانًا وليس ذئبًا.

***

لكن من قال إن الحب يتبعه أي شيء؟

مع «مونى مي» لم أكن أسعى أن يهبني الحب أي شيء، ولم أكن أفكر أو أطمح في خطوة تالية. بل كنت أرفضها ولا أريد العبور إليها (أقصد أي خطوة تالية).

لقد جلست على الفراش عاريًا أتابعها وهي تتحرك في الغرفة بحثًا عن ملابسها المتناثرة في كل مكان. وفكرت أن هذا أفضل ما يمكن أن نصل إليه، لا أريد أن أفقدها أبدًا. وليس لديَّ ما أمنحه أيضًا.

كان هذا منذ سنوات بعيدة، لكن رغم ذلك فتفاصيل هذا المشهد حاضرة وبقوة، لا الألوان ولا جسدها الممشوق أو شعرها الأسود القصير فقط. بل حتى رائحة العرق المخلوطة بالدخان ومياه الشهوة، وبقايا حيواناتي المنوية الجافة على بطنها.

***

يمكنني أن أكون ما أريد. وما كنت أريده مثل أي حيوان ذكري لديه قضيب وخصيتان وفي زهوة الثالثة والعشرين أن أكون في وضع آمن خلف أسوار مَدينة الملاهي، أحيانًا أسمح لبعض الزبائن بالدخول، وأحيانا أطل علَى المشهد الخارجي.

صارحتها في جلسة على مقهى رديء، وقد كانت الرطوبة تأكل في جلدي. «مونى لا

أعتقد أن هذا الموضوع يمكن أن يستمر».

ـ أي موضوع؟

سألت وهي تمصُّ العنَّاب عبر مصاصة بلاستيكة بيضاء طويلة.

ـ موضوعنا.

وضعت الكوب على الطاولة بعدما استمعت بتركيز لبقية تهتهتي، انصرفتْ دون سلام أو وداع.

تلك النظرة في عينيها حينما تَرفع خصلةَ شعر، الرجفة التي تُحدثها في المكَان حينما تَضع سَاقًا فوق ساق، الموبايل حينما تتركه يرتاح بين فخذيها المصقولين، هزة صدرها حينما تضحك. هل يا ترى، كلها تفاصيل لا تُشترى، لا يمكن نسيانها، فهي مثل اللبوة تعرف أين تُخربش بأظافرها.

تركت لي جرحًا فوق العانة، وعضة على الرقبة.

اختفت لفترة طويلة، ثم ظهرت مرة ثانية. أو أنا الذي ظللت أطاردها. وكل يوم قبل النوم كنت أغمض عيني وأتخيل أن أرسل قوى ميتافيزيقية غير مرئية لأحرك المقادير وأجبرها على دفع «مونى» في طريق.

ما بيننا لم يكن مثل كل تلك القصص، لم يكن جذوة شغف تَشتعل وتنطفئ على حسب شدة الريح، أو دراما تتصَاعد فيها الدموع نوافير. بل تفاهم عميق يُصَاحبه قدر من البلل حينما نَهيج على بعضنا بعضًا في لحظات السُّكْر أو اتفاق الأهواء والأمزجة. كانت صداقتنا وحتى الآن موصولة بقوة لم أعرف أبدًا كينونتها، ولا كيفية ممارستها لسلطتها عليَّ.

زهرة الزهرة

تعجبتُ حينما اقترح شقته في شارع عدلي كمكانٍ لأول لقاء، لكن مدام دولت أكدت «نعم يمكنك زيارته في شقته الخاصة». وحينما ركبتُ الميكروباص من أكتوبر في اتجاه ميدان التحرير هاتفته لتأكيد الميعاد ومعرفة العنوان بدقة:

ـ الباشمهندس إيهاب حسن معايا؟

ـ نعم هو أنا.

ـ أنا بسام بهجت، مدام دولت قالت لي إني ممكن أزورك النهاردا نتكلم في تفاصيل مشروع الفيلم.

ـ آه طبعًا.. أنا مستنيك، ميعادنا بعد ساعة صح؟

ـ مظبوط يا أفندم أنا خلاص في الطريق.

ـ روعة الروعة.. قُل لي.. إنتَ اتغديت؟..

ـ لا يا أفندم مافيش داعي والله.

ـ أنا كده كده بطبخ حاليًا هعمل حسابك معايا، سلام أشوفك بعد ساعة.

ثم أغلق الهاتف، نظرت لشاشة الموبايل «ناقصين هبل إحنا» ثم انتبهت أني لم أسأله على العنوان، فكرت في الاتصال به مرة ثانية، لكني أجلت الأمر حتى أصل إلى شارع عدلي وهناك أعاود الاتصال به.

فَتحتُ الشبَاكَ لكن الهواء صفع وجهي ساخنًا. يوليو القاهرة. سوف يموت يوليو بعد يومين، ويأتي أغسطس شهر العذاب الحقيقي. على المحور تتراص اللافتات الإعلانية الضخمة، البشر فيها مبتسمون منتعشون. فتحت الحقيبة التي أحملها على كتفي لم يكن هناك سوى الأجندة التي سأكتب فيها الأفكَار والملاحظات، تأكدت من وجود القلم، وأسفت على عدم وجود كتاب للتسلية في الطريق. أخرجت الموبايل وأخذت ألعب فيه، فتحت الإنترنت فوجدت إيميلًا من ريم، أخذت أقرأ الرسالة/ الإيميل بتمعن. سرحت في دوامةٍ من الأفكار.

دعت سيدة عجوز لي ذات مرة ونحن نصوِّر في المقطم فيلمًا عن ضحايا الانهيارات الصخرية «ربنا يحميك من الفكر يا ابني». ثم أعدت قراءة الإيميل، لكن هذه المرة لم أفكر في ريم بل فكرت في تلك المصادفة الغريبة، أن تذهب هي مصادفة لوظيفة لم تتقدم لها في جمعية «معماري المدينة» وتُقَابل نفس الشخص الذي يفترض أنني الآن في الطريق إليه، ثم ما هذه الرسالة التي وصلتها مني على الموبايل. تقتحم أفكاري أصوات أبواق السيارات. أنظر من النافذة لأجد الطريق شبه متوقفة.

هذه مشَارف ميدان لبنان. رائحة النفايات والروث القادمة من مقالب النفاية ومزارع الخنازير تصيبني بالغثيان. ونش يلضم سنارته في عربة لجرها. صدام اشتركت فيه ثلاث عربات. ثلاث نساء بدينات بعباءات سوداء في عز الحر في انتظار أي مواصلة. بؤس ينبع من الأرض وينهمر من السماء في تلك البقعة. وعلى اليمين كنيسة ضخمة مُعلقٌ عليها صورة القديس يقتل الوحش الشرير. وعلى اليسار جامع تحت الإنشاء يجتهد العمال في رفع مئذنته بحيث تصل قمتها لما هو أعلى من برج الكنيسة. يتحرك الميكروباص ببطء. العرق يغرق إبطي. لكني كشاب حويط أغرقتُ إبطيّ قبل النزول بمضادٍّ العرق. العرق يغرق وجهي أمسحه بكف يدي وأظل أزفر الهواء ساخنًا، وبين فينة وأخرى أبتلع ريقي. تتحرك العربات ببطء وأقدر أن خيط الزحمة يمتد حتى ميدان سفنكس، وبالفعل بينما استغرق الطريق من أكتوبر حتى مشَارف ميدان لبنان نصف ساعة. استغرق الطريق من ميدان لبنان حتى ميدان التحرير ساعة كَاملة. مرحبًا بكم في جحيم القاهرة، حيث الحياة كلها انتظار، ورائحة الزبالة وروث الحيوانات بأنواعها دائمًا في كل مكان.

* * *

كانت لديَّ مُدونَّة، لكني في هذا الوقت لم أكن أنظر للكتابة على أنها شيء يستحق

التقدير في مُقَابل السياسة، وفي مقابل الإعلام، وبالطبع في مقابل المال الأعلى بالمقارنة مع كل ما سبق.

هكذا كنت أفكر في ذلك الوقت. أندهش الآن كيف كانت الحقائق ومُحددات وأهداف الحياة واضحة إلى مثل هذا الحد.

مع ذلك كنت دائمًا ما أشعر بالكآبة. أستيقظ في الصبَاح عَاجزًا حتى عن الابتسام في المرآة. لم أكن وحدي، بل كل من يحيا في هذه المدينة كانَ عاجزًا عن الابتسام، بعضهم نسي كيف تكون الابتسامة، وفي اللحظات النادرة حينما يبتسم لك نادل ما في المطعم، أو أي شخص يسدي لك مَعرُوفًا حتى لو كان يُسَاعدك في ركن سيارتك، تعرف طبقًا لقوانين المدينة أنك يجب أن ترد له هذه الابتسامة بمُقَابل مادي، مع أنك تعرف أيضًا أنه سوف يسبك ما إن تعطيه ظهرك. القاهرة كلها كانت وعاء كرَاهية، كانت المادة الخام للكرَاهية والتعاسة.

وظيفتي الحالية بدت لي في البداية مُغرية، إذ كان باب السياسة مُغلقًا بحكم وجود الجنرال في سدة الحكم. فعلى الأقل يمكنني المُحاولة في الإعلام. (علّي وعلّي الصوت الحرية مش هتموت) كانت لدي أحلام كثيرة مُنطلقة. وظيفتي كانت الأفكار، الابتكار، ثم تطوير الأفكار لتصبح أفلامًا تناسب المشاهد العربي وترضي المنتج القطري.جزء من عملنا كان الدعَاية والترويج. لقد كان كل عملنا ترويجًا في الحقيقة. حلمت صغيرًا بكلاب تتكاثر على شاطئ ترعة نيلية صغيرة، ونباحها كان مُزعجًا مخيفًا حتى إن قلبي كاد يموت فزعًا داخل الكابوس. ماذا سوف يريد الباشمهندس إيهاب؟

لقاءات سريعة مع أعضاء الجمعية. مناظر ولقطات لعمارة القاهرة. ربما نَبتكر ونجعل الباشمهندس نفسه يتمشّى في شوارع القاهرة ويشير بإصبعه لتفصيله هنا أو هنا. انقذوا القاهرة. باريس الشرق. اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني. القاهرة، القاهرة، القاهرة.. كس أم القاهرة صبح وليل وعشا وإلى ما لا نهاية.

أستغرب الآن بينما أراجع هذا التقرير، كيف أني حتى هذه المرحلة لم أربط بين إيهاب الذي قابلته ريم، والباشمهندس إيهاب. ربما لأني وقتها حينما كنت أقرأ رسالة ريم ظننتُ أني أتعامل مع ريم التي أعرفها، والتي ستحاول دائمًا إخفاء حقائق الأشياء وخلق متاهات من التفاصيل بين المقصود بالرسالة يظل داخلها، لم أحتفظ باسم إيهاب حينما وصلني في رسالة ريم، وتأخرت كثيرًا في الجمع بين الأشياء.

للصدق تأخُّرٌ لم يكن ليصنع تغييرًا أو اختلافًا عمَّا كان مقررًا.

***

ـ ها.. قُل لي إنت خرِّيج إيه؟

درتُ حول نفسي مُتفقدًا ديكور الشقة وأنا أجاوب بآلية:

ـ أنا دراستي الأساسية علوم سياسية.

برغم سنه وصلعته وشعره الأبيض على الجانبين، لكن حركته بدت خفيفة جدًا. والأخف هو ديكور الشقة الصغيرة نسبيًا. قدرت أن مساحتها لا تتجاوز 120 مترًا لكنها 120 مترًا دون أي أبواب غير باب الشقة. المكان كله خالٍ من الأبواب لأنه بلا جدران. ما إن تدخل من باب الشقة حتى يقابلك المطبخ المصممٌ على الطريقةِ الأمريكية، وأمام «البوتاجاز» طاولة صغيرة جلستُ عليها، عن يساري يوجد في أقصي الشقة سرير ضخم عليه ملاءة بنفسجية اللون، وبجوار السرير باب البلكونة المطلة على شارع عدلي، ومن الناحية الأخرى تمثال أسود من الرخام لامرأة شبهة عارية، يدها مرفوعة لأعلى مُمسكة «أباجورة» تخرج ضوءًا أصفر هادئًا. في الطرفِ المقابل من الشقة يوجد بانيو، بجواره حوض لغسل الأيدي، ثم «كابينيه». بدا لي هذه التصميم غريبًا. جريئًا بالنسبة لشخص مثله، خصوصًا مع اللون البنفسجي الذي يظهر في التفاصيل والثنايا.

من المستحيل أن يكون التصميم الأساسي لأي شقة في القاهرة مفتوحًا هكذا ولا بد أنه أجرى الكثير من التعديلات عليه حتى يصل إلى هذا الشكل النهائي.

بدأ في وضع الأطباق على الطَاولة:

ـ أنا عارف إن طبيخي عجيب شوية، أتمنى ألا يزعجك.

ابتسمتُ وقد خرج الردّ مني جاهزًا «يا أفندم الموضوع بسيط، ومكنش فيه داعي تتعب نفسك» عرض محترف. طبعًا تربية اقتصاد وعلوم سياسية. دفعة كاملة من المعرصين الشباب يتنافسون حول من يعرص أكثر. اليوم تحولتٍ السياسة إلى علم إدارة، والإدارة علم ممارسة السلطة، وللوصول إلى سلطة يجب تعلُّم التعريص، وفي كليتنا يا زملاء كفاح أربع سنوات نتعلم التعريص أبجد هوز حطي كلمن، وإذا لم تنجح الكلية في تعليمنا

فالحياة مدرسة يمكنها أن تعلم أكثر الأغبياء غباءً ضرورة الاجتهاد وإرهاق [illegible] في التعريض. شعرت باحتباس البول يضغط على مثانتي «لطفًا، ممكن أستخدم الحمام؟» كان يخرج الفرخة كَاملة من وعاء «الشوربة»، أدار وجهه وابتسم ابتسامة نصف خبيثة. كأنه فيلم جاسوسية لنادية الجندي «أه طبعًا الحمام هناك أهوه» وأشار برأسه في اتجاه الحمام.

أعطيته ظهري وفتحت سحّاب الجينز، أخذت أطرطر. ضايقني صوت ارتطام مياهي الصفراء بمياه الكابينيه، هذا المرة لم يكن هناك من باب لأتأكد من غلقه حتى لا يتسرب الصوت للخارج. الخارج كان في الداخل، والداخل ذائب في الخارج، والصوت بالتأكيد يصله وليس من اللائق أن يسمعه وهو يتناول بالملعقة أول رشفة من حساء الدجاجة.. شعرت بالحرج ربما. لون أحمر صبغ أنفي. تناولت منديلًا ومسحت «الحمامة» ثم رميت المنديل في سلة نفايات بلاستيكية بجوار «الكابينيه» غسلت يدي وعدت للطاولة.

طبقي كان يتكوّن من ورك فرخة غارق في مياه الشوربة بمصاحبة الكثير من البصل، وبجواره وعاء يحتوي على خضار مسلوق غارق أيضًا في مياه الشوربة. ابتسمت وتظاهرتُ بالشم والرضا:

ـ هو حضرتك اللي مصمم الشقة، ولّا هي كدا؟

لفت نظري أن سكينة الطعام حادة وقوية، وبجوارها يوجد قُفَاز جلدي ذو لون أزرق. أنت جامد أوي يا أونكل.

ـ آه أنا اللي مصممها، لم تنته كلها بعد لا يزال هناك بعض التفاصيل..

أشار بإصبعه باتجاه السرير «عايز أجيب مرآة بيضاوية هنا فوق السرير» ثم ارتدى قفازًا وردي اللون مماثلًا لما هو أمامي، أمسك ورك الفرخة الموجود أمامه ورفعه أعلى رأسه، بالقرب من فمه المفتوح، ثم أخذ يعصره بيده، والمياه تتساقط مصبوغة بلون وردي داخل فمه. ثم وضع ورك الفرخة في الطبق وأمسك السكينة وبدأ في تقطيع الورك. ببساطة كانت الفرخة نيّئة لم تنضج بعد. نغزت الورك الموجود أمامي بطرفِ السكين، فتأكدت أنها نيّئة. أحرجت، هل أصرِّح بذلك أم أعتذر، نظر إليَّ مُتنبِّها لحيرتي وقبل أن أنطق جملتي التالية رن جرس الباب. خلع القفّاز. فتح الباب. شكرًا.

عاد ووضع أمامي كيسًا ورقيًا عليه شعار ماكدونالدز «أنا أحبه».

كنَّا أحيانًا نتمازح محولين الجملة من أنا أحبه، إلى أنا قحبة. من غرائب الأمور أن ماكدونالدز القاهرة أفضل حتى من أي ماكدونالدز أمريكا بشهادة الأمريكان أنفسهم. حتى حينما تنجح مؤسسةُ ما في هذه المدينة يجب أن تكون مُهجنة مخلطة، خَدمَاتها ليست أكثر من سندوتش همبرجر، وبطاطس، مقليين في زيت معاد الاستعمال أربع عشرة مرة.

ـ يا أفندم ماكنش فيه داعي..

ـ أنا وعدتك إني عازمك على الغدا، لكن قلت أكلي ممكن مايعجبكش.

ـ أنا الحقيقة...

قاطعني مبتسمًا «أنا طلبت لك سبرايت مش بيبسي على فكرة».

قررت أن أكون مُبَاشرًا وأنا أفتح حقيبة ماكدونالدز الورقية «لكن ليه حضرتك بتاكل الفراخ كدا».

كان قد انتهى تقريبًا من الورك الذي أمامه وقد اختلط الجلد الأبيض باللحم الوردي للفرخة المسكينة.

ـ أنا مش باكل الفراخ كدا، أنا باكل كل حاجة كدا. فقط مياه والقليل من البهارات، والكثير من اللحم. هذه الطريقة هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها أن تحصل على عصارة الطعام، طعمه يصير نقيًا غير مهذَّب. وفائدته الغذائية أروع ما تكون.

أمسك قطعة لحم نيئة بين إصبعيه، وغمسها في طبق صغير يحتوي على فلفل أسمر وملح. ثم قذفها إلى فمه. وأكمل.

ـ أما الطعم فهو زهرة الزهرة.

شعرت بقطعة اللحم تحت ضروسه، تضغط برفق واللسان يقلبها بين الأضراس اليمين واليسار. يمضغ ببطء من يستنشق عبق زهرة صفراء. دون إرادتي وجدت نفسي غائبًا في حركة فمه، سرحت عيناي دون إرادتي في شفتيه. شفاه متوسطة ليست بالرفيعة

ولا الممتلئة. تحيط بها تجاعيد خفيفة. مضمومة لكن مع ذلك شعرت بحركات دهس وهرس الأسنان للحم. حركة شفتيه وفكه كان لها أثر التنويم المغناطيسي، ولم أشعر كيف مر الوقت إلى أن تناول قطعة لحم ثانية وقبل أن يناولها لشفتيه، أيقظني صوته:

ـ قول لي.. ليه سبت العلوم السياسية والاقتصاد واشتغلت في الأفلام التسجيلي

انتبهتُ كمن استيقظ من حلم كانت قدماه فيه مغروسة في الرمال. قلتُ:

هه؟

***

اللّت والعجن دام لثلاث ساعات تلت الغداء. قهوة مغلية. سجائر L&M. ثم عزم عليَّ بسيجار لم أتبيَّن نوعه أو بلد المنشأ الذي خرج منه. عجن ثم لتّ. لتّ ثم عجن.

تُمثل طريقتي في إعداد الطعام جوهر الفلسفة المعمارية التي تتبناها الجمعية. العمارة ليست البحث عن الجمال أو فاعليته. بل هي استنزاف كل موارد الطبيعة، عصر كل عناصر البيئة إلى آخر نقطة. التاريخ، الأسلوب، الجمَال، الخصوصية الثقافية. كل هذا نوع من الهوامش، بل هي زوائد جلدية ناتجة عن العمارة. لولا العمارة ما كانت كل هذه الفنون والآداب التي تشكل الحضارة لتظهر. بالتالي من غير المنطقي أن تنصاع الأفكار المعمارية لأشياء عبثية كالخصوصية الثقافية، والبعد التاريخي إلى آخره. العمارة تقود ولا تقاد. والخلل المعماري الحقيقي يحدث حينما تقود مثل هذه الأفكار العمارة. حين يتوقَّف التطور المعماري في المدينة، وتصاب الروح بالشروخ والندوب، يتجمَّد الزمن. ويتعفن كل شيء من الفواكه على الشجر إلى اللحم على الطاولة.

تصلني رسالة من «مونى مي» وأنا أستمع له وأسجل بعض الملاحظات، مجرد كلمات متناثرة. تسأل «مونى مي»:

«بتعمل إيه النهاردا يا كتكوت المدينة؟!»

أغلق الموبايل مؤجلًا الرد عليها.

«في ذلك الزمان كانت بعض المدن مثل القاهرة قد وصلت إلى نقطة لا يمكن معها إصلاح أو تجميل الواقع. بل أصبح عمران

القاهرة لا يختلف كثيرًا عن أنقاض متراكمة ومرمَّمه برداءة بلا أي أفكار أو خيال أو طموح. وأصبح السؤال الوحيد الذي يواجه أي معماري هو كيفية تطويع هذا الركام إلى عناصر مُفيدة للإنسان. ومن أجل تحقيق هذا فيجب تغيير وجهة النظر التي ننظر من خلالها للمدينة ونتعاطى مع عمارتها. وجهودنا في القاهرة لا تتركز على طلاء بعض المنازل والبيانات أو إعادة تخطيط بعض الشوارع، الجمال أمر نسبي لا يشغلنا حاليًا، نتمنى فقط أن نجعل الحياة في هذه القاهرة أقل تعاسة وأكثر بهجة. أن نفتح نوافذ يمكن أن يدخل منها الضوء إلى هذا الخراب».

ـ إذن باشمهندس إيهاب، حضرتك إحنا بنتكلِّم عن فيلم عن عمارة القاهرة؟

ـ لا أبدًا، مش شرط القاهرة، ومش شرط يكون فيلمًا واحدًا.

صب من زجَاجة مياه مَعدنية أمامه في كوب زجاجي عليه رسومات شرقية مُذهبة، ثم أكمل.

ـ دعنا نكون أكثر تحديدًا؛ نحن نرغب في سلسلة أفلام، لا يهمني عددها، كما أننا مستعدون للدفع بأي ثمن يناسبكم. المهم أن يرضينا الإنتاج النهائي.

نظر إليَّ. عيناه ضيقتان. ذواتا لون أزرق صاف، في بؤبؤي عينيه أمكنني أن أرى انعكاس صورتي وبدا كأن هناك إحساسًا عصيًا على الوصف تحيطني به نظرته، شيء لا يمكن إمساكه ناعم وخفيف كأنه وشاح من الحرير.

ـ ويرضيك أنت.

رن جرس موبايلي فظهر اسم «مونى مي». هذه المرة شعرت أني في حاجة للابتعاد عن مجال تأثيره وجاذبيته غير المريحة.

ـ بعد إذنك بس لازم أرد.

ـ اتفضل.

مشيتُ خطوتين باتجاه السرير ثم أدركت سخافة ما أفعله في شقة بلا جدران:

ـ ألو

ـ أنت فين يا كتكوت؟

ـ خير؟

ـ اسمع تعالى الزمالك النهاردا، هيبقي فيه حفلة جامدة جدًا في شارع حسن صبري.

ـ حفلة مين؟

ـ يوسف بزِّي..

ـ بزِّك مين؟ أنا معرفهوش..

ـ ولا أنا، تعالى بس، أنا هقطع لك تذكرة.

ـ على كام؟

ـ لا أنا عازماك يا كتكوت.

حينما عدت للطاولة كان قد قام من مكانه في اتجاه السرير، مد يده أسفل السرير وأخرج علبة مناديل كبيرة، تناول واحدًا منها ثم عاد للطاولة، ومسح بالمنديل بعض رماد السجائر الذي سقط على المفرش الأبيض للطاولة، كوَّم المنديل ثم وضعه في جيب بنطاله وجلس ويده لا تزال في الجيب. حمامة مقطوعة الرأس تنزف دمًا أزرق. لمح حيرتي. ونظر للكشكول المفرود أمامي والذي كان كل ما سجلته فيه مجموعة من العناوين والجمل المقتطفة من حديثنا. رفع رأسه:

ـ سأسهِّل عليك الأمر، كبداية خلينا نشتغل على عمارة الطريق الدائري..

أخرج يده من جيبه، وبسط كفيه على الطاولة:

ـ المنطقة دي رائعة. جماليًا هي أقبح مكان على ظهر كوكب الأرض، يستحيل أن تجد مكانًا ينافسه في القبح، لكن في نفس الوقت عبقرية العمارة الشعبية هناك مذهلة، مافيش مكان في العالم الناس فيه بتبني جنب الطريق الدائري، لكن الناس اقتحمت هذا الحاجز وخلقت منه إمكانات وفرصًا جديدة، هذا نموذج مفرح مبشر لكيفية التعامل مع معطيات

الواقع الجغرافي.والديمغرافي للقاهرة. لكن كل ما يحتاجه هو إعادة تأهيل أو للدقة خلق هوية للمكان. العشوائيات مثل عمارة الطريق الدائري مشكلتها في أنها بلا هوية محددة.. والسؤال الذي نحاول البحث عنه في أول أفلامنا هو ما هي الهوية المعمارية التي يقدمها مكان كالمساكن المحيطة بالطريق الدائري؟

خرجت من الشقة شاعرًا بأن دماغي سفينة تغرق في سوائل ومياه محبوسة داخل جمجمتي. طوال حديثنا كنت أشعر أن كل جملة تخرج من فمه موزونه ومقدرة ومصنفرة ولها تأثير وهدف واضحان محددان. لم يكن كلامه حكيمًا لكن حضوره وطريقة حديثة كانا فيهما شيء لا أدرك كنهه، ولا أعرف كيف أصفه. إنها جاذبية قوية دون جبروت.

في اللحظة التي أغلقت فيها باب الشقة خلفي واتجهت نحو باب المصعد، عرفت أني سوف آتي لهذا المكان مرة ثانية. وأني قد نسيت شيئًا ما في هذه الشقة لا أعرف ما هو. أما عن إيهاب حسن فقد كنت واثقًا أن هذا اللقاء ما هو إلا البداية.في الأسانسير هاتفت «تهامي»، ولم تكن عندي قدرة أن أشرح له أي شيء، لا عن طبيعة المشروع ولا عن طبيعة الشخص - إيهاب- فقط أخذت أرد على كل أسئلته بـ «كله تمام، كله تمام، بكرة نتكلم». في الشارع كان جميع المواطنين يتحدثون في التليفون. ما إن أغلقت الخط مع تهامي حتى ظهر طفل صغير أمامي، بدأ في الالتصاق بي «والنبي جنيه عايز أجيب سندوتش». أخذ يردد العبارة في تكرار تليفزيوني رغم كل محاولاتي للتظاهر بعدم ملاحظته. ثم رن تليفوني، أخرجت الموبايل من جيبي مرة ثانية وأنا أسحب جنيهًا معدنيًا وأمنحه له باليمنى وباليسرى أرد على التليفون:

- أيوه يا موود..

- حبي، إزيك؟

- تمام.. كله تمام.

- جاي الزمالك النهاردا؟

- تقريبًا آهه.

- ربنا يستر شكلها هتبقى ليلة فل.

- غالبًا، أنت رايح على الساعة كام؟

شفيقة الإسكندرانية

واحدة من الاختلافات الجوهرية التي ميَّزت القاهرة عن بقية المدن الكبرى المشابهة في العالم من حيث الحجم، أنها رغم ضخامتها المليونية مدينة مَكبوتة.

ما هو دائرٌ تحت الأرض أكثر مما هو مُعلن. بحكم تحَالف ثلاثي الأضلاع بين ما هو سياسي، وديني، واجتماعي يوجد الكثير من المحاذير التي تحول دون ظهور كل ما يعتمل في أحشاء المدينة إلى السطح. وحتى إن ظهر. إن تسرب شعاع من النور أو رائحة نتنة من أسفل، فستغطيها أسراب الذباب العَائمة فوق القاهرة، أو السحابة السوداء الطافية دائمًا فوق المدينة، أو الغلاف الترابي للأسفلت والطرق غير الصالحة للسير. أو صيحات الألم المتسرِّبة من نسَاء مختونات يضاجعهن أزواجهن بغشم، وبسرعة قبل أن يغلق مترو الأنفاق أبوابه في الساعة الحادية عشرة.

تبدو حياة سكان القاهرة من على السطح وكأنها حياة مجموعة من البؤساء يعبرون الطرق في فوضى النساء المتشحات بالكثير من الملابس والأقمشة والرجال منكسي الرؤوس، هياجهم الجنسي دائم لكنه غير متحقِّق. الصورة الأعمق تكشف أن تلك المدينة المليونية تَزخر بالكثير من التجمعات المغمورة التي تَدور حيواتهم بَعيدًا عن الأضواء وفق طقُوس ولغة سريتين لا يستطيع الزَائر العَابر أن يفكَّ شفرتهما، إلا إذا حَالفه الحظ وتَعثَّر في أحد الأشخاص الذين يحملون المفاتيح، أما تعلُّم كيفية فك الشفرة والحصول على مفتَاحك الخاص فرحلة طويلة يلزمها أن تترك نفسك لقذارة المدينة حتى تصبح جزءًا منك وجزءًا منها.

تتنوع هذه الجماعات بين مهووسين دينيين يتحرَّكون في جماعات من الإخوة

والأخوات، مثليين جنسيًا ينظمون حفلات الكوكتيل والتعارف في منازل في المهندسين والدقي، فنانين شباب غارقين في أنهار من البيرة تمتد من الزمالك إلى وسط البلد، جماعات تبادل الأزواج في إمبابة، أطفال الشوارع الغارقين في غازات «الكولَّة» في العمارات العشوائية ومقابر القطارات المهجورة، تجار الحشيش في شقق الدعارة بدار السلام، كنيسة حافظت على مركزيتها وسطوتها على شعبها طوال قرون طويلة، مهووسين بكمال الأجسام، مغرمين بممارسة رياضة الملاكمة، الموسيقيين العشوائيين والراقصات البائسات في الشوارع الخلفية لمنطقة الهرم وفيصل، رجال أعمال متخمين ينظمون رحلات صيد تبدأ بعد منتصف الليل، كلاب السكك، الأجانب الذين يركبون الدراجات النارية في المعادي، الشباب الملتزم محب العمل الخيري بالعجوزة، المغنِّين الشعبيين في شبرا، محبِّي الممارسات المازوخية والسادية في شقق مطلة على كورنيش المعادي، عائلات تعيش على زنا المحارم في خريطة بيولوجية تمتد من كورنيش روض الفرج حتى أحمد حلمي، نائكي الحمير والبهائم في عزبة عنتر، رجال السواد حماة الأمن والاستقرار، تجار الكلاب في التجمعات الصحراوية الممتدة من الهرم إلى صحراء اليوم، شركات الحراسة الخاصة في التجمع الخامس، القتلة المحترفين المختبئين في العتبة.. تنمو الجماعات السرية في انتظام وتقارب جغرافي، يتشممون بعضهم بمقدمة الأنف، ويلعق كل واحد فيهم رقبة الآخر عند السلام، ينظر في عيني الآخر ويُحَافظ على سره.

ساعد الإنترنت وثورة الاتصالات في العقد الأخير قبل «تسونامي الصحراء» في ظهور هذه الجماعات وتكاثرها وأحيانًا ظهور جزء من جبل الجليد لبعضها على السطح. كانت تسلية الشرطة مطاردة مثل هذا الجماعات السرية الناعمة، والتنكيل بها، ثم رمي لحم أعضائها للإعلام، وبدوره يقطع اللحم، يضيف إليه البهارات ثم يرميه إلى جمهور القاهرة المتعطش دائمًا لأكل لحم شخص تدعي الشرطة أنه يتبادل زوجته مع الآخرين. أو يتعاطى الحشيش في حلقات الذكر. مجرد كشف الغطاء يترك عضو الجماعة في العراء. يتم نزعه بوحشية من الأمعاء الغليظة للمدينة، وتركه جَائعًا في الطريق طعامًا شهيًا لكلاب السكك. لا أزال أذكر بمزيج من الحنين والأسى لقائي الوحيد بسالي، واختفائي المشين بعده.

للدقة تظل في ذاكرتي تلك الصورة - البوستر - شبه الممزقة لشفيقة الإسكندرانية على جدران مدخل العمارة، لاحظتها وأنا أقف في انتظار الأسانسير. استغربت في البداية لماذا يُعلق أحدهم بوسترًا لشفيقة في مدخل بنايةٍ شبه فخمة في مدينة نصر، وبدا مؤثرًا جدًا

بالنسبة لي ذلك البريق المميز لصور شفيقة، وقد بهت عليه ركام الأتربة وعرق وقذارة الأيدي التي حاولت كثيرًا نزعها. وحينما صعدت إلى شقة سالي وفاجأتني بقميص النوم الأزرق الحريري وفوقه الروب الشوفون بتخريماته المنقوشة، كأننا في فيلم لحسام الدين مصطفى. كان أول موضوع تَحدثت فيه هو شفيقة الإسكندرانية، بداية من أغانيها الشجية بعنف وخشُونة صوتها، وحتى نهايتها الدراماتيكية تائهة في متاهات البودرة والمخدرات البيضَاء.

في لحظة كنت أقص عليها لقاء أحد أصدقائي بمدير أعمال شفيقة وزوجها السابق ووصفه للحالة المأساوية التي كانت قد وصلت شفيقة إليها، كنت أحكي باستفاضة مُحاولًا تشتيت انتباهي وانتباهها عن سبب اللقاء، كانت في صوتي نبرة حزن لا أملك السيطرة عليها كلما تذكرت شفيقة، مدت سالي يدها ولامست ظهر كفي، ارتعشتُ للحظة وأنا أتأمَّل الأحمر الذي يصبغ أظافرها لكني ركزت للحظات في مفَاصل أصابعها، فبانت لي بوضوح أو هكذا خيل لي كم هي أصابع ذكورية مُكتملة الرجولة.

نظرت إليها محاولًا عدم سحب يدي وذكرتها بالوعد الذي اتفقنا عليه في محادثتنا على الإنترنت «مش قلنا النهاردا مجرد لقاء تعارف؟». بدوْت للحظة مترددًا بين لذة المغامرة وشعور الإثارة الناتج عن تقمص دور الفتاة الخجول. تساءلتُ للحظة عن المدى الذي يصله قضيبها عند الانتصاب، كنت أنا الآن الضحية المطاردة من صياد، انقلبت الأدوار.

ابتسمت وقامت من مكانها. متحدِّثة بالإنجليزية قالت:

ـ طبعًا.. ماذا تحب أن تشرب؟

ـ بيرة لو فيه.

ـ متأكد.

ـ لديك اقتراحات أخرى؟

ـ عندي نبيذ.

ـ لا، أفضل البيرة.

الحديث بدأ على ما أذكر حول طبيعة عملها كمديرة لأحد الفنادق العالمية في القاهرة،

وجدتْ في العمل فرصة للعودة مرة ثانية للقاهرة حيث ولدت وتربت حتى المرحلة الجامعية حينما سافرت للدراسة في كندا. في هذه الفترة كان اسمها سمير. ولد وحيد لأب وأم يعملان في مجال التدريس الجامعي، أرسلا الطفل إلى كندا ثم هاجروا جميعًا إلى هناك، بعد وفاة والدته داهمته حالة اكتئاب طويلة. خرج منها بالسفر إلى تايلاند، ثم عاد إلى كندا ليبدأ حياته المهنية في مجال الفندقة ثم مرة ثانية إلى تايلاند مديرًا لأحد فروع الفندق هناك، حيث بدأ اهتمامه بالتحوُّل. لم يتحوَّل تمامًا إلى سالي. لديه جوز بزاز رائعين، ومؤخرة متناسقة وبشرة ناعمة يعتني بها باستمرار، لكنه لا يزال يحتفظ بعضوه الذكري منكمشًا خجولاً معظم الوقت بين ساقيه أو ساقيها ربما.

أذكر تأثر سالي بمعاناتها في القاهرة مع الناس الوحشة، وغدر الصحَاب، مَجمُوعات المثليين والمثليات ومحبي كل ما هو غريب، معظمهم كانوا يتعاملون معها باعتبارها حالة مثيرة للاهتمام، لكن بعد أول لقَاء يَختفي الصديقُ الذي يتضح أنه ليس صادقًا في صداقته.

وهي تتحدث كانت تكثر من تحريك يديها والتعبير بأصابعها في حديث تخلط فيها الإنجليزية بالعربية. في لحظة وتحت تأثير رشفات البيرة الباردة تخيلت ملمس أصابعها على ظهري، شعرت باستثارة من نهديها اللذين كانا يهتزان في كل مرة تضحك فيها أو تتنهد، لكن ذهني كان يتشتت كأنه كلما سار في هذا الطريق، وجد الباب المطلوب إزاحته ثقيلاً.

«لكني أشعر أنك مختلف» قالت لي، بينما كل ما أفكر فيه صورة شفيقة الإسكندرانية المتربة المصفرة المعلقة على جدَارٍ في مدخلِ بنَاية فخمة بمدينة نصر.

هذا عتاب الخول للخولات

كل ما كنَّا نفكر فيه هو الجنس ثم الجنس.. ثم المزيد من الجنس. لكن بالنسبة لمجموعة من المرَاهقين في مَدينة كالقَاهرةِ كان المتوافر فقط صور الجنس لا الجنس نفسه. روائحه، ألوانه، فواتح الشهية، والصابون.

في شقة بمنطقة بين السرايات كنَّا أربعة موزعين على غرفتين ونشترك في حلم واحد حول المزة الجامدة التي ستطرق باب الشقة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وتبلِّل أزبارنا جميعًا. لكننا لم نكن نمتلك أكثر من الحلم. فأي مزة ستحاول الوصول إلى الشقة سوف تمر على مجموعة من الحواجز يستحيل تجاوزها بداية من حارس البناية وحتى الجيران الذين يراقبون جيدًا تصرفات مجموعة من الشباب العزَّاب من محافظات خارج القاهرة. ظلت الجامعة والكافيهات المحيطة بها هي الملجأ لعلاقات أول سنتين. كانت لديَّ صداقات واسعة مع الفتيات اللواتي كن يشكلن العدد الأكبر من طلبة دفعتي، لكني أبدًا لم أحاول التورط مع أي منهن.

سريع البديهة يلقي النكات ممتلئ بالحماسة إلى أقصى درجة، مُتفائل بالمستقبل. شمعة منورة في الحقيقة، بلغت 18 وحصيلتي لا تزيد على قصة حب أيام ثانوي ببضع قبلات وتقفيشة في الصدر.

عدت ذات يوم للمنزل لأجد كل مُتعلقاتي مُلقاه في الشارع أمام مدخل العمَارة. «يعقوب القناوي» زميلنا من «المنيا» استغل الفترة الصباحية وعدم وجودنا وأتى للشقة مع صديقة له من كلية حقوق. البواب لم يكن في مدخل العمارة حينما صعدا معًا. لكن إذا غابت عينا حارس البناية فله ألف عين أخرى مسلَّطة وحاضرة تخبره بالهمسة والإشارة،

صعد بصحبة أحد الجيران، بعدما اتصل بصاحب الشقة، خبط بكف يده الخشن الغليظ. وحدثت الفضيحة، صَاحب الشقة أمر بطردنا فورًا. بوووم كانت هذه أولى الصفعات القَاسية من القَاهرةِ.

لم أستوعب الأمر وظل كبقعة عار سوداء كامنة دائمًا في صدري، أحيانًا حينما كنت أمر بتلك المنطقة أضبط نفسي متلبسا بالغضب وأفكر في اقتحام منزل البواب، أو الاتصال بصاحب الشقة وسب الدين له، أو معاقبة جميع سكان البناية بتفجير أسطوانة غاز في بير السلم. أكتفي بإشعال سيجارة، الانتقام وجبة يفضل تقديمها باردة. وإذا كنت تنوي الانتقام من حارس البناية أو الجيران أو مالك الشقة، فالأفضل أن تنتقم من المجتمع المشوَّه كله. أطلق رصاصة واحدة فقط على هذا المجتمع.. صوِّبها بدقة في خصية المجتمع، فجِّر كيس الصفن حيث تتكاثر حيواناته المنوية القذرة.

اتصلت بقريب لي في إحدى الجامعات الخَاصة بمدينة 6 أكتوبر وسألته عن إمكانية الإقَامة عنده لفترة مؤقتة. كان هذا لقائي الأول بتلك المدينة الساحرة. رغم بعد أكتوبر الخرافي عن الجامعة إلا أنني سأرتاح فيها. سوف تصبح المدينة الحلم، أقمت فيها طوال السنة الثالثة من الدراسة. ثم انتقلت إلى الهرم. وبعدما تخرجت أقمت في أكثر من مكان من ربوع القاهرة حتى عدت مرة ثانية إلى أكتوبر لأني في أي مكان من كل أماكن القاهرة لم أشعر أبدًا بالأمان أو الراحة. في أكتوبر يستكين القلب، لا ذكريات أو أحزان قريبة أو بعيدة تثقل الذاكرة.

طالما تعيش أو تتحرك داخل القاهرة، فأنت مُنتهك دائمًا. كتب عليكم البضان. ولو اجتمعت كل قوى الأرض لن تستطيع أن تغير هذا القدر. معرَّض في كل وقت لبعبوص يأتيك من فوق أو من تحت، عن يمينك أو عن يسارك.

مارست الجنس كاملًا، من إيلاج وإدخال وإخراج لأوَّل مرَّة في شقة بميدان الفلكي وكنت أثناء صعودي أو نزولي أتحدَّث بالإنجليزية مع البواب على أساس أني زميل أمريكي لصديقتي الأمريكية، وبالتالي أتجنَّب أي مُحاولة منه للتطفل.

في ميدان الجيزة كاد قلبي يتوقَّف حينما سمعت صوت دقات عَنيفة على بَابِ الشقة وهي تمص لي زبري.

في الزمالك كانت سيجارة حشيش واحدة كفيلة بإصابة السيدة «ملعقة» بالفوبيا، حيث

تقضي الليل تحلم بكوابيس يُهَاجم فيها بوليس الآداب الشقة ويجرنا عريانَين مَلفوفين في ملاءة السرير. تمامًا كما تركز الأفلام السينمائية على فضيحة ممارسة الجنس أكثر من تركيزها على متعة ممارسته. أو أن يقرر والدها المقيم في الخارج زيارتها فجأة.

في المنيل مع ريم كُنت دائمًا أتأكَّد من خلو السلم لحظة خروجي، وانتظار مُكَالمة الأمان قبل دخولي البنَاية.

كل العلاقات العَاطفية في القَاهرةِ متوترة. في الطبيعيِ، العلاقات العاطفية عمومًا مُتَوترة. لكن كمية الضغوط التي تُمَارسها المدينة وسُكَانها تُضاعف من توتر هذه العلاقات. في أي لحظة قد يفقد الذكر صورته الرجولية أمام بواب أو جارة شمطاء. يرن بيت أمل دنقل «كيف تنظر في عيني امرأة لا تستطيع حمايتها» بل بالأحرى لا تستطيع حماية نفسك. في قصيدة أمل كانت الحماية من أعداء أشرار يتربصون بنا في جحورهم بجبل صهيون، أو سلطة غاشمة من عسكر وجيوش، الآن أضف إلى كل ما سبق كل ابن وسخة يدب على هذه الأرض، الجميع مصدر سلطة، الجميع يشعرون بالخوف والانتهاك، الجميع مُتحفز، الجميع عدَائي، الجميع جَاهز لبعبصة الجميع.

من أسوأ اللحظات التي كنت أعبرها حينما كانت تضطرني الظروف إلى المشي في الشَارع بصحبة إحدى الصديقات خصوصًا لو كانت تَرتدي شيئًا من الملابس الأنيقة. في مثلَ تلك اللحظات ينتقل الخوف المسيطر على الإنَاثِ المقيمات في القاهرة[10] إليّ كرفيق لها. تسير وعينك تعمل كرادار يترقَّب الأخطار. تظنِ أنك قادر على التعامل مع كل أنواع الأخطار، الأدرينالين ثم الأدرينالين، أنت الآن متحفِّظ، قد تمر مجموعة شباب فتجد نفسك في موقف الاختيار بين أن تدافع عن رفيقتك، أو تتظاهر بأنك لم تلاحظ إشارتهم ونظراتهم في حين أنها ستكون قد لاحظت. تظن أنك جرم صغير فيه انطوى العالم، لكن بعد أن تكون ضيعت ما يكفي من نور روحك وطاقة عقلك، تدرك أن لا شيء يهم. وأن كل ما كان محض ظنون.

(10) من المعروف علميًا أن نسبة كبيرة من الإناث في القاهرة يسرن في الشارع بسرعة، نظرهن موجه للأرض أو للأمام، يتحاشين أي تواصل بالأعين أو أي ابتسام أو تغيير في عضلات الوجه. يبذلن جهدًا مضنيا للتحول إلى ظلال. يسيطر عليهن خوف داخلي من كلمة قد تخرج من فم ذكر عابر، أو عثرة في الطريق قد تتسبب في وقوعهن أو لفت الأنظار إلى وجودهن.

تخفَّف عن روحك. أنت لا تملك نفسك ولا تملك أي شيء في هذه المدينة. هي التي تملكك. لست أكثر من خول ضمن بقية الخولات. اترك الدراما يا ولد، وبلاش العتاب يا حبيبي. في النهاية ليس سيئًا أن تكون خولًا في القاهرة. حاول أن تكون أكثر انفتاحًا على الثقافات والعوالم الأخرى، بالتأكيد في الخولنة بعض الحصانة، في الخولنة بعض الأمان، بعض القوة، والكثير من الخفة.

الفصل الرابع

فكَّرتُ في كتابة هذه الأوراق لأوَّل مرة منذ نحو السنة. كنتُ في صحبة «مونى مي» في زيارة إلى أحد حمَّامات السباحة في فندق «نيو فيل» على مشَارف الحدود الغربية لأكتوبر. نزلت المياه قبلها، غطَّستُ رأسي في الماء أولًا، وطفا جسدي ووجهي تحت سطحه، ثم نزلت إلى قاع الحوض حتى لمست بلاط الأرض بأصابعي. الشمس خلفها تحيط بها كهالة القديسين، فيض من الإلكترونات والفوتونات.

خلعتْ ثوبها. ترتدي أسفل منه مايوه بكيني من قطعتين بلون أزرق سماوي. قفزت في المياه، ثم وقفت مستندة إلى حافة الحوض رأسها فوق السطح والباقي من جسدها تحته. سبحتُ من أول الحمام إلى آخره مرتين ثم اتجهت نحوها. استندنا إلى حَافّةِ الحوض.

تَحدثنا عن رواية ما لا أذكرها الآن. لكنها عبَّرت لي عن تفكيرها في العودةِ للكتَابةِ. كانت تكتب أحيانًا بالعربية، لكن بحكم دراستها وقراءاتها فقد كانت راحتها أكبر في الإنجليزية. صَعدت من حمام السباحة وأنا أتأمل سَاقيها الطويلتين، وبَشرتها البيضاء التي طالما سببت لي حرارة في المعدة نَتيجة الاستثَارة.

تَمدَّدتْ في الشمس.

تَبعتها وتَسلمت زجَاجتي البيرة من شاب خلف البار، وضعت زجَاجتها بجوارها على الأرض ونظرت حولي لم يكن هناك إلا ثلاث فتيات يستلقين في ضوء الشمس ومعهن رجل عجوز يقرأ في مجلة إنجليزية. قلت:

ـ مونى مي، أنا هاقعد في الضل جنبك هنا.

مشيت باتجاه «شازلونج» أسفل مظلة تفرش ظلها عليه، دخنت سيجارة وشربت

نصف زجاجة البيرة تقريبًا، ثم غفوت.. في الحلم زارني إيهاب حسن بعد غياب سنوات طويلة.

أحيانًا ما أشعر ببعض الوهن إِذ أكثرت
من شرب الحشيش.

قد يحدث أن أتذكر الحبيبات اللواتي فقدتهن
-الورد أحلى ولا التمرحنة.
الأصدقاء الذين يمنحون
البهجة والألم
..وقد يحدث أن تختفي
فجأة الذكريات..وكل ما مضى

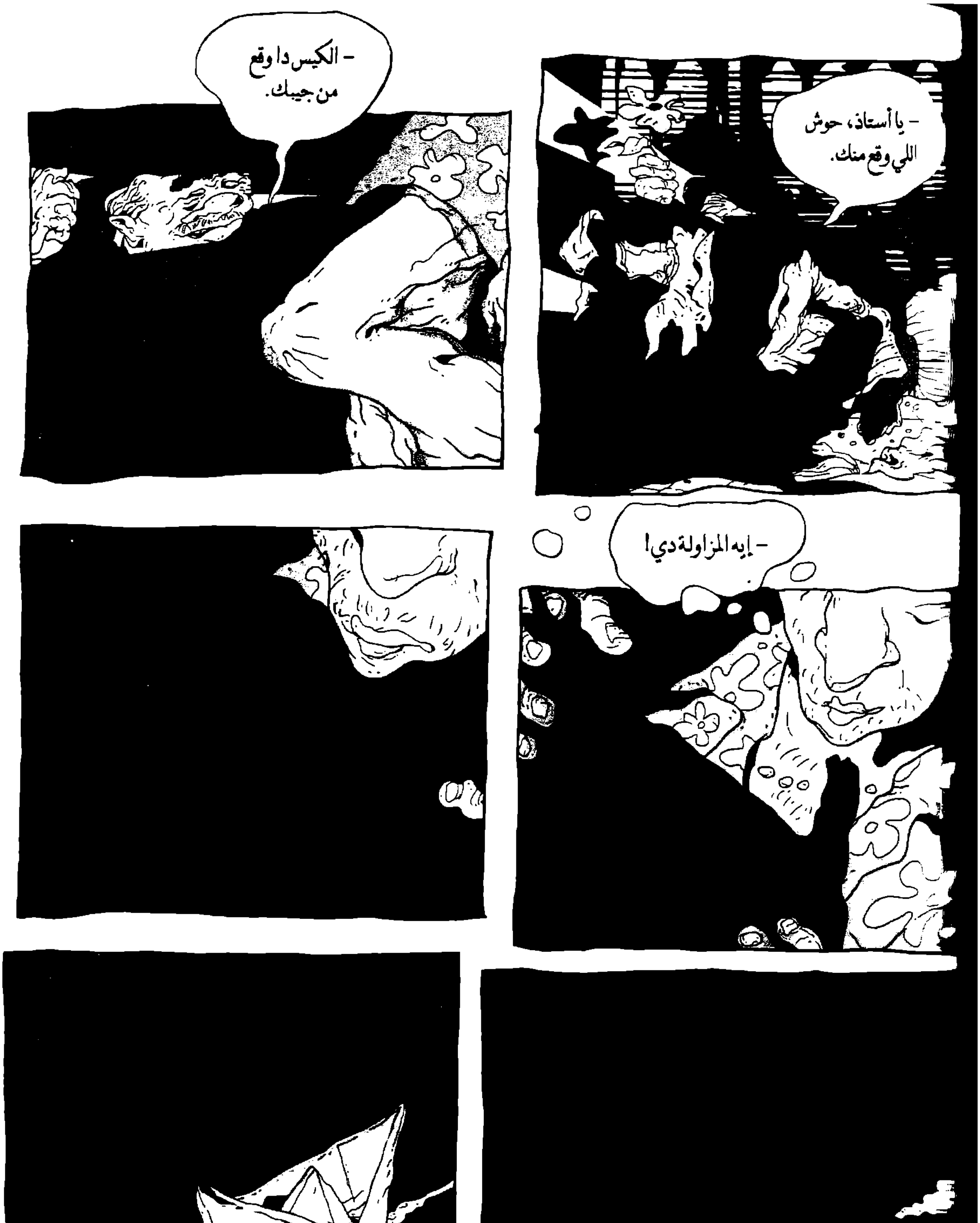
- يا أستاذ، حوش اللي وقع منك.
- الكيس دا وقع من جيبك.
- إيه المزاولة دي!

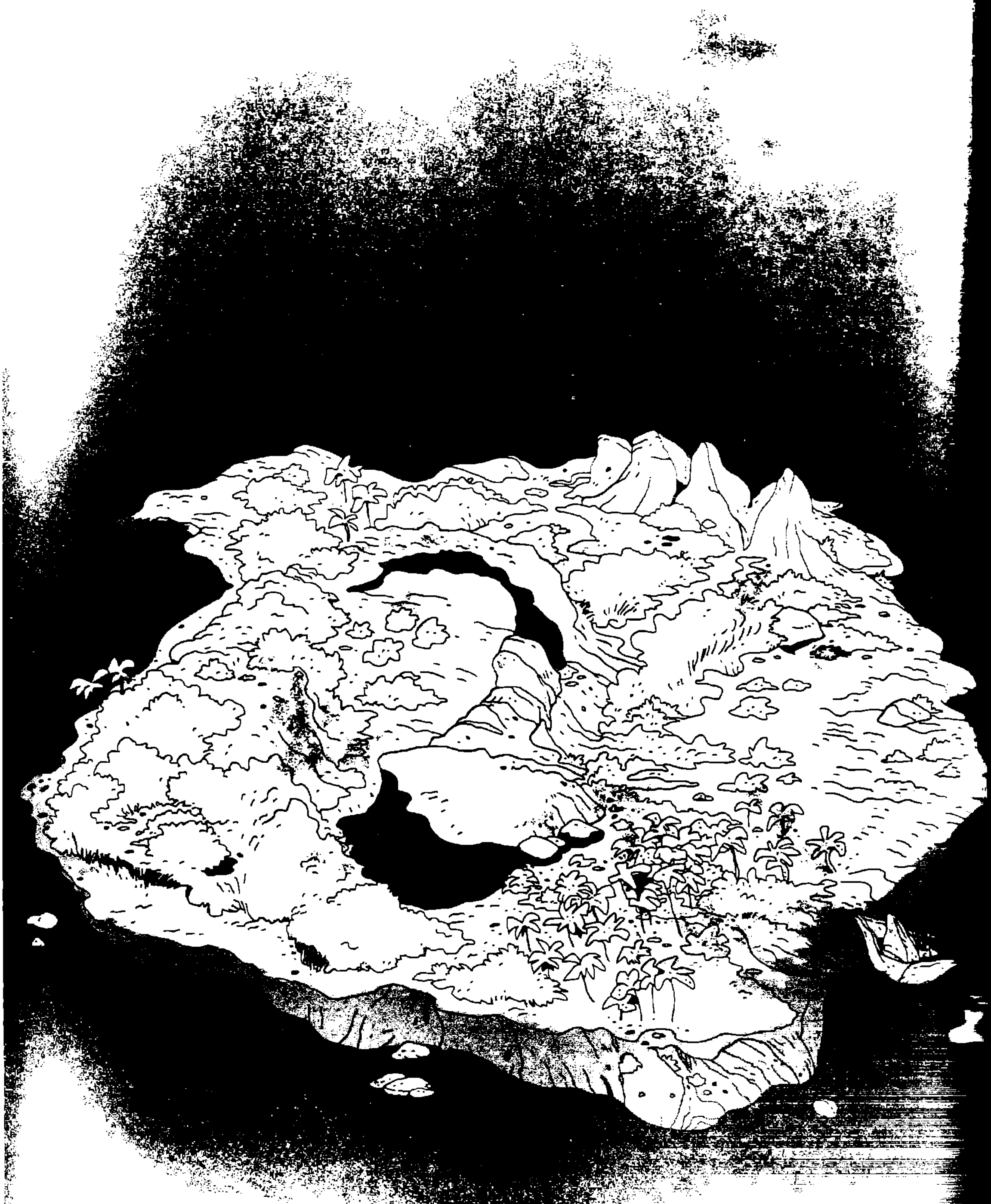

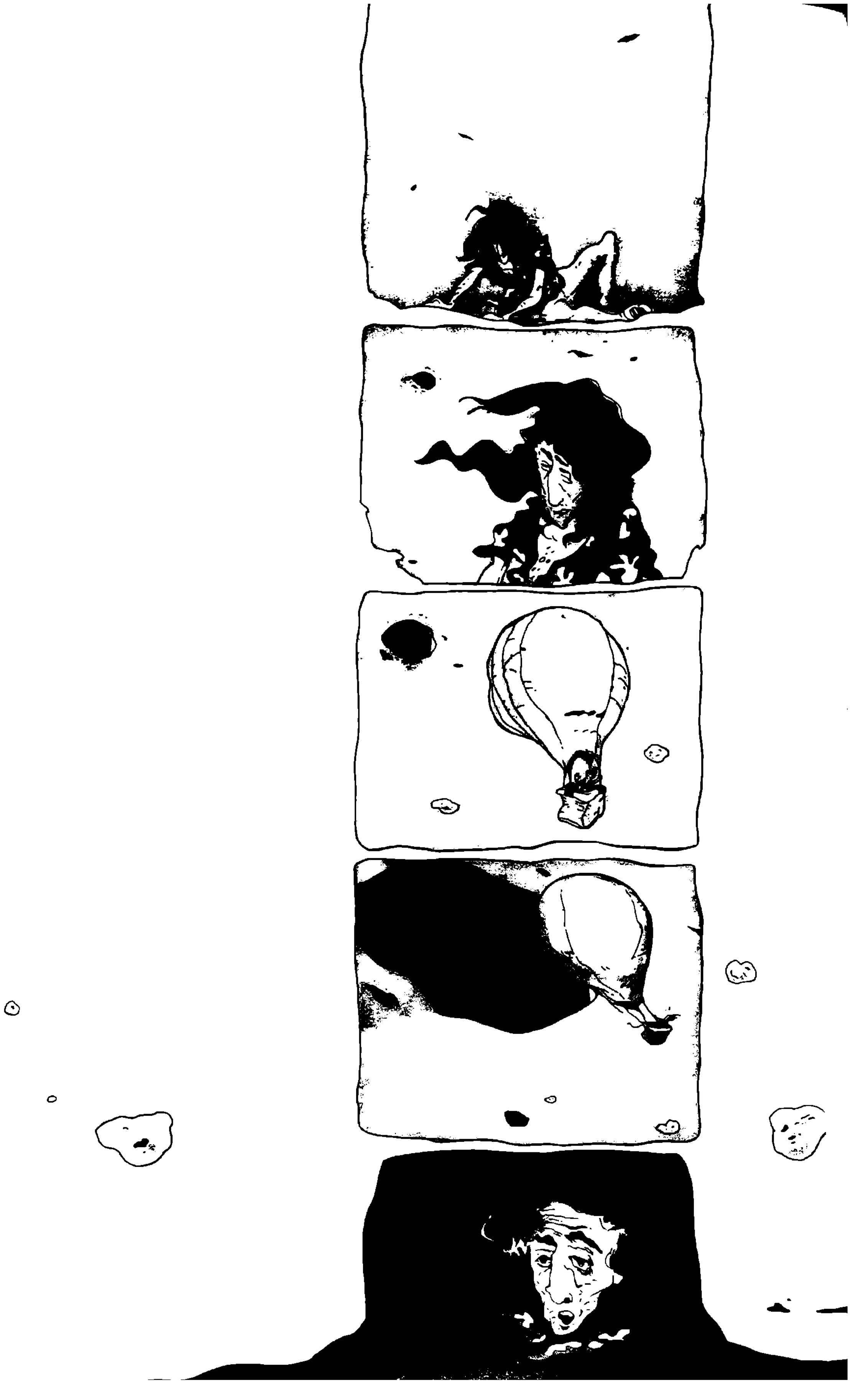

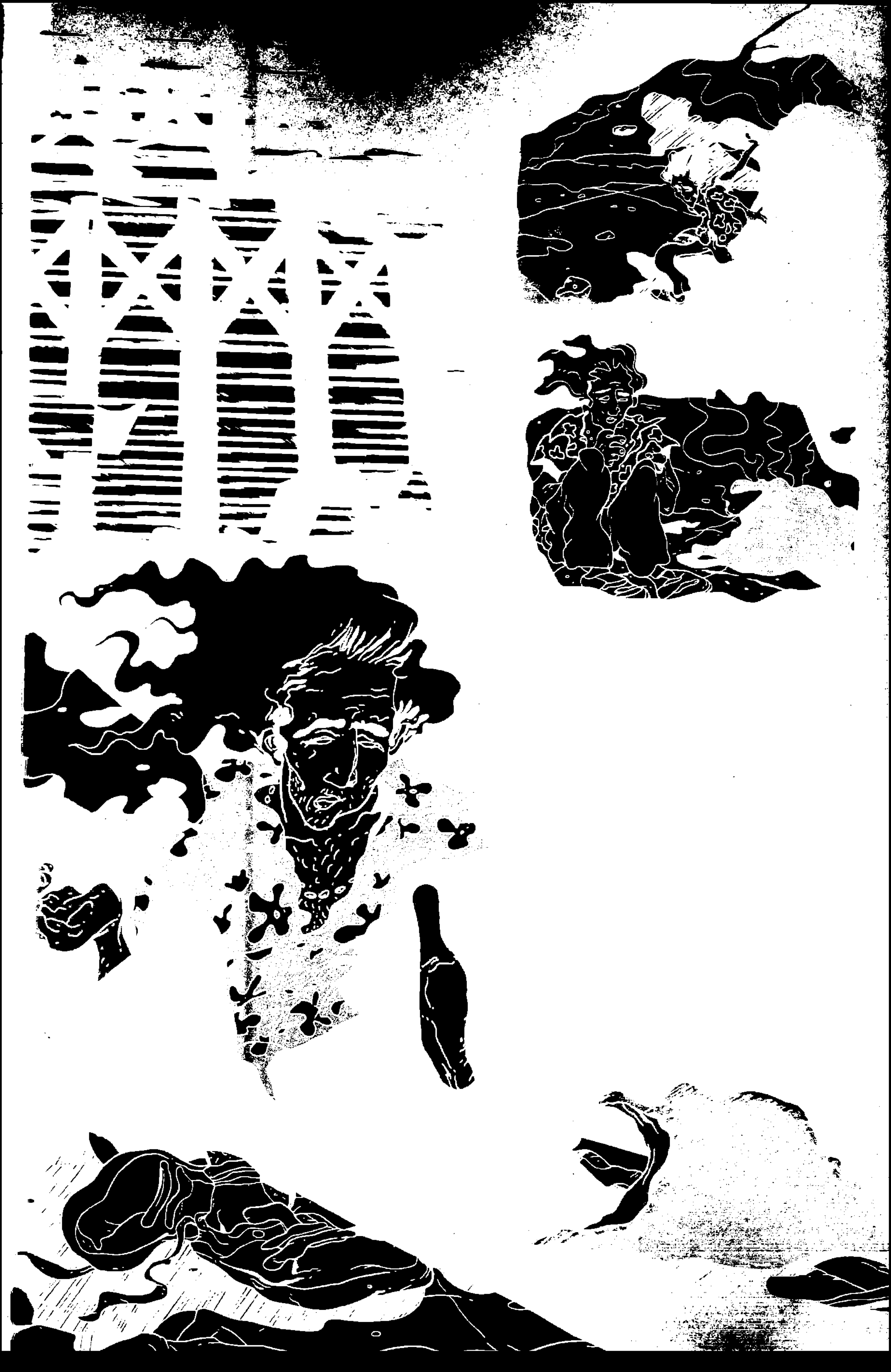

طريق الهوى

آخر يوم تصوير بدأ مع الفجر، وانتهينا يومها الساعة الواحدة ظهرًا. مَنظرٌ متَّسعٌ لمنطقة الورّاق على حدود الطريق الدائري. حر ورطوبة، وتراب كائنات حية دقيقة غير مصنفة بيولوجيًّا تلتصق بالجلد وتمص طاقته، السموم تتسلل إلى الداخل تسير مع خلايا الدم، في شرايين الجسد، تصيب قلبه. يصبح التراب والغبار في الخارج والداخل، العرق يبلل الملبس، الجينز ثقيل يضايق حركة الفخذين، روائح كل طاقم التصوير مُقززة، والكل يتمنى أن يكون قد رش الكمية المناسبة من مزيل العرق أسفل إبطيه.

رأينا في رحلة التصوير، مَزارع خنازير تعيش على مقالب الزبالة، خنازير سوداء ذات شعر مصابة بالهزال والأمراض الجلدية ترتع في ملاعب وأطنان من الزبالة، مع الخنازير تعيش مجموعة من البشر، أطفالهم يلهون في النفايات مع الخنازير، يرقصون، يضحكون، يتبولون، يضاجع بعضهم بعضًا، يكونون الصداقات، ويداعبون مؤخرات بعضهم بعضًا. رأينا مناطق كَاملة تَعيش على كهربَاء مسروقة من أعمدة الإضَاءة على الطريق الرئيسي، أهرامات مهولة من النفايات العضوية والبلاستيكية موزعة في نظام هندسي بحيث تكون عَائقًا في اتجاه حركة الريح طوال كل المواسم وحتى إذا عبرت الريح فستحمل معها الذرات الدقيقة للمركبات الكيميائية المسبِّبة للروائح المقززة، إضافة إلى فطريات العفن التي ترقص في هواء القاهرة.

مرة أخرى كنا في منطقة الوراق. المخرج كان تهامي باشا. يتحرك بصعوبة، وبالمنديل يمسح على جبهته ورقبته، أحيانا يدخله من فتحة القميص ليمسح عرق إبطيه. الإنتاج أحضر سندوتشات فراخ بانيه ماركة «كوك دور». وكان يومًا مليئًا بالجري وتكرار اللقطة نفسها من الزاوية نفسها على فترات متفاوتة لالتقاط المشهد تحت تأثيراتٌ مختلفة لضوء الشمس.

تركتهم يعودون لمقر الشركة لتسليم الشرائط وذهبت لمنزلي في 6أكتوبر، **أخذت دشًا** باردًا، أخرجت زجاجة مياه من «الفريزر». وارتميت عاريًا على السرير تحت المروحة تدور بأقصى سرعتها.

الفرخةُ مُنتج يأتي من مصَانع التبريد والتعبئة والتغليف. تأخذ الفرخة الواحدة دورة إنتاج مقدارها 21 يومًا، بحسب معَايير كل شركة ومُنتجها يتم تصنيع الفرخة. لتخرج في النهاية بجوهر وشكل يناسبان احتياجات المستهلك. انتهى عصر الفراخ الحيوانية وبذلت الحكومة بدعم من شركات تصنيع الفراخ جهودًا رائدة في القضاء على الفراخ الحيوانية التي يتم تربيتها فوق السطوح في عشش خشبية سيئة التهوية بدعوى خطر الإنفلونزا على صحة وحياة البشر. تتميز الفرَاخ المصنعة بخلوها من الأمراض وفيروسات الإنفلونزا. هي مَذبُوحة طبقًا لتعليم الشريعة الإسلامية أيضًا. البعض يحبون الصدور. البعض يحبون الوراك. البعض يحبون الأجنحة. مقلية أو مشوية أو متبَّلة، توجد لدينا أيضًا فراخ نصف مطهوَّة، في دقائق تحضرين وجبة شهية لك ولأسرتك. جميعنا نُحب الفراخَ خصوصا بخلطة كنتاكي السحرية.

استيقظت غارقًا في العرق، تَناولت زجَاجة الميَاه التي غطتها طبقة مُندية من قطرات المياه. أخذت أشرب بنهم ثم استلقيت ثانية على السرير. داعبت عضوي الخامل. فكرت في استدعاء أي صورة جنسية لبعث النشَاط وإن كان ضرب العشرة. لكن ذهني كان مشتَّتًا بين ساقيّ ريم النحيفتين وفخذيّ «مونى مي» الممتلئتين.

رن التليفون رنة قصيرة. رسالة نصية من «مود».

«استوريل 9:30 فودكا وتكيلا»

كانت الساعة الثامنة.

***

أحسست بأني على وشك التقيؤ، في الميكروباص مَحشورًا في زحَام الكورنيش المواجه لمبنى الإذَاعة والتليفزيون. أفتح الشبَاك وأغلقه، وكلما شممت رَائحة العفن المكتوم الكامن فوق منطقة مدخل المحور المتجهه لميدان لبنان تذكرت مشاهد التصوير في الأيام الماضية.

في الخَارج هواء مَشوي يَحرقُ كل ما يلمسه. وفي الداخل فرن ورائحة عرق مَكتوم. الجميع يَعرق، ولا شيء يَجف داخل الميكروباص. فتحت البَاب وخرجت.

لم أكن لأتحمل علاقة عَاطفية مع «مونى مي». لأني كنت أعرف جيدًا أن حبها سيتملكني ويدفعني بقوة نحو الهَاوية، في مرحلة ظننت أن كل شيء يبدو جميلًا لدرجة تظن معها أنه حقيقي. كان ألم مرحلة الانفصال أشبه بقميص من المسَامير عجزت عن خلعه لأسابيع طويلة، وكل يوم كان التخلص منها مثل نزع مسمار من مكان حساس.

احتاج الأمر لنحو الشهر حتى يتجدَّد الود بطيئًا بيننا من خلال «هاي» على الماسنجير، أو «الـ Poke» على الفيسبوك. لم يكن هناك من مهرب، شَبكة الأصدقَاء المُشتركين بيننا كما يوضحها الفيسبوك تتجاوز السبعين صديقًا. سوف نَلتقي يومًا عند مَغيب الشمس أو شروقها.

في الأمر لعنة أخرى من لعنَات القاهرة، لا توجد علاقات يمكنها أن تنتهي بعد أن تبدأ في القاهرة، حتى إذا أغلق كلا الطرفين الباب في وجه الآخر فسوف يلتقيان ربما في إشارة مرور، مطعم للشاورما، مطعم على النيل، حفلة موسيقية، قهوة في الغورية، وحتى وإذا تواطأت المصادفة مع قرارهما بالانفصال التام، فشبكات العلاقات الاجتماعية الواسعة والمترَابطة سوف تعيد ربط الاثنين معًا مرة ثانية، وتفرض عليهما البحث عن صور وبدَائل أخرى جديدة يمكنهما خلالها تقديم تصورات جديدة عن علاقتهما. والصداقة العميقة الموثقة بدم الحيض والحيوانات المنوية الجافة كانت خياري أنا ومونى مي.

نمر أبيض يَسير مُختَالًا على كورنيش القاهرة. مَنطقة الأحلام والخيالات الرومانسية. تراث الزهور والعصير الفريش. الأيدي المُتعَانقة. والذكور المحبُّون الذين يبذلون جهودًا زائدة في إخفاء انتصابهم.. فاترينة كورنيش النيل الباهرة.

كنت أرغب في أن أكون صديق مونى ولم أكن لأسامح نفسي على خسارتها.

يا حلو قُل لي على طبعك وأنا أمشي عليه.

لا بل لم أكن أريد لعلاقتنا أن تكون تَصنيفًا. قصيدة. ورقة مُصنعة. لم أرغب أن تكون علاقتنا ورك فرخة أو جناحها، أو حتى فرخة كاملة. طريقًا نهوي فيه معًا إلى أسفل نحو

وجهة لا أعلمها أنا ولا تعلمها هي.

انحنى مود على أذني، فاقتربت برأسي منه. كنت على رأس الطاولة وكان هو عن يميني، والباقي صُحبة لطيفة. غالبيتهم رفاق من رحلة الحيَاة، نجوا من القاهرة ونجحوا في نقل إقامتهم للخَارج. خارج القاهرة وخارج مصر كلها لكنهم كالمدمنين يعودون دائمًا لتنشُّق رائحة الروث الذي تربوا عليه، يأتون في زيارات مُتقطعة مُحملين بزجاجات الكحول المَمنوعة. بركة في اللمة. ضحكة في آخر السهرة. حكْي آخر التطورات لآخر الحكايات، دائمًا هناك حكاية جديدة، دائمًا هناك تطورات جديدة، رغم أننا لا نتحرك من مكاننا أبدًا لكن التطورات تحدث. ومهما كانت الحكايات أو نوعها تظل ضحكاتنا كما هي العادة ترتفع مع كل نهاية. دخلت الحمام ثم عدت ثانية، دخنت سيجارة، ومود يحكي لى عن آخر فتاة تعرف إليها. يقول جملة ثم يسكت ينتظر مني تعليقًا أو رأيًا وحينما أستمر في تدخيني الصامت، يرمي الكرة في ملعبي «فمش عارف إنتَ إيه رأيك؟». استدرت بجذعي نحوه وسألته.

ـ مود.. ما الذي تريده حقًا من النساء؟

تنبَّهت بعد طرحي السؤال أنني فعلا قد اخترت التوقيت المناسب لطرحه. عكست ملامح وجهه نَظرة من الإحباط الأصفر. قال كلامًا كثيرًا غير مترابط ومتناقض في الوقت نفسه. جملته الأخيرة كانت «أريد أن أستسلم لامرأة، أن تجعلني مؤمنًا بها، أو مؤمنا بجدوى العلاقة، أي علاقة، وأي امرأة».

رغم خشونته ورعونته إلا أن هذا الوجه الرومانسي لمود ذي الجسد الضخم، كان واحدًا من العوامل التي طالما جذبتني إليه، كان لديه تصور مثَالي عن كل شيء بما في ذلك العلاقات، وكان مَنبع حُزنه أن لا شيء من تَصوراته المثالية يمكن أن تقدمه له القاهرة. لهذا كان رد الفعل العكسي سعيًا حثيثًا للسخرية من أي منطق مثالي آخر يصادفه في الحياة. الصورة التي ترتسم له خارجيًا تختلف مثل الكثير من البشر عن صورته من الداخل، بل بشيء من المبالغة كان ما هو خارجي الانعكاس المضاد لما هو داخلي. متشائم خارجيًا مثالي داخليًا. معذب بالازدواجية العكسية لسكان القاهرة. مدينة التناقضات الفادحة.

دخلت الشركة. صباح الخير، السلام عليكم. إزيك يا...

ثرثرة الصباح والابتسامات البلهاء. سحابة سوداء تحوم حول عيني. صداع ما بعد السُّكْر سكرتُ بالأمس لدرجة أني لم أتحمل اهتزازات الميكروباص عند العودة لـ 6 أكتوبر، فتقيأت من النَّافذة.

مع ذلك بدا لي ضوء الصباح مثل ريشة ناعمة تُدَاعب مؤخرتي. فتحت «مكنة الشغل» جهاز الكمبيوتر المحمول الذي لا يفارقني وأحمله دائمًا على ظهري. حجر، صخرة على الظهر في هجير الصحراء والشمس. أتجرع كمية كبيرة من المياه في مُحَاولة لتعويض حَالة الجفاف التي يشعر بها الجسم، حيث تنسحب السوائل من الدماغ وتسبب له الصداع. أفكر لماذا لم يكن المخ عبارة عن بركة سوائل عوضا عن شكله العضوي المقزز، لمَ لا تحتوي الجمجمة على سائل تسبح فيه الخلايا العصبية، وإذا حرَّكت رأسك لليمين ينسَاب السَائلُ في جمجمتك نحو اليمين، فتظهر أفكار جديدة وذكريات مخفية، وإذا أملته ناحية اليسار انساب السائل نحو اليسار، فتظهر أفكار جديدة مُختلفة عن السابقة وذكريات مخفية أخرى.

وجدت في صندوق البريد رسالة من إيميل جمعية معماري المدينة، فكرت في فتحها لكن أجّلتها إلى ما بعد تفحص الفيسبوك. ثم فتح تهامي بيه باب المكتب.

يا الله ديناصور يقف في الباب كغيمة.

ـ بسَّام، صباح الخير.

رفعت عيني إليه وأنا أرد ببطء مُتصنّعًا التعب واضعًا الإرهاق في صوتي «صباح النور». اقترب أكثر «إنت مالك تعبان ولا إيه؟». مددت يدي باتجاه علبة سجائري «لا أبدًا، تقلت في الشرب إمبارح شوية». رد بآلية «طيب تمام.. شفت الإيميل». ما هو الطيب ما هو التمام؟ لم أعرف أبدًا. لكنه كان يرددها دائمًا بآلية «طيب تمام، طيب تمام». بآلية أيضا وضعت السيجارة في فمي وأنا أبحث عن الولاعة «لا لسه.. تراجع خطوة للخلف «طيب تمام.. ابقى شوف الناس أصحابك بتوع الجمعية طالبين المرة دي فيلم عن النيل باين أو حاجة شبه كدا»

- النيل؟

- آه والله، فوق كدا وكدا عايزين نعمل اجتماع بعد ساعة.

مقلدًا نبرة صوته:

- طيب تمام.

توقف عند الباب واستدار ناحيتي مرة ثانية:

- هي «ريم عبد الرحمن» بقت بتشتغل معاهم؟

كأني لم أفاجأ، ربما كنت أنتظر فقط حتى يأتيني هذا الخبر كحيَّة تزحف نحو عش بيضها.

- اشمعنى.

نطقت الكلمة بنبرة حيادية وتظاهرت بعدم الاهتمام. فتحت درج المكتب متصنعًا الانشغال في الوقت ذاته باحثًا عن الولاعة، لكني وجدت علبة كبريت.

- أصلها تقريبًا هي اللي باعتة الإيميل.

- يا راجل؟

- آه والله، اسمها مكتوب في الآخر: ريم عبد الرحمن، منسِّق إداري.

- ربك بيرزق.

- آه والله شفت.

سكت لثانية كأنما يبحث عن شيء ما، ردد جملته الأثيرة مرة أخرى متجهًا خارج الغرفة «طيب تمام» ثم توقف وعاد ثانية:

- بس هي إيه اللي وداها لهم؟

نظرت إليه نظرة إنذار «بيب خط أحمر». لكني كنت أعرف أنه لن ينصرف بغير إجابة مني، لذا رميت له الجملة كعظمة:

ـ دنيا صغيرة يا أخي.

النيل والنخيل. والشجر الجميل. وجثة الجاموس العفن. والليل الطويل. والصبي يغرق النيل. عدت للإيميل كان عنوان الرسالة «طريق الهوى».

حيوانات القاهرة

الندل

يمكنه أن يكون أغنية حزينة، أو لحنًا موسيقيًا خافتًا. حبه يدرك قلبك ميتًا فيجعله أخضر. صريحًا، منفتحًا على الآخر لا يخجل من ضعفه، لا يخجل من تردده. يؤمن بالرجولة ويعاني من ازدواجية القيم أحيانًا، لكن ضعفه يجعلك دائمًا متضامنًا معه، تحتاج لأطنان من الحجارة والطوب لتبني سدًا بين قلبك وبينه.

الفتاة المحجبة

الجنينة، دخلت مرة. رائحة الزهور، أشم. قالٍ لها يا ملاكي. كأس الوصال منه شربنا. طارت. خلّفت له العذاب، مسكين يا روحي عليه. وليفته لانت لغيره.

تكاثرت بشكل مكثّف في السبعينات.
يعيشون بالقرب من كورنيش النيل. يحبون الأماكن المعتمة. يتحدَّثون بأكثر من لغة، الذكور ينكحون من خارج الطائفة والإناث محرَّم عليهم الارتباط.

المرأة العصرية المصرية

الجيل الأحدث من الأمازونيات مقاتلات وادي النيل المعروفات بإجادتهن لعلوم السموم، والصرع بالحربة، وعمليات الإجهاض والإخصاب، وحروب الشوارع. ورصد ومراقبة حركات النجوم، والتنبؤ بمسارات الشُهُب، وتوظيف علم الحشرات في خدمة الإنسان.

الضعف الداخلي والقشرة الخارجية القاسية، الاشمئزاز من الحيوانات المنزلية الطفيلية والقوارض الرمادية والسوداء.

إلى جانب ما سبق تتميَّز المرأة العصرية المصرية بأنها جميلة، لها ثدي واحد، لا تحب التشارك في الخصوصيات، تستمتع بالنميمة، القوة تصيبها برعشة جنسية تنطلق من كسها محوِّلة كل من هم حولها إلى كلاب سكك خاضعين لنفوذها.

الصراصير

نوع من أنواع الحشرات المجنحة التي تتحرَّك بالنط أو القفز. للصرصور أجنحة شفافة بنية اللون، وله قرون استشعار على هيئة شعرتين طويلتين في رأسه.
تُصدر الذكور صوتًا مزعجًا يُعرف بصوت «الصرصرة»، يجذب هذا الصوت الصراصير الإناث كخطوة أولى نحو إتمام عملية التزاوج. صوت الصرصرة يصدر من جزء يُعرف بالجهاز المصرصر، وهو مُركّب في أصل جناحي الصرصور، إذ يوجد على احدهما طرف مسنن وعلى الجناح الآخر ضلع بارز، وبالقرب منهما جلد مشدود يشبه الطبل، وتصدر الصرصرة عند فرك الطرف مع الضلع.

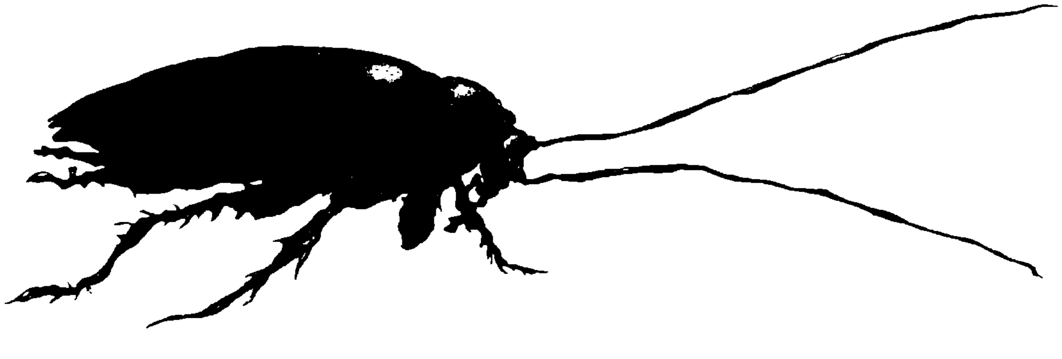

وحيد القرن البري

تتكيَّف بعض الكائنات مع تلوث وقذارة القاهرة من خلال بعض التحوُّرات الجينية. يكتسب الصوت غلظة. صندوق الحنجرة يتم استبداله بضفدع حي يتغذى على غاز أول وثاني أكسيد الكربون، ويمتص ذرات الكربون الطائرة من عوادم السيارات ودخان السجائر

الجلد لدى «وحيد القرن البري» يتعرض في الطفولة إلى عمليات تقشير وتبديل، يتكون فوق اللحم غطاء سميك غير عضوي، بل مخلق من الذرات الدقيقة للتراب، وذبذبات التلوث السمعي. يعمل الغشاء الترابي غير العضوي على حماية الأعضاء الداخلية لكائن وحيد القرن، لكنه في الوقت ذاته يحول دون أي اتصال بينه وبين العالم الخارجي. قلوبهم عليها حجارة، أو هي كالحجارة.

الزمن هدني، والدهر أكل على ظهري وجعله منحنيًا. في شوارعها لا أحد يعرفني ولا أعرف نفسي. طعامي من قاذورات شوارعها. ملبسي من زفت أسفلتها.

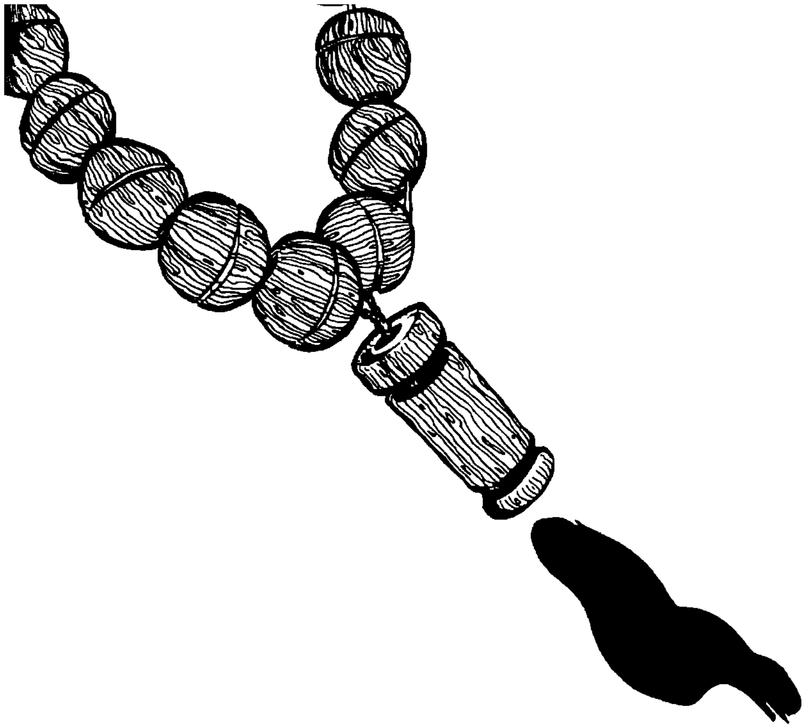

الدراويش

الزمن هدّني، والدهر أكل على ظهري وجعله منحنيًا. في شوارعها لا أحد يعرفني ولا أعرف نفسي. طعامي من قاذورات شوارعها. ملبسي من زفت أسفلتها.

الفنان القرموط

هارب، منفلت، جسمه الخارجي مطلي بالزيت، كلما حاولت الإمساك به انزلق من بين اليدين لديه شوارب، قرون استشعار.

منحوه «ستوديو» صغيرًا فوق السطوح. حبلت صديقته. بعد عملية الإجهاض قالت: «أريد أن أنام في حضنك» لكن جسمه الخارجي مطليٌّ بالزيت، أمه لم تشعر بأي ألم حينما ولدته، خرج من مهبلها كأنه قطرة دم في فترة الحيض. لا يمكنك أت تراه، لكن بالإمكان أن ترى أثر فعله. وهذا الأثر يصيبك التأمّل فيه بالإعياء مثل عين مجهدة من طول القراءة على ضوء شمعة.

التاكسي البيولوجي

لنحكي حدوتة. طُرفة. نكتة. لنضحك،
لنمزح. سأمص دمك عند ناصية الشارع
القادم، وسوف ألفظك كربة منزل تضع
النفايات في كيس أسود، تغلقه بإحكام
وتتركه وليمة عارية للقطط على سلّم
البناية.
سوف نركب حتى نهاية الشارع فقط،
لكن سأخدعك بالكثير من الوعود
لتشعر كأن المستقبل والعمر معي أنا
فقط، وحين أتركك مفتتًا مبعثرًا لن
يمكن لأحد آخر بعدي أن يلمك أو
يرممك.

الفأر الأسود

هنا يمكننا أن نأخذ قسطًا من الراحة.

أمام أحد أكشاك السجائر وقف مجموعة من الشباب يأكلون مواد غذائية مُصنعة طبقًا لأعلى معايير الجودة الصحية، يشربون مشروبات غازية تعطيهم قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس. لم يكن هناك شمس ولا قمر. والساعة كانت تشير إلى التاسعة.

وقفت سيارة شرطة تأخذ شكل الكشك. كانت واحدة من تلك السيارات التي يطلقون عليها في مصر «البوكس». نزل من مؤخرتها عدد من الجنود توجهوا بسرعة إلى الكشك. نزل الفأر الأسود من مقدمة السيارة يرتدي نظارة شمسية معتمة برغم أنه لم تكن هناك شمس. تقدَّموا من الكشك وبدأوا في بعثرة محتوياته في كل مكان، وتحطيمه. الشباب الذين كانوا يأكلون المواد الغذائية المصنعة طبقًا لأعلى معايير الجودة الصحية ابتعدوا عن طريق الجنود. تابعوا عملية تخريب الكشك لثوانٍ ثم انصرفوا إلى حديثهم الشيِّق. خرج الشيخ صاحب الكشك وتوجَّه بسرعة نحو الفأر.

«ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟ أوقفهم يا باشا. أوقفهم أيها الوغد!» صاح الشيخ الذي عاش حياة سابقة في جسد نمر

الفأر حرَّك ذيله، وضرب الشيخ على رأسه، ثم ضربه ضربة أخرى طار الشيخ على إثرها بعيدًا، فانقسم ظهره.

الشيخ النمر

واجب المسلم أن يحمل الدعوة إلى كل مكان.
«ماذا عن تعمير الأرض يا شيخي؟»
انظر حولك، تأمَّل وراقب أوضاع إخوانك المسلمين، هل هذه خير أمة أخرجت للناس؟
«ما هو الحب يا شيخي؟»
لا وقت لدينا، إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها.
«ما حكم التعرِّي أمام الزوجة يا شيخي؟»
لنَبْنِ الفرد المسلم المثالي، ثم لنَبْنِ الأسرة المثالية، ثم لنَبْنِ المجتمع النوراني.
«ماذا بعد كل هذا؟»
الجنة يا ولدي، الجنة. فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

النيل يلتقي بابريكا

اشترِ مني، وثِق فيما أقول: لو كان هناك تبرير أو سبب لعمل ريم مع الجمعية فهو بالتأكيد إيهاب حسن. على الأقل ربما كانت هذه هي البداية، بعد ذلك ظهرت أسباب أخرى (وَتَعَانَقَت أَسْبَاب شَخْصيَّة مَع مُهْنِيَّة مَع أَعْطَاب وَبَذُوْر فَسَاد مُتَرَاكِمَة فِي الْرُّوْح).

الكلب بين قدميها وهي تداعب عُنقه، بينما عيونه مُعَلَّقة بالتلفزيون. صحيح أن وجهها هي الأخرى في اتجاه التلفزيون لكنها لا تسمع ولا ترى ما يعرضه. عَقلها وحواسها في مكان آخر.

عربة جيب تدور حول نفسها بسرعة في الصحرَاء.

عاصفة رمال.

عَاصفة صحراء.

مكنة مصنع في خط إنتاج لا نهائي تعمل بأقصى طاقتها على وشك الانفجار.

تَناولت كوب النسكافية وأخذت رشفة. قامت من مكانها ونزعت الموبايل من سلك الشاحن الكهربائي. نظرت في ساعتها السادسة والنصف صباحًا. وضعت الموبايل في حقيبتها، وأخذت تعبث فيها لتتأكد أن كل ما قد تحتاجه موجود ثم خرجت كقطة بيضاء شعرها هَائش، وجهها خَالٍ دائمًا من المكياج. فقط تي- شيرت أسود، وبنطلون جينز مُعلَّق في خَصرها النحيف.

ـ تاكسي.

تَوقَّف التاكسي الأبيض، يَقوده رجل هرم.

ـ هنروح مشوار بعيد شوية.

ابتسم، وأشار للعداد:

ـ سيبيها على الله.

من المنيل خَرج التاكسي في اتجَاه الجنوب، المعادي، ثم حلوان، ثم «تِبِّين». العنوان كما جاء في الإيميل كورنيش «تِبِّين» أَمام مَصنع الحديد والصلب. نظرتْ إلى العداد من مقعدها الخلفي ثم وضعتْ الأجرة في يد السائق وخرجتْ من التاكسي.

أخذت تَنظر على طول الكورنيش ثم لمحت العربية الليموزين السودَاء. السيَّارات تَسير دون أي اهتمام. السمَاء زرقَاء. شمس صيف القَاهرة لم تسخن بعد. في الجو قدر من الرطوبة، لكن حَركة الهواء لطيفة في هذا المنطقة تُفكر في دندنةِ أغنية ما وهي تتجه نحو اليسارة التي تتطابق مع المواصفات التي تم إرسالها إليها.

يَنفتح بَاب السيَارةِ السوداء. تنزل منها امرأة شَابة ذات عود ممشوق. شعرها أشقر ألوانه تتدرج من البني الفاتح إلى الأصفر، قصير. ترتدي تي- شيرت أحمر، ضيقًا. فتحة صدره تكشف مفرق نهديها. أسفل منه الجينز ثم الجينز.

أنا أحب الجينز. هي تحب الجينز كلنا نحب الجينز. الجينز لكل المقاسات والأعمار. الجينز دائمًا جَاهز في انتظارك. مثلما كانت ابتسامة الشقراء تَنتظر ريم.

لماذا تنتحر وحيدًا؟ لماذا لا تفكر في الاستشهاد بدلًا من الانتحار؟ أن تضحِّي بنفسك من أجل غاية أسمى، من أجل الحب تهب حياتك في هذا العالم لترتفع روحك نحو عالم أفضل.

***

أحد الأسئلة التي كان يُكررها عليّ تهامي هو «مفيش كتاب حلو؟». يغيب، تتغير المواضيع ثم يلتفت «بسام.. مفيش فيلم حلو؟».

برغم ما يبدو عليه من بَلادة وحسّ ميت. عينا ثور مَذبوح. لكن تهامي كان ضَحية غباء شهوته، ثمرة عطنة لعصر مُقرف حقًا.

كان قد اتخذ قرَاره قبل حتى أن أقابله أو أعرفه «مش مهم اللي بتعمله بيقول إيه، المهم الشكل النهائي يكون مُبهر، مُشوِّق، ويا حبذا لو أمكن يكون جديد». قراره منذ زمن أن يبيع نفسه للأضواء. «الأفكار بتروح وتيجي» ثم يشعر أن في كلامه ربما قدرًا من الإهانة أو التقليل للدور الذي أقوم به في الشركة كمولد ومُطوِّر للأفكار فيبتسم «لكن المهم اللي بيعرف يصطادها، يا صياد».

بدت فلسفة تهامي بالنسبة لي مثيرة للاهتمام في البداية، لكن هذا التمَايز بين الشكل والفكرة. بدا مُختلقًا وكاذبًا. لا يوجد شكل مُنفصل، ولا فَكرة مُنفصلة. وفي نهاية المطاف ما هو معنى الأضواء؟ ما هو معنى الإبهار؟

ليس أكثر من عود ثقاب يشتعل محترقًا في فترة لا تتجاوز الخمس ثواني.

كنت أشعر بقدر ما من الاشمئزاز حينما يحكي لي مغامراته العاطفية. اشمئزازي منه ومن مُغَامراته كان مَنبعه هذا الحس الاستعراضي الذي يَقص به كل تجاربه ومُغامراته، عند جزء محدد من كل حكاية كان هذا الاشمئزاز يتحول إلى تعَاطف وشفقة عَميقين جدًا منبعهما عدم رضاه هو شخصيًا عن مغامراته الجنسية تلك. في مُنتصف كل حكاية كانت هناك عبارة «فجأة اتقفلت منها.. إيه الملل دا؟» كان أيضًا وهي النقطة الأهم يتحدث بقدر من الاستعلاء على آراء وأفكار كل من قابلهن. غبيات، تافهات. العالم كله بالنسبة لتهامي كان غبيًا تافهًا. لهذا ما إن ينهي حكايته، حتى يتحوَّل الاشمئزاز تجاهه إلى تعَاطف عمِيق. يَترسب في قلبي ولا أعرف كيف يمكنني أن أعبر عنه.

إنه طفل صغير يستمتع بإشعال أعواد الكبريت ومشاهدتها تحترق، يومًا ما سوف تنتهي أعواد الكبريت، أو سوف يكتشف أن كل عود لا يختلف عن الآخر إلا بقدر ضئيل جدًا.

لم أعرف أو أستطع يومًا أن أشرح لتهامي سبب تَعَاسته، ولم يكن لدي تصور كامل في ذلك الزمن عن السبب، لكني الآن أفكر وأرى بوضوح كيف كانت القاهرة تعيد نسخ البشر بأفراحهم وأحزانهم في نسخ مُتطابقة ومُتشابهةً إلى درجة مُفزعة. منذ صغره أرَاد تهامي مثل أي شاب أن يكون نَاجحًا مَحبُوبًا، أراد الأضواء والشهرة فأوصله عقله إلى كلية الإعلام، تخرَّج فيها، ثم ساقته المصادفات - أو للدقة يد القاهرة القدرية التي تلهو بالبشر - إلى مهنته الحالية. تحول إلى مُخرج أفلام وثَائقية، ثم أسس شركته الخاصة بدعم وتعاون مع مجموعة من الممولين المتعطلين الذين عادوا من الخليج، يبقون

على زوجاتهم المحجبات مع الأطفال في نادي الصيد بينما هم لا يعرفون ماذا يفعلون بأموالهم التي اكتنزوها، فيقررون مشاركة شاب صغير في شركة لصنع الأفلام التسجيلية. ليس لديه مهرب، الشاب النَاجح يجب أن يتزوج، زُملاؤه من الشبابِ النَاجح أنجبوا، هو ليس مثلهم، لكنه في ذات الوقت يجب أن يكون مثلهم. كل فعل سيِىء يرى فيه مَعصية تؤلمه من الدَاخل لكنه يصر على ارتكَابه.

في شبابه قضى تهامي وقتًا طويلًا مع شباب في المسجد قبل الصلاة وبعدها، كان بعضهم نجوم شبابه وبوصلته نحو الاحترام، لكنه الآن ما عاد شابًا ولا إخوانيًا وإن بقيت داخله التصورات القديمة عن الخطأ والصواب، وكل خطأ يَرتكبه يُشعره بالقرفِ والألم، والأسوأ أنه لم يعد يَعرف ما هو الخطأ وما هو الصواب. كل شيء أصبح خطأ وأصبح مُثيرًا للقرف. عيشته كلها حرام في حرام. فيحاول أن يغوص في الحرام - الذي يتصوَّر أنه حرام - بحثًا عن متعة مبهرة وجديدة لكنه لا يعثر إلا على البؤس والتكرار والملل الأزرق للشهوة.

***

بالإنجليزية قالت:

- حدَّثني إيهاب عنك كثيرًا، أنا دائمًا أثق فيه وفي اختياراته.

ابتسمت ريم ابتسامتها الجانبية. تَفعلها دائمًا حينما يوسوس لها شيطان السخرية والخبث. بالإنجليزية ردت:

- أنا أيضًا أثق في اختياراته لذلك جئت لمُقَابلتك.

اقتربت «بابريكا» من سور الكورنيش وأخذت تَنظر إلى صفحةِ النيل، نظرت ريم إلى السيارة «الليموزين» حيث أخرج السائق جورنال «الجمهورية» وأخذ يقرؤه غير مُهتم بكل ما يحدث، وقفت ريم بجوارها. دقيقة. اثنتين. ثلاث. اتكأت ريم على السور وبدأت عيناها ترتَاح مع حركةِ المياه البطيئة. خمس دقائق. ست دقائق. سبع دقائق. كأن الأمر رهانُ غيرُ مُعلن من سيتحدث أولًا يدا بابريكا في جيب بنطالها، وملامح وجهها لا تشي بأي فكرة، أو هكذا تعودت أن تبدو انفعالاتها. عشر دقائق. تتململ ريم وتَنقل وزن جسدها من قدم إلى أخرى. ربع سَاعة. 17. 18. أخذت بابريكا نَفسًا عَميقًا وأخرجته دفعة واحدة فيما يشبه التنهيدة وقالت:

ـ جميل..

هزَّت ريم رأسها:

ـ آه

التفتت بابريكا لها وعلى وجهها ابتسامة عريضة، كأنها حقول خضراء ممتدة لنهاية الأفق. أشارت لصفحة النيل:

ـ إذن..

لم ترد ريم، فأكملت بابريكا جُملتها:

ـ إذن، ريم، ما رأيك؟ كيف يمكن أن يُصبح هذا النيل أجمل؟

ـ هزت كتفيها كأنها تلقي بعقب سيجارة مهملة:

ـ لا أعرف.

ـ لماذا؟

صمتت ريم لثوانٍ ثم رفعت رأسها نحوها. بدا أنها فوجئت بنظرات بابريكا المسلطة عليها، لكن لم يكن هناك مهرب. وقعت عينا ريم داخل حدقتي بابريكا. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان. شعرت ريم بيد حانية تنزع روحها من ثقب سأمها. عرفت في هذه اللحظة أنها قد وقعت في حب «بابريكا» تمامًا كما يحدث في الأفلام، وكما ينقلب السحر على الساحر. بصوت خافض كررت «بابريكا» السؤال وهي تقترب أكثر منها:

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أعرف.

ـ لا تعرفين ماذا؟

خرجت الجملة من ريم ضعيفة كوشاح حريري يسقط من أعلى:

ـ لا أعرف كيف يمكن أن يبدو النيل أجمل.

بصوت واثق لكن لا يزال خفيضًا رمت بابريكا السهم:

ـ وماذا عن الجمال؟ هل تعرفينه؟

استجمعت ريم شتاتها تحت ثقل حضور بابريكا، وردت محاولة الهروب من السؤال.

ـ إنه يبدو لي جميلًا، لكن المشكلة في...

حرَّكت يديها كمن يجمع الكلمات من الهواء ثم نطقت:

المشكلة في الحزن.

***

أمام نيل القَاهرة الكبرى بمنطقةِ حلوان في هذا الصبَاح البَاكر، في الخلفية مَصنع الحديد والصلب. ظهرت للعلن ولأول مرة الفكرة، كأنها لحظة انفعالية. بصقه زَائدة. تَنهيدة نَاتجة عن ألم في الصدر، أو شوق للخلاص من ألم القلبِ.

قالت ريم «الأمر بسيط، إنه فقط لا يحتاج إلى المرور بهذه المدينة. النيل يُصاب بالحزن حينما يَمر بالقَاهرة».

***

برغم أني لم أفكر في الأمر سَابقًا على هذا النحو، لأني كنت أثق بذكاء وقوة ريم أو ربما كنت أتوسم فيها ذلك.

لكن الآن أحيَانا ما أظن بعض الظنون، أقول لنفسي «ربما» وأقلب حجر النرد على وجوهه الستة.

الخوف من الوَحدة ربما يكون سَببًا قويًا دفعها لاقتناء الكلب، في النهاية فالحيوانات بما تتميز به من خرس، والكلاب تَحديدًا بما هو مَعرُوف عنها من نَظرة بلهَاء مثيرة للعطف ومُهيجة للشفقةِ، هي رفيق مُسَالم يشعُّ طفولة. بيبي جميل. رَائحة الفرو بعد الاستحمَام نَاعمة.

***

حسب الترجمة العربية التي استخدمتها ريم في الإيميل المرسل إليَّ فقد كان المطلوب في الفيلم الثاني أن يأخذ شكل «الفانتازيا التسجيلية» وحسبما شرحت العبَارة بإيجَاز في الإيميل فَليس مَطلُوبًا أن يرصد ويسجل الفيلم وضعًا قائمًا، بل أن يَسعى لخلق عملية تَوثيق لحدث مُتخيل يقترب من الفانتازيا، وهو ليس اختفاء بل تَغير مَجرى النيلَ بحيث لا يمر بمدينةِ القَاهرة بل يلتف حولها ليشق طريقه من الحد الفَاصل بين مُحَافظة أكتوبر ومُحَافظة الجيزة، مُكملًا طريقه بعد ذلك نحو الدلتا التي بالطبع سوف يتغير واقعها جُغرافيًا، وإن كانت هذه التفصيلة الخاصة بالدلتا خارج موضوع فيلمنا الذي يفترض مثل الفيلم الأول وبقية الأفلام القادمة أن تركز على القاهرة ثم القاهرة ثم القاهرة. قالها ثلاثًا وأشار بإصبعه الأوسط. والجملة التي كان تهامي يُكررها دَائمًا، لو عايزين يعملوا فيلم تَسجيلي عن الحيَاة الجنسية للنمل في شَارع فيصل أعمله.

أشارت «ريم» في الإيميل أن الاجتماع القادم ستحضره مُديرة فرع الجمعية في النمسا، الآنسة بابريكا. وهو ما جعلني أشعر بقدر من خيبة الأمل، لأنني ظننت أنه ربما لن أقابل د.إيهاب حسن مرة ثانية، فبعد اللقاء الأول لنا لم نلتق طوال أكثر من شهرين، ونُسخة الفيلم الأول تسلمتها مدام دولت ثم عادت ومعها ملف يحتوي على ورقة واحدة مكتوبة بخطِ اليد تحمل ملاحظات د. حسن. وبالطبع شيكًا بخمسة وعشرين ألف دولار لفيلم أعرف أن تكلفته الإنتاجية يستحيل أن تتجاوز العشرة آلاف جنيه. وكان تهامي يكرِّر «يا عم، أنا شخصيًا لو عايزين يعملوا فيلم عن عمارة طيزي مفيش عندي مشكلة».

حضرت جيدًا للاجتماع الذي تم تحديد فندق الفورسيزونز في جاردن سيتي مكانًا له. «تناول الغداء والدردشة حول الأفكار الأولية للمشروعِ».

النيل في أكتوبر.

أمام «جوجل إيرث» أخذت أتخيل مسارات متعددة له. يأتي من عند حلوان ليتجه شَرقًا مُتجَاوزًا مُحَافظة الجيزة بأهراماتها السخيفة الثلاثة ليشق طَريقه فَاصلا 6 أكتوبر عن كل هذه النفَاية في الجَانب الآخر. طوال الوقت كانت مسَارات النيل تَتغير، شَاهدت صورًا قديمة له يعبر من ميدان رمسيس. وفي فترة قديمة كانت سبعة فروع قوية تشق الدلتا. احتاج الأمر لأكثر من سبعة آلاف سنة حضارة حتى يستطيع الإنسان المصري السيطرة على النيل وتلجيمه، ليتحول إلى ترعة تسير ببطء كأنه سلحفاة كئيبة تفكر في الانتحَار.

إذا كان الأمر كذلك وهو كذلك بالفعل، فلا يوجد ما يمنع أن يكون كذلك غدًا أو بعد غد أو حتى في فانتازيا تسجيلية. أي خواجة معرَّص ابتكر هذا المصطلح المائع؟!

فانتازيا تسجيلية.

كما توقعت لم تتعامل ريم معي بشكل رسمي، ولم تكن عدائية بأي شكل، استقبلتني بابتسَامة وقُبلة على الخدين «وحشتني.. عامل إيه؟». جلسنا على طَاولةٍ في آخر القاعة "بابريكا.. قدامها عشر دقايق ونازلة"

- تمام، تمام.. مفيش مشكلة، أوكيه..

أخذتُ أتمتم بعبارات روتينية وهزات رأس مُتواصلة. بدا كأننا سنجلس وحدنا لوقت طويل قبل أن تأتي السيدة الفَاضلة المدعوة بابريكا. لا النظر في مفرش الطاولة الأبيض يكفي، ولا تأمل العَائلة الشقراء الجالسة على الطاولة المُجَاورة. وهي بالطبع لن تبدأ بفتح الحوار كعادتها، يجب أن تتلذذ بحيرتك وتنتظر كيف سترمي خيط الحديث أولًا، على حسب مهَارتك في الرمية الأولى يكون انفعالها أو لامبالاتها بكل ما سوف يخرج من فمك لاحقًا. اخترتُ منطقة آمنة.

- مبسوطة في الشغل مع الجماعة دول؟

- إنت مبسوط معاهم؟

وجوووون، في أقصى الشبكة، لعبة جميلة جميلة من ريم، الله عليك يا ولد.

- أنا بعمل لهم أفلام، مش بشتغل معاهم. بس عمومًا كله تمام. الأجواء والموضوعات والشخصيات كلها غريبة. لكن كله تمام. مبسوط يمكن. متضايق ممكن. كالعادة في النقطة صفر.

«همم» هزت رأسها، ثم مدت يدها في حقيبتها. أخرجت علبة السجائر «الكنت».

وضعتُ ساقي اليمنى فوق اليسرى وأرجعت ظهري للخلف:

- لكن بجد نفسي أفهم، الناس دول معاهم كل الفلوس دي منين؟

* * *

هل كانت لدى ريم رغبة في الانتقام؟

الانتقام من الفشل، من النجاح غير الممكن. من أطنان اليأس والإحباط التي أحاطت بحياتها. من الحب الذي يتبدد بمرور السنين. والشيخوخة التي تزحف باكرًا. العجز عن التغير. بل حتى العجز عن معرفة سبب المشكلة. كل ما كانت تحتاجه لتبرير روح الموت التي تحيط بها أن تقول لي «بُص للمزبلة اللي حواليك.. بص للشوارع».

والأمر لا يتعلق فقط بالزبالة والقاذورات، ولا العمارة المشوهة، ولا النظرات الكارهة أو اللزجة بصفارها، ولا حتى إشغالات الطرق والغبار والتراب المتصاعدين دائمًا.

«الهواء نفسه في هذه المدينة فاسد يا بيسو، وهذا الهواء قد لوثنا بالسرطان منذ زمن، حتى لو رحلنا عنها فسوف نحمل المرض معنا، سوف نموت بمرض القبح». تقول ريم. فأسأل نفسي وما العيب في الانتقام؟

***

فكرة الفيلم كانت أبسط مما تخيلت. سلسلة لقاءات مع بعض الخبراء المعماريين، بعضهم أجانب ستتحمل «الجمعية» مصَاريف شحنهم إلى القاهرة لشرح بعض التصورات حول مستقبل القاهرة لو فقدت النيل.

الفكرة الرئيسية أن أحد الحلول لإنقاذ القاهرة من واقعها الكابوسي هو التخلص من نهر النيل، بهذه الطريقة سوف تذوي المدينة وتَفقد رونقها، بالتالي ستقل الكثَافة السُكَانية وتنتقل إلى مرَاكز عمرانية جديدة في الأطراف. مما سيعطي الفرصة لإعادة تطوير القلب القديم للمدينة بصفته منتجعًا تاريخيًّا مفتوحًا. أو ربما سيفقد سكان الأطراف الاهتمام بها، فتختفي وننقذ ملايين البشر من مصيرهم التعس في المدينة. في الوقت ذاته فإن تغيير مسار النيل كفيل بإحداث نقلة نوعية في الظهير الغربي لمصر، بل ربما يمكن في هذه الحالة نقل العاصمة مرة ثانية إلى الإسكندرية، التي رغم حالتها السيئة يظل فيها ما يمكن إصلاحه.

اقترحت أثناء مناقشة الفكرة أن يتضمَّن الفيلم دردشة وتمشية مع بعض الناس العادية للحديث حول علاقتهم بالنيل، وماذا يعني لهم، خصوصًا القطاعات التي يرتبط عملها

وحياتها بشكل أساسي بالنيل. لكن بابريكا هزت رأسها ثم رفعت إصبعها في مواجهتي وقالت بالإنجليزية:

ـ هذا فيلم ببساطة موجه، ويعكس أفكار الجمعية. وعي الناس وآراؤهم مسألة لا تهمني، كما أنها مسألة نسبية تتغير من مكان لآخر.

هززت رأسي متظاهرًا بالاقتناع رغم أنه بدا واضحا أنها لا تهتم إن كنت مقتنعًا أم لا لكنها أدارت رأسها لريم، ثم نظرت لي وقالت:

ـ أعني لو أجريت نفس الحوار مع شخص يعيش على ضفة نهر «يانغتسي» في الصين فسوف تسمع منه نفس الكلام، لا جديد تحت الشمس.

أفكار بابريكا بدت لي مشوشة ومتناقضة مع بعض أفكار د.إيهاب حسن التي شرحها لي خلال الفيلم الأول. كان حسن يري البشر قبل العمارة. البشر قبل التاريخ وقبل أي شيء. بل إني أحسست أن فيلم النيل يتعارض في جوهره مع فيلم «الطريق الدائري» فبينما كنَّا نبحث خلال إعداد فيلم الدائري عما هو متاح عن النفعية ومناطق القوة والإبداع تحت ركام القبح، كانت ريم تسعى لنزع وردة الجمال الوحيدة وترك القبح يأكل بعضه بعضًا.

في وسط هذه النقاشات، لفت نظري أن يد بابريكا كانت في معظم الوقت مرتاحة على فخذ ريم من أسفل الطاولة. تظاهرت بأني لم ألحظ الأمر وتَابعت شرب البيرة بينما الاثنتان تتناولان طعامهما، وأنا أدعي الانشغال بتدوين الملاحظات.

أعجبت بابريكا ببعض الإضافات التي اقترحتها. كالحديث عن البُعد التاريخي، كيف لعب النهر دورًا في تشكيل المدينة. وكيف أجبرت المدينة النيل أحيانًا على تغيير شكله.

قدمت في نهاية الجلسة تصورًا أوليًا. مجموعة فصول يحمل كل واحد منها سؤالًا الأول رحلة استكشافية: أين ذهبت بحيرات القاهرة؟

لسنوات كانت البحيرات والبرك التي يشكلها النهر في فيضاناته مَلمحًا جغرافيا أساسيا في القاهرة، تضاءلت البحيرات. هل جاء سكان من الفضاء بجلد أخضر تكسوه الحراشف وسرقوا البحيرات؟

تبتسم بابريكا وتقول بالإنجليزيه «هذه فكرة جيدة».

النهر نفسه كان يشق المدينة من مسارات مختلفة. لكن منذ بداية عهد محمد علي تمت عمليات متتالية للتحكم في مسار النيل داخل العاصمة، وبالتالي التحكم في الشكل الذي توجد عليه البحيرات التي أصبحت تحمل اسمًا آخر في ذلك الزمن كانت تُسمَّى «البرك والمستنقعات».

- إذن فالأمر لم يكن هكذا دائمًا، بل هو تطور ونتاج سلسلة من الأخطاء يمكن تصحيحها. نحن فقط نحاول تصحيح ما حدث.

ألقيتُ الجملة الأخيرة بالإنجليزية. مبتسما ابتسامة حاولت فيها تقليد مندوبي شركات الإعلان، لكن ريم نظرت في عيني كمن يصوب رصاصة وقالت بالعربية:

- أنت مقتنع بالكلام دا يا بسام؟

- وما له، ليه لأ، فكرة جديرة بالمناقشة، وفي النهاية الأمر كله فانتازيا.

***

الأهم أن يد ريم كانت فوق يد بابريكا.

الفصل الخامس

ضغطت على الجرس مرتين ثم أخرجت المفتاح من جيب المعطف، وفتحت الباب. الهواء كان يطيِّر ستائر النَافذة الخفيفة في الصالة، استدرت يسارًا لم تكن في غرفة النوم. ندهت عليها:

ـ مونى مي..

أتى صوتها من الحمام «هاللو». باب الحمام مَفتوح فدخلت، نظرت إليَّ من البانيو حيث استلقت عارية في المياه وفي يدها مجلة «كومكس»:

ـ معاك ولاعة؟

أعطيتها الولاعة، ثم اتجهت نحو «الكابينيه» أنزلت الغطاء وجلست عليه. تدحرجت عيناي على نهديها الطافيين على الماء وراقبتها وهي تشعل السيجارة بحرص مُتفَادية أي بلل قد يصيبها.

***

حكيت عن إيهاب حسن لمونى مي أول مرة يوم حفلة يوسف بزي. يعلق الاسم في ذهني لطرافته. «يوسف بزِّي».. بز مين يا عم الحاج. لكن ملامح الوجه أو أي تفاصيل أخرى عن شخصية صاحب الاسم تبدو غائبة. شاب درس في الخارج ربما. لديه شقة واسعة في الزمالك من طابقين، في البداية كان يقيم الحفلات لأصدقائه ومزاجه الخاص. ثم وجد أن مدينة ضَخمة كالقَاهرة تُعَاني حقًا من قلة الأماكن الروشة. فقرر تحويل منزله الواسع إلى سَاحةِ للحفلات الخَاصة مَفتُوحة للفنانين، أشباه الفنانين، أنصاف الفنانين. الأجانب من أصول أوربية أو أنجلو ساكسونية في الغالب، مُتحدثي الإنجليزية بطلاقة. خبراء التنمية، خريجي الجامعات الخاصة، اللي معاه قرش محيَّره.

في وسط الصالة كان هناك جاكوزي ذو حجم كبير جلست فيه فتاتان وشاب آخر بالمايوهات.

أمام الحمام الوحيد وقف طَابور من مَجمُوعة مُختلطة من الشبابِ والشابات السكارى، مثاناتهم اللاتي على وشك الانفجار تهيِّج أعصابهم. موسيقى مرتفعة لدرجةٍ لا تَسمح بتمييز نوعها. وبالقرب من باب البلكونة وقفت مع مونى ومود أشرب البيرة من علبة صَفيح وأحكي عن تفَاصيل لقائي بعجوز يأكل الفراخ نيئة.

مود لم يهتم. لكن مونى حينما انتهيت من قصتي قالت بحماس لم أعرف هل من تأثير الكحول أم من تأثر ما حكيته:

ـ دا جامد جدًا.. لازم تعرَّفني عليه.

***

خَرجتُ من مَكتب الشركة في المهندسين باتجاه وسط البلد، ما إن ركبت التاكسي حتى أحرقتني الحرارة المنبعثة من الكرسي، نظرت للسَائقِ في ضيقٍ:

ـ إيه دا يا عم؟

ـ معلهش الجو نار النهاردا.

أخرجت الموبايل ووصلته بالسماعات ثم وضعتها في أذني، نزلت من التاكسي في ميدان طلعت حرب وقررت التمشيه حتى شارع عدلي، وبينما أعبر شَارع قصر النيل، تجاوزني تاكسي آخر وقد أوشك أن يصدمني. ارتعبت وتراجعت للخلف فارتطمت مرآته بساعدي، صرخت بصوت عالٍ «يلعن دين أمك».

وعلى غير العادة أوقف السائق سيارته في مُنتصف الشارع ونزل منها، وقفت أمامه جَاهزًا لمعركة لا أعرف كيف ستسير فاعَلياتها. السائق رجل ثلاثيني مُمتلئ الجثة بغل فوق شفتيه الغليظتين شنب أسود مُترب، وكرشٌ ولُغدٌ، بَشرة سمرَاء لوحتها الشمس. شبشب بلاستيك. وقميص أصفر اللون.

ـ بتشتم ليه يا كابتن؟

ـ يعني إنت اتعميت.

ـ ليه بس الغلط دا؟

اقترب خطوتين مني، مددت يدي في وجهه:

ـ إنت عايز إيه طيب، هتضربني مثلًا؟

شوَّحت بيدي في وجهه لكنه فجأة أمسك أصابع يدي وثناها إلى الخلف، شعرت أن أصابعي على وشك الانكسار، والألم انتشر حَارقًا على طول ساعدي. دفعته بكف يدي اليسرى في وجهه ـ كأنني أخول وأضعف من أن ألكمه في وجهه ـ رفع يده ليهبط بها في صفعة مهينة على وجنتي، لكني تحركت أسرع منه ودفعت يده بعيدًا، ثم تدخل الجمهور «صلوا على النبي يا جماعة» تراجعت للخلف وأنا أمسك أصابع يدي اليمنى. ابن الكلب. الألم في كف يدي كان قاسيًا لدرجة أني لم أعد أشعر بها.

انصرف السائق إلى سيارته، وربتت عشرات الأيدي على كتفي وظهري، لكني حتى لم أهتم بحفظ أرقام السيارة. كنت أشعر بالصفعة التي لم تحدث. بالإهَانة. فجأة في رمشة عين. ارتجافة قلب. نفس تأخذه شهيقًا وقبل أن تخرجه تَنقلب المدينةُ عليك يمكنها دَائمًا أن تَهبط بك إلى سَابع أرض أو ترفعك إلى سَابع سماء، وفي الحالتين سَتدخل فجأة كالخازوق في مؤخرتكَ.

في السماعة كان صوت شوقي قناوي/ ابن عروس يدندن بشيء ما من مقدمة السيرة الهلالية، مربعات مَنحولة من شخصية مُختلقة.

القاهرة. الحر. الشمس. العبوس. اللزق والتلزيق. الألم. الأعصاب الملتهبة. الصرخة المكتومة للداخل. الشارع الذي لا يسمح لك بالابتسام أو الضحك. نفس الشارع الذي لا يسمح لك بالبكاء أو بالصراخ ألمًا. شيء ما في علاقتي بالمدينة قد بدأ في التغير. شيء ربما كان موجودا ولكني لم أنتبه له. أو أنه استيقظ في تمهل منذ بداية العمل في هذا المشروع. ثم قفز من مدفنه يوم تلك الهزيمة الفَادحة أمام سَائق التاكسي ذي الشفاه الغليظة والشنب الكث.

إيهاب حسن: أنا واثق.. المكان الذي سنذهب له هذا المساء سوف يعجبك.

بسام: ما الذي يجعلك واثقًا إلى هذا الحد.

إيهاب حسن. مثلما عرفت أن طعامي في لقائنا الأول لن يروقك.

من شارع عدلي ركبنا سيارة ليموزين. خرجنا من وسط البلد باتجاه ميدان طلعت حرب، عبد المنعم رياض فالكورنيش ثم الدوران من أمام فندق شبرد فالكورنيش، ودخلنا جاردن سيتي عابرين بجوار فندق «الفورسيزونز». إيهاب كان صامتًا وأنا كذلك، وحينما كانت تلتقي أعيننا كنت أبتسم بينما يبدو هو غير مُنتبه. ربما شَاردًا.. ربما.

توقَّعت أن يكون المكان مَطعمًا ما في جاردن سيتي، لكن السيارة فجأة دخلت جراج إحدى البنايات الكبيرة، حَارس البناية الذي كان يرتدي بدلة فخمة كأنما هو من جهة أمنية غير معروفة، أشار بيده محيِّيًا ونزل معنا إلى الجراج، اتجهت السيارة نحو آخر جدار في الجراج، تقدم الحارس وفتح عُلبة حمرَاء بجانب الجدَار ليتضح أنه ليس جدَارًا بل باب إلكتروني ارتفع ببطء لأعلى مُفسحًا المجَال عن مَمر بحجم السيَارة مُضَاء بمصَابيح صفرَاء مُتبَاعدة. كان الممر يَهبط إلى أسفل ونحن معه فيَ السيارة. جراج بمستوييَن.. ربما.

بعد أكثر من 500 متر تقريبا ظهر جراج آخر لكنه أصغر، وهذه المرة كان الجراج خَاليًا، توقفت السيارة، نظر إليَّ إيهاب حسن مُبتسمًا، ثم فتح الباب، تَبعته خَارجًا من السيَارةِ. سار بخطوات مُتسَارعه دون أن يَلتفت خلفه ومع ذلك تبعته. تقدم نحو أسانسير. ضغط الزر، فانفتح الباب. في الداخل كان هنا زرّان فقط على لوحة مفاتيح المصعد. واحد يشير لأعلى والآخر يشير إلى أسفل. وعلى ما يبدو كنا في الأعلى لذلك ضغط إيهاب حسن لأسفل، كان واقفًا أمام الباب، وأنا نصف مندهش خلفه، تحرك الأسانسير إلى أسفل والضوء الأصفر الباهت لمصباح الأسانسير يغرقنا، دون أن يلتفت إليَّ قال:

ـ أعرف رجلًا طاف العالم كله في عشرين عامًا، وجلس أربعين عامًا أخرى يتذكره.

انفتح باب الأسانسير فظهر ممر قصير في نهايته باب خشبي، أخرج إيهاب المفتاح من جيبه وأداره. التفت نحوي، أقدر في تلك اللحظة أنه قد رأى عشرات الأسئلة على وجهي، لكنه فقط ابتسم وفتح البَاب.

خلف الباب بدا المنظر مُخيبًا للآمال مجرد غرفة مَكتب بَسيطة، الجدرَان تكسوها بعض الأرفف تناثرت عليها بعض الكتب والأورَاق. أين الكنوز والذهب والياقوت والأسرَار المخفية، أين النعناع والريحان والنعيم؟ أين الجنة يا رضوان؟

بدا واضحًا أن الغرفة مُهملة. الإضاءة خَافتة تَنبع من لمبة نيون مُعلقة في السقف،

أضاء إيهاب حسن أباجورة صغيرة على المكتب. جلس على كرسي المكتب وصب مي الجلوس أمامه، وكمن يحضِّر مفاجأة لطالبة في الصف الثانوي ملفوفة بورق مزركش قال:

ـ تعرف، إحنا فين؟

«تحت الأرض». أجبت ببساطة

ـ دعني أسألك يا بسَّام، أين ذهب قابيل بعدما دفعه الغضب لقتل هابيل؟

ـ لا أعرف.

ـ لكن تعرف بعض الأجزاء من القصة، مثلما تعرف أننا الآن تحت الأرض..

ـ هناك دائمًا فجوات، لهذا ننقب في الماضي وننجم في المستقبل

ـ بالضبط، هل ترغب في بعض الإجابات؟

لكن إيهاب لم يقدِّم أية إجابات. كانت حكاية انساب فيها صوته كريح تعبر شجر الغابة فتهز أغصانه. مثل هذه الهزة التي تشبه أجراس الشجر سمعها «قابيل» وهو في الحقل. القاتل الأول، والمزارع الأول. على العكس من «هابيل» راعي الغنم، كان قابيل هو الخطوة الأولى نحو المدنية، نحو السيطرة على الطبيعة لا الاستسلام لها، تنقيب الأرض، وتقليب التربة بحثًا عن الكنوز والثمار. وحينما خاطبه الرب: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ من الأرض. ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عَمِلْتَ الأرض لا تعود تعطيك قوتها».

تحدى قابيل اللعنة، بصبر طوَّر معرفته، ووضع الأساس الذي سيصير بعضه وراثة بين تلامذته بعدما حُرم من الذريةِّ.

بعد أربعين سنة، غادرت الجماعة أخوية بني آدم، قافلة من سبعين راكبًا على رأسه نقراوس الجبار بن مصراييم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام، لم تزل القافلة سائرة حتى وصلت النيل، حيث أعجبوا بفيضه وقرروا المكوث في تلك البقعة

ومنحوها اسم التلميذ الأول «مصرايم»[11] فصارت مصر.

فجأة ارتفع صوت إيهاب درجتين، تحت الضوء الخافت شاهدت عينيه تلمعان وهو يختم حكاية «نقراوس» الجبار قائلًا: «صنعوا وقتها المدينة الأولى بألف لام التعريف، ردِّدْ اسمها خلفي ستشعر بمدى طلاوتها وحلاوتها «أمسوس»[12] أمس... وس يا بسام»

أخرجت سيجارة من علبة السجائر تساءلت وأنا أضعها في فمي:

ـ هل يمكنني أن أدخن هنا؟

ـ نظر حوله، بدا كأن المكان لا يعنيه للحظة، ثم هز كتفيه:

ـ ولَمَ لا؟

أخذت نفَسًا من السيجارة، جمَّعت شتات أفكاري وقلت له:

ـ لكن ما أعرفه أن مصر تحمل اسمها نسبة إلى مصرايم بن نوح، لم أعرف أن هناك مصرايم من سلالة آدم.

ـ هذه قصة أخرى، يحدث خلط أحيانًا بين الروايتين، أو تنفي إحدهما الأخرى، لكنها

---

(11) وجدت أصداء مما حكاه لي إيهاب حسن تتكرر في رواية خطط المقريزي، وفي الجزء الأول من كتاب جلال الدين السيوطي «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة». بينما يفصل «أوليا جلبي» في كتابه «سياحتنا مع مصر» أوصاف نقراوس الجبار. فقد كان بداية السلالة التي أنكرت أوصاف الجدِّ عن الفردوس المفقود، ووعدت بصنع فردوس الفراديس على الأرض. واتهم من جانب إخوته بالهرطقة والخروج عن الميثاق الذي قطعوه مع الله من إخلاص العبادة والتوحيد. حفظًا للدماء، خرجت جماعة نقراوس في أول هجرة «للمستنيرين» بحثًا عن أرض يقيمون عليها فردوسهم.

(12) من الصعب معرفة أعضاء الجمعية في ذلك الزمن حيث كانت سيولة الأفكار وربطها بين الأفراد أقوى من الروابط الأخوية، لكن المقريزي يبدو واثقًا ودقيقًا بشكل مثير للاندهاش حينما يتحدث عن «أمسوس» ومصر الأولى التي أسسها تلامذة نقراوس. ويفصل كيف أعملوا الفكر والحيل وحفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم، حيث لم يكن النيل في زمنهم كما نراه الآن وإنما كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى يتوجه إلى النوبة، لكن جبابرة نقراوس كما يصفهم المقريزي. «هندسوا النيل وساقوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرًا إلى ميدنتهم «أمسوس».

رواية تعقب رواية، مثل نهر المعرفة حينما يبدأ السيل تدفع كل قطرة الأخرى. حيث تصعر قطرةٌ قطرةً أخرى نحو القاع فلا نسمعها، على سبيل المثال..

من المبشِّر أن شابًّا مثلك يعرف قصة مصرايم بن نوح، لكن هل تعرف «فليمون»

كان كاهنًا قديرًا رفض الإيمان بدعوة نوح أو الانغماس معه في مشروع مدينة الماء. لكنه رفض أيضًا مد الأذى إلى نوح وتلامذته. لكن حينما رأى النهاية ماثلة ذهب إلى نوح وطلب المعمودية منه، وصعد على السفينة هو وأهله.

طلب «فليمون» من نوح دعوة واحدة: «أيها النبي، اجعل لي رفعة وقدرًا أُذكَر به بعدي». تزوَّجت بنت فليمون بمصرايم بن حام بن نوح، وأنجبت فليمون الذي حمل اسم جده تيمنًا به.

أخذ فيلمون الكاهن عائلته – ابنته وصهره – وارتحل إلى مصر، وبصبر كشف لحفيده المسائل المرتبة والحسابات الطويلة، أخرج ما حفظه الكهنة وتلامذة قابيل ونقراوس من سجلات الأرض. منح لصهره الملك ودعمه بكهانته وبنظام اجتماعي وروحي يرسخ لسلطانه[13]، في المقابل طلب منه فيلمون الصغير ليكون في رعايته الخاصة، من الجد للكاهن تم وضع الانبعاث الثاني للأخوية وجمعية المعمار، ومنذ هذه اللحظة تبنت العمل السري خطًا لها.

أخرج إيهاب ورقة صغيرة، وقال:

ـ اسمح لي أن أقرأ لك هذا النص الصغير من وصايا فيلمون لفيلمون:

«المعرفة هي وردة النار. والشمس التي تشتعل منها الشموس.
لذا فلا تحتاج وردة النار للشمس[14]، ولا أن تترك مكشوفة للجميع.

---

(13) في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لابن محشرة (كاتب مراكشي) والذي حققه سعد زغلول عبد الحميد ونشر في طبعة واحدة عام 1958 بالأسكندرية، يرد هذا النص البليغ موضحًا جانب من أعمال فليمون: «أطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلمه خط البرابي، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر وأطلعه على عمل الصنعة في الجبل الشرقي فسمي المقطم».

(14) الإشارة هنا للشمس تحمل تحديًا واحدًا لكل صور الإله، وكأن فيلمون يعلم ما سيأتي بعده من أديان ومذاهب اجتماعية سيتأسس عليها النظام الاجتماعي والسياسي في مصر القديمة لما هو أكثر من ثلاثة آلاف

يعرِّضها هذا ويعرِّض الجميع للخطر، من سلالتي أنا فيلمون لفيلمون وهبنا أنفسنا للإله الذي هو فوق كل إله، للمعرفة التي بها خلق الإله ذاته وتجلَّى». (15)

نفضت رماد السيجارة على الأرض. وقع الرماد منثورًا، رغم أنه خرج من سيجارة واحدة، لكنه تفرَّق في أجزاء متباعدة. هكذا الواحد ينقسم ويأخذ أشكالًا لكن منبعه يظل واحدًا، كما أن الدخان والرماد من سيجارة واحدة.

عام. الإشارة المشفرة أن «فيلمون» يزرع بذرة بجنين الجنين الأول، هذا الانحياز التام للمعرفة وتحويل البحث إلى تعبد ونسك، وتقديس المعرفة والحفاظ عليها وأرشفتها حيث هي الإله الذي تنبلج منه صورة الإله ويكشف بها الإله عن ذاته لعباده. وهي في الوقت ذاته الشمس التي تشعل الشموس، بمعنى أن امتلاكها والإحاطة بأخبارها وأفعالها يمكن أن يحولاها إلى كلمة خالقة، بنيان قائم بذاته.

(15) انطبع هذا النص في ذاكرتي، ومنحني إيهاب الورقة التي حملت ترجمته الخاصة للنص، ما زلت أحتفظ بها حتى الآن، وأطالعها بين فترة وأخرى.

الليل

الأهم من إيهاب حسن الجد الأكبر حسن شعراوي.

شاءت الأقدَار، شاء الله، شاء الخديوي، شاء حظه العاثر، شاء حظه الحسن، أن يسافر حسن في نهايات القرن التاسع عشر إلى أوروبا لإكمال دراسة الهندسة. وبالمصادفة ـ أو ربما كان الأمر مخططًا مثل كل المصادفات المرتبطة بشخصيات الجمعية الرئيسية[17] ـ

---

(16) رغم أني لم أنجح في الوصول إلى دلائل مؤكدة، لكن هناك إشارات متفرقة تربط بين حسن شعراوي ومحمد مظهر باشا، أحد المبعوثين المصريين الأوائل والذي تتلمذ على يد مسيو جومار، التابع المخلص لأخوية السمعانيين وأفكار "بارتيليمي بروسبير أنفتين" محمد مظهر باشا من أوائل المصريين الذين انضموا للانبعاث الثاني لجمعية المعماريين. عرف في التاريخ كأول مصري يترأس مدرسة المدفعجية، وبنى فنار الإسكندرية الكبير والكائن على طرف شبه جزيرة رأس التين. أوكلت الجميعة له مهمة تشذيب النيل، فأنشأ القناطر وعدل الكثير في تصميماتها وصمم بنفسه قناطر مدينة رشيد.

(17) سواء كان يعلم أم لم يكن يعلم، فقد عمل محمد علي بإخلاص كأداة في يد البنَّائيين الجدد، وتحول لأحد السيوف القواطع الذين استخدمتهم الجمعية في حربها التطهيرية ضد أعضائها الذين رفضوا في بداية القرن التاسع عشر مخالفة عهد «فيلمون» والخروج من المعرفة إلى الإدارة. وثق الجبرتي في وثائقه غير المنشورة للجرائم التي ارتكبها محمد علي وأعوان تابعون له للتخلص من الحراس والتلامذة والأساتذة من أعضاء الجمعية الذين عاشوا في مصر والسودان. وكان الجبرتي نفسه أحد الضحايا الذين نالتهم أشكال مختلفة من التضييق على يد محمد علي.

لم يستطع محمد علي التطاول على الجبرتي أو العصف به مثلما فعل مع الأمراء المماليك، والذين كان بعضهم تلامذة في الجمعية. يعود السبب وراء ذلك إلى قيمة الجبرتي في الأخوية وسلطانه المعرفي المتجاوز للقطر المصري، كما أن الجبرتي حينما اشتعل الانقسام داخل الجمعية بين «المعرفيين» و«البنَّائيين» رفض الانحياز إلى أي من الجهتين. وكان طموحه مع فرنسيين زملاء له هو الوصول إلى نموذج ثالث يوازن بين طموح بعض أعضاء الجمعية للتدخل وإنقاذ البشرية من مصيرها التعس، وبين الانحياز للطقوس السرية والكهنوتية للأخوية والاشتغال أكثر على الدراسة والتعرف والمعرفة والولع العلمي.

تعرَّف حسن إلى المهندس البلجيكي[18] نقول «تعرَّف»

نستخدم أيضًا لفظة «تعرَّف» لما تحمله الكلمة من دلالة حول طبيعة العلاقات بين أعضاء الجمعية، حيث البعد التام عن أي شكل من أشكال الهرمية حتى على مستوى العلاقات الثنائية، والبحث المستمر عن سبل التعرُّف، والتعارف، والمعرفة، وهو الأمر الذي يشكّل جوهرًا أساسيًا من جواهر الجمعية وكنزها ومنبع خلودها.

البلجيكي كان أحد المهندسين الأساسيين الذين أجروا العديد من الدراسات لتأسيس البنية التحتية للقاهرة، عمل البلجيكي مع الفرنسي والإنجليزي لوضع أول نظام صرف صحي في القاهرة. كان البلجيكي يشعر بالقرف، وحسن الذي كان شبه استشاري مساعد أو شيئًا من هذا القبيل كان يشعر بالضيق من المشروع كله. البلجيكي ترفع عن إرهاق ذهنه في المشروع واكتفى بأن فازت شركته بالمناقصة، كان يُصَارح حسن دائمًا.. الخديوي معتوه، ويريد أن يُحَافظ على السلطة كلها في يده وبالقرب منه، لا يريد أن يسمح بنمو مراكز قوى أخرى بعيدًا عن سيطرته أو لها القدرة على منافسته، إنه يحكم بعقلية ريفية وهذا الأمر ليس مفيدًا للمدنِ الحديثة، المدينة بالأساس تنشأ لأن تكون حلبة صراع، بدون الصراع لا توجد مدينة.

القاهرة في رأي البلجيكي لا يصلح بناء أي امتدادات جديدة لها. حجة شريكه الفرنسي والمعماريين الأجانب كانت دائمًا جاهزة، الرائحة مقززة في القاهرة والبرك والمستنقعات مناطق حاضنة للميكروبات والبكتيريا وكل الأمراض. ومن الذي يهتم بالأمراض؟

الخديو؟

أم المصريون؟

المصريون معظمهم ليسوا من القاهرة، ويعيشون حياتهم البائسة في القرى والنجوع والمدن الإقليمية الزراعية، سوف ننفق الكثير من الجهد والمال في بناء مدينة أصلها

لذا فباستثناء حالات قليلة كان يتم إرسال المبتعثين المصريين من قبل الخديو لمدارس تابعة إلى «البنائيين» أو يتلمذون على يد أساتذة من الأخوية السمعانية Saint-Simonian.

(18) أخبرني إيهاب باسم المهندس لكنه سقط بتقادم الأيام من الذاكرة.

فَاسد منذ البداية، لماذا لا نبحث عن مدينة جديدة؟ ثم لماذا كل هذه الفخامة؟ ولماذا نبذل كل هذه الجهود في تهيئة بقعة أرض وردمها ثم مد خطوط وشبكات البنى التحتية، بدلًا من البحث عن منطقة جغرافية، أرض جديدة. تصلح كمدينة جديدة تستوعب الحياة الجديدة.

حديث البلجيكي لم يكن مفهومًا لشركائه، وفي ذلك الزمن كان التفكير في تصميم وبناء مدن كاملة شيئًا خارج مستوى الخيال. علم التصميم المديني نفسه كان أفكارًا متناثرة تتطور ببطء شديد. وكان طموح البلجيكي ومعه «حسن» هو استغلال طموح الخديو وبناء مدينة مثالية جديدة، ومخطط لكل تفاصيلها. مدينة يمكنها أن تشكل عامل جذب لتخفيف الضغط السكاني عن القاهرة تمهيدًا لإعادة تهيئتها بشكل كامل.

حسن كان واحدًا من الصفوة البرجوازية المتعلمة التي سيتعرف معها الوعي الجمعي المصري للمرة الأولى على كلمات كالوطنية، والأمة المصرية، والحق، والاستبداد، والحرية، والخبز وغيرها من تعبيرات الفخر والتباهي البديعة. لكنه حينما عاد للقاهرة لم يشعر بالاندماج مع الوطنيين ولا الصفوة البرجوازية. كان قدره دائمًا أن يكون وحيدًا لكن في الوقت ذاته هناك وهنا.

مع الجماهير لكنه يحافظ على تفرده.

***

لم يكن من المفترض أن تكون المدينة هكذا ولا كل المدن، كان يجب أن تكون مُهندسة بشكل أكثر إتقانًا، مضبوطة، فعالة.. وليست مجرد مبانٍ جميلة تروق الأجانب والطبقة العليا، هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يروقهم؟ وماذا لا يروقهم؟ هناك ركود فكري حقيقي في العمارة، في فلسفة البناء، نحتاج ربما لما يشبه الثورة.

في القاهرة أصيب حسن الذي نال لقب الباشاوية بالإحبَاط، شركات العمارة الأجنبية كانت تُسيطر على القَاهرة، والخديوي وكل رفاقه بل وحتى هؤلاء الجرابيع الذين يقدمون أنفسهم بصفتهم وطنيين لا يريدون إلا العمارة التي يشاهدونها في المدن الغربية، وأحيـ ما كان يصارح بعض زملائه عن عدم رضاه عمَّا يحدث بداية من تخطيط شبكات صرف ومياه وشوارع المدينة وحتى مبانيها نفسها.

ثم سافر إلى الصين، ما الذي فعله في الصين؟ من قابل؟ أين ذهب؟ أين تجول؟ ما الذي فعله طوال عامين كاملين في الصين؟ هل أتقن اللغة الصينية؟ هل تعلم لغات أخرى؟

نحن لا نعرف، ربما فقط إيهاب هو من يعرف.

***

في سن الأربعين وبعد رحلته إلى الصين وبتوصية من المهندس البلجيكي، وُجهت الدعوة إلى حسن للحضور إلى باريس لتلقي عرض الانضمام إلى المجلس الإداري لجمعية معمَاريي المدينة. عند هذه النقطة تنتهي حكَايةٌ وتبدأ حكَايةٌ أخرى.

على الضوء الخافت للمصباح الأصفر أتذكَّر وجه إيهاب حسن بينما كنا جالسين في المخبأ أسفل حي جاردن سيتي. كانت هذه هي المرة الثانية التي أزور فيها المكان. هذه المرة كانت مدام دولت برفقتنا بعويناتها وعينيها الساحرتين كأنهما عينا صفية العمري. وكل هذا لا يعدو أن يكون سوى ذرَّة من غموضها. كنت مشتتًا بين عينيها وحديث إيهاب، الذي كان يحكي منهارًا بوجه أصفر.

في الأعلى كانت القَاهرة تغرق في طوفان من الرمال والعواصف الترابية، ونحن هنا ننتظر النهَاية التي قد تحدث في أى لحظة حسبما تحدَّد بابريكا.

أذكر أني سألته «ممكن أشرب سيجارة هنا؟!».

ابتسمت دولت وأخرجت سيجارة من حقيبتها وأشعلتها. استعرت القداحة منها، وأشعلت سيجارتي ثم صارحت إيهاب:

ـ لكن ألم يكن يُنظَر إليك أحيانًا بصفتك منقلبًا على أفكار جدك بهذه الطريقة.

ـ لا، الأمر ليس بهذه البساطة. في النهاية أرى المعماري حسن كابن لفترته الزمنية ومعبر عن احتياجات وتطورات ذلك العصر من المؤسف بالنسبة لي أنه قد توفي قبل أن يشهد تبني أفكاره المعمارية. تخيل مثلًا بعد الحرب العالمية الثانية لو لم يكن هناك شخص مثل حسن موجودًا، كيف كان من الممكن أن تُبنى عمارات البلوكات سريعة التنفيذ، بسيطة التكاليف، المناسبة لكل هؤلاء المنكوبين الذين فقدوا منازلهم. حتى الآن العمارة الحديثة التي تحاول محاكاة العمارة الكونية وتحديث الطبيعة كعنصر من

عناصر العمارة، كلها أفكار حسن منذ البداية، في الثلاثينات كان الرجل يتحدث عن حتمية السطو على المناطق الخضراء وإطلاق رصاصة الرحمة على الريف وتحرير الرقعة الزراعية، لمصلحة الإنسان من خلال بناء عمارات متماثلة، وتحويل عة لنشاط مدني عبر استخدام أسطح العمارات كرقع زراعية. واحتاج الأمر لعقود صريحة حتى الألفينات ليطبقوا فكرته على عدد صغير من المباني كمبنى بلدية شيكاغو، الرجل بالطبع كان عبقريًّا.

رنّ جهَازه المحمول في هذه اللحظة بصوت وصول رسالة نَصية قصيرة، تناول عويناته الصغيرة التي يستخدمها للقراءة من على المكتبِ. أخذ يقرأ الرسالة بهدوء، ومن ملامحه لم أستطِع أن أعرف طبيعة الرسالة التي وصلته.

بدا كأنما يحاول منعي من السؤال عن مضمون الرسالة.

ـ تعرف مثلًا.. كان صديقًا لوالتر غروبيوس.. هل تعرف غروبيوس؟

ـ الاسم مش غريب..

ـ غروبيوس كان شابًا حينما قابل حسن، كان أحد أصدقائه المخلصين، لكن في نفس الوقت طوَّر منهجًا آخر ومدرسة قائمة بذاتها هي «الباوهاوس»، هناك طبعًا الكثير من الأفكار المشتركة بين الباوهاوس وأفكار حسن عشري باستثناء نزعة الباوهاوس الرومانسية نحو العمارة المتجانسة والانسيابية. ما الذي حدث؟ حارب النازيون الباوهاوس بحجة أنها لا تعكس الروح الألمانية فانتقلوا إلى أمريكا ليتم الاحتفاء بهم، أما حسن فقد فضل أن يقضي آخر أيامه في بيته بشارع الهرم مفضلًا العمل الإداري داخل الجمعية ونشر أفكاره بين المعماريين الشباب البارزين وتوسيع الهيكل الإداري للجمعية. كان فيلسوف عمارة أكثر منه معماريًا، وعلى الصعيد المهني كان إداريا من الطراز الأول.

ـ ماذا عن بابريكا؟

ـ ليست لدي مشكلة مع بابريكا، صحيح أنها مُتطرفة، تعتمد على أفكار حسن بالفعل، لكن في النهاية أفكار حسن ليست مقدسة.

ـ ليست لديك مشكلة مع بابريكا؟ لكن حسبما أفهم نحن محبوسون هنا بسبب بابريكا؟

ـ صدقني الأمر لا يتعلّق بشخص بابريكا بل إنها حزمة من الأفكار، المعركة بالأساس معركة أفكار.

ـ على سيرة الأفكار، فهناك نقطة لم أفهمها أبدًا من مخطط بابريكا. بالنسبة لي القاهرة فعلًا مدينة بائسة، وقبيحة، وقذرة، وعفنة، وسوداء، ومكتومة، ومحاصرة، وميتة، ومزعجة، ورمادية، وملوثة، ومزدحمة، وفقيرة، وغاضبة، ودخانية، وحارة، ورطبة، وزبالة، وخرائية، وبرازية، وصفراء، وفقر دم، لكن أليس دور من هو معماري أن يعمل على مقاومة كل ذلك؟

ترمي مدام دولت سيجارتها على الأرض في عدم اكتراث، تمص شفتيها:

ـ نعم يا حبيبي، لكن في مرحلة ما لا يستطيع البنَّاء التعامل مع الواقع، أو مع ما هو قائم لذلك لا يوجد ملجأ إلا الهدم وإعادة البناء من جديد.

مثل تلك اللحظات التي تبدو فيها الحقائق غير قابلة للتصديق لكنها ماثلة أمام عينيك، بدت لي الخفة التي يتحدث بها الاثنان عن الأمر مذهلة، كأنهما قد خرجا للتوّ من السينما يقصان عليّ وقائع فيلم تدور أحداثه في المستقبل، حتى رغم أنهما يعتبران في الجهة المضادة المقابلة، حتى وهما يخوضان المعركة ويورطانني فيها، كان داخلهما إحساس بالخسارة، يجعلهما يتعاملان مع الأمر بخفة، كأنها آخر أيامهما. ربما لهذا وقع الاختيار عليَّ. ربما لهذا فالتعاسة والإحساس العميق بالفشل والكآبة التي تقبض صدري فتجعلني أهرول هاربًا من لحظات السعادة القليلة التي قد تعبر السماء. ربما لأني خاسر مثلهما.

لا أعرف ما حدث، لكن فجأة انفلتت ضحكة من إيهاب. ضحكة قصيرة حاول السيطرة عليها، لكنه فشل في ذلك أيضًا فتحولت لقهقهة عالية، انتقلت عدوى الضحك إلى مدام دولت، ثم إليَّ، نغرق في الضحك، بصوت عالٍ، قهقهات عنيفة، الدموع تخرج من عيون مدام دولت وهي تضحك، وإيهاب يقع على سطح المكتب، وأنا أضحك حتى أشعر بالألم في جانب معدتي، نضحك أعلى فأعلى، أكثر فأكثر، نضحك كأنها الضحكة الأخيرة مدفونين تحت أرض القاهرة.

***

برغم عمله في شركة متعددة الجنسيات وتقاضيه راتبًا يتجاوز الآلاف، لكن الإحباط

القاهري الجميل أصاب مود بعد أقل من سنة. أسهم هذا الأمر في توطيد صداقتنا وتعميقها.

كان يشاهد أحدث برامج التلفزيون الأمريكي، يتابع أخبار المعارك الانتخابية بين الجمهوريين والديمقراطيين، يعبِّر عن أسفه تجاه كل ما يحدث، ويشعر دائمًا أنه لا يصنع شيئًا مفيدًا. قلت له ذات مرة «جرب الكتابة يا مود».

وكان يكتب بالإنجليزية، كل صفحة يكتبها كان يقرأها عليَّ أو يرسلها لواحد أو واحدة من أصدقائه المقربين، كان الأهم من الكتابة بالنسبة له رؤية أثر الكتابة في وجوهم، كان الأثر هو ما يجذبه أكثر وما يسعى لتحقيقه، وبينما كانت النتيجة دائمًا في القاهرة تساوي «صفر» فقد كان دائمًا يشعر أنه «صفر» رغم أنه معظم الأحيان كان يعيش حياة يتوافر فيها قدر كبير من وسائل الراحة.

انظر للديك الرومي إنه يغني للا أحد.

انظر للطاووس. أي طاووس. هل من أثر لكل ما يفعله؟ «أريد أن أسافر» يقول مود منهيا كأسًا من «الباكاردي» على دفعة واحدة.

إذا نجحت في ذلك أرجوك، اقذف لي بالحبل.

***

بعد خمس سنوات من غرق القَاهرة، قابلتُ بابريكا في مدينة 6 أكتوبر، كانت أحد المهندسين الأساسيين لبناء «صحراء دالي»، بل للدقة كانت المهندس الأساسي وراء صحراء دالي وكل ما حدث. في عز مجدها تترأس أقوى وأهم جمعية شبه سرية في العالم. واتحاد أضخم مجموعة من شركات الإعمار العلنية.

ما الذي يفعله الطاووس؟

إنه يأكل الفراغ، يهز السأم بريشه.

طلبت طبق خضار مغليًا، نبَّهت «الجرسون»:

ـ لا أريد شوربة خضار، بل فقط مياهًا مغلية، ثم ضع فيها بعض قطع الخضار المجمدة.

وقبل أن يأتي طلبها أخذت تحفر بطرفِ السكين على مَفرشِ الطاولةِ، في ذلك الوقت اتجهت إلى تدخين السجائر اللف، أخرجت علبة التبغ وورَق البفرة، وأخذت ألف السيجارة في هدوء، كنا في مطعم يحمل اسم «الجنرال». الوقت ليل والقمر نصف بدر، من النافذة بجوارنا يمكن رؤية السفن في الميناء، بادرتني قائلة:

ـ أثق أن ريم كانت ستشعر بالسعادة حين ترى الوضع الآن.

رفعت نظري إليها ثم عدت للسيجَارةِ، نادت على الجرسون وطلبت منه فتح الشباك، تسلل الهواء مغسولًا نقيًا، استلزمت تنقيةَ هواء القاهرة أو ما تبقى منها أربع سنوات كاملة بعد العاصفة. في الليل كانت المضخات على حدود 6 أكتوبر تعمل على شفط الهواء ثم تنقيته وإضافة بعض المواد العطرية الخفيفة، والبكتيريا غير الضَارة للبشر التي تعمل على تفكيك أول أكسيد الكربون وبعض الغازات الملوثة. لهذا كان هواء الليل دَائمًا مُختلفًا، كأنه قبلة من الآلهه، قبلة من ريم.

انتهيت من لف السيجارة ووضعتها بين شفتي.

قالت لي:

ـ أنا لم أطلب من ريم أن تضحي بنفسها، أنت تعرف ذلك أليس كذلك؟

«هل تبحثين عن راحة للضمير عندي؟» سألتها وأنا أشعل لفافة التبغ.

«ليس لديَّ ضمير بسَّام» قالت.

ـ إذن لِمَ تتحدثي معي عن ريم، وإذا كنت لم تطلبي من ريم أن تضحي بنفسها، فماذا عن إيهاب، مدام دولت، والملايين التي راحوا كأنها هباء منثور.

ماذا يفعل الطاووس؟

من أطراف ريشه تتدلَّى المشانق.

فتحتُ زجَاجة المياه المعدنية وصببت القليل منها في كوب زجاجي، مرَّ بذهني مشهد عابر من فيلم مصري قديم يدعى «إبراهيم الأبيض». أعدت الزجاجة لمكانها وأغلقت فتحتها بالغطَاءِ البلاستيكي، وجهتُ عينيّ لها، وتحرَّكت شفتاي متحدثة:

ـ أستاذة ريم، لا أود حقًا الحديث عن الماضي، وليست لديَّ أي اهتمامات بنشاطاتك أو نشاطات الجمعية حاليًا، طلبت لقائي لأن لديك عرض وظيفة تفكرين في عرضه عليَّ. وقد حضرت لأسمعه.

استعادت جمود ملامحها. الطاووس يُصَاحب أي شخص، يتبع أي كائن، طالما الحجارة تتساقط من جيبه، تلمع كالزجاج فيظنها جواهر.

وضع النادل فنجان القهوة أمامي، ووضع أمامها حساء الخضار المغلي، شربت قهوتي، تناولتْ حساءها. صامتين كنا. في رأسي كان يرن صوت محمود عبد العزيز كأغنية قديمة «أسد وعنده مملكة».

أنهت حساءها.

ماذا يفعل الطاووس؟ يتبع الحجارة، كل حجر مختلف عن الآخر، في اللون والشكل والبريق والطعم، إنها أحجار لكنه يراها جواهر، يحاول مضغها، ينحني ويتناولها من على الأرض بمنقاره، يحرك الحجر يمينًا ويسارًا في فمه ولا يستطيع طحنه، وفي الوقت ذاته لا يستطيع بلعه كاملًا وإلا مات ككتكوت صغير فكر مرة في أكل الفستق.

ـ هل ترغب في أن تتولى مسئولية منصب حارس المدينة الجديد؟

ـ أيه مدينة؟

ـ هذه.. 6 أكتوبر.

الانتقام لا ينتمي للعصور الحديثة 1

لم يكن للجمعية مقر رسمي في القَاهرةِ. كان هناك بعض المقرات لبعض المنظمات الشقيقة؛ نوادي روتاري، ونوادي الليونز، وحركة الشباب الأخضر. كان يمكنهم تأجير واحدة من قاعاتها. كان يمكنهم حجز مطعم «تبولة» كَاملًا، كان يمكنهم إقامة اجتماعهم الطارئ العاجل في صحرَاء سقارة أو تحت سفح الأهرامات، كان يمكنهم إقَامة الاجتمَاع في *نادي جاكوزي يجلسون فيه عرَايا جميعًا، أو أن يستأجروا طائرة تطوف بهم فوق سماء* القاهرة. بسهولة كان في إمكانهم أن يقوموا بأي شيء من هذا، لكن ونظرًا لحسَاسية الموضوع وخطورة القرار وتبعاته التي قد تُحدث تغييرات جوهرية في كل مكان، وما سيكون من أمر الجمعية والعالم، نظرًا للتوتر بين الأعضاء الـ21 للمجلس الإداري للجمعية. ونظرًا لعشرات التفاصيل الأخرى، اختاروا أن يكون مقر الاجتماع في شقة إيهاب حسن الصغيرة في شارع عدلي.

أتوا في مجموعات صغيرة توزعت حسب اختياراتهم من فنادق القاهرة؛ السيد أوزامي موراكاما المعماري العجوز (اليابان) والسيدة سمارة خان خبيرة التغذية (إندونيسيا) اختاروا فندق الماريوت بالزمالك. السيد حنا عيسى أستاذ التخطيط العمراني (لبنان- الولايات المتحدة) والسيد جان رشيد الخبير الزراعي وحرمه فيفان أستاذة العمارة الداخلية (فرنسا) اختاروا فندق جراند حياة في منتصف نيل القاهرة. السيد كيم يونج محاضر في الشؤون العسكرية (كوريا الجنوبية - الولايات المتحدة)، بصحبة السيد جونزو سميث صاحب مطعم وأستاذ السحر القديم (الولايات المتحدة الأمريكية)، معهم السيد لارس ياكوب أستاذ التصميم الجرافيكي (الدنمارك)، والسيدة تيريزا بيبا المعمارية

القديرة (إيطاليا) بصحبة أستاذ اللغات القديمة المقعد نيكولاي براسو (إيطاليا) الخمسة اختاروا فندق هيلتون رمسيس.

السيد جيا تشين لين خبير نظم تأمين وإدارة المفاعلات النووية (الصين)، والكاتب البارز سو تونغ (الصين). الكاتب والناقد الأدبي بانكاج ميشرا (الهند) اختاروا فندق أمين بميدان باب اللوق. المؤرخ السياسي جليبروتو فريري (البرازيل) اختار فندق كونراد على النيل. ساليف كالي طبيب ريفي (مالي) والسيدة كارين بوي عازفة كمان (السويد)، هربرت غرونماير فنان تشكيلي وأستاذ علم النفس (ألمانيا)، أحمد فهيم رجل أعمال وخبير ممارس للسحر الحديث (مصر - الولايات المتحدة الأمريكية) الأربعة اختاروا فندق سميراميس.

السيد يوري شفتشوك تاجر سلاح (صربيا - إنجلترا)، السيدة جميلة آل سعود خبيرة السحر العربي (سعودية بالطبع) اختارا فندق شيراتون الدقي، أخيرًا بابريكا معمارية وخبيرة السحر الحديث (النمسا- اليابان- الفلبين) شقة خاصة في الزمالك، إيهاب حسن أستاذ الأدب والرئيس الحالي للمجلس الإداري للجمعية (شقة بشارع عدلي) إلى جانب هؤلاء حضرت الاجتماع السيدة دولت، وريم السعيد مساعدة لبابريكا.

* * *

طبقًا لتقاليد الجمعية لم يتخذ المشاركون في الاجتماع أي قرار حاسم. القرارات لا يتم التصويت عليها، بل يعلن كل عضو في الدائرة العليا تأييده لصاحب مشروع القرار بشكل سري ومنفرد، ويعرض نوع المساعدات التي يمكنه أن يقدمها. وعلى بقية الأعضاء الرافضين للقرار العمل على تصحيح أو معارضة تنفيذه على أرض الواقع. الديمقراطية ليست الوسيلة المتبعة في إدارة الشؤون الداخلية للجمعية، بل منهج الطبيعة القائم على أن البقاء للأصلح والأكثر تكيفًا. وعجلة التطور يتم دفعها من خلال صراع الجميع ضد الجميع مع الحفاظ على اللائحة «صفر» في ميثاق عمل الجماعة. واللائحة نفسها غير معروفة بكل تفاصيلها للجميع لكن أهم بنودها الحفاظ على سرية بنيان الجمعية.

دولت شرحت لي الأمر بعد ذلك، اجتماع المجلس لم يكن سوى حيلة من بابريكا لتقوية مركزها ودعم أفكارها لتطوير القاهرة، كخطوة أولى في الطريق نحو ثورتها لتغيير مفهوم العمارة والبيئة في العالم كله.

الأمر كان أكبر من القاهرة، كان يخص صلب وجوهر عمل الجمعية، تصحيح مسار الإنسانية. لا أحد يعرف من هي بابريكا؟ ما هي أصولها؟ لديها دائمًا عشرات القصص والحكايات إذا جمَّعتها معًا سوف تكون كلها مُتضَاربة مع بعضها بعضا. لغز في صندوق مرمي في قاع المحيط منذ ملايين السنين. يقولون إنها كانت تعرف البناء الهندسي لأول شريط «دي.إن.إيه» تكوَّن في المياه ليبدأ مسيرة الحياة.

ترقت بسرعة في سلم الجمعيةِ، ودخلتها من خلال ترشيح كَاهن صغير من كهنة التبت. قدمت نفسها باعتبَارها خبيرة في العمَارةِ الخضرَاءِ، وأستاذة في مجال دراسات النوم.

أطروحات بابريكا كانت تتلاقى مع أطروحات بعض أعضاء الجمعية لكنها لم تكن الطرح الغالب، يمكن تلخيصها في فكرة بسيطة «إذا كان لدى الجمعية كل هذا الأرشيف والعلوم والمعارف المتراكمة على مدار تاريخ الإنسانية، وإذا كان الاحتفاظ به سرًا محاولة لحماية البشرية التي طالما استغلت المعرفة والعلم للضرر أكثر من المنفعة، فلماذا لا تقوم الجمعية بدور أكثر فاعلية في التأثير على حياة البشر وإنقاذهم من مصيرهم التعس، عبر قيادة قاطرة العالم على كل المستويات السياسية، والاقتصادية، والعلمية دون الحاجة لكشف جميع الأوراق، ومع الحفاظ على بنيان الجمعية كجوهر سري

إيهاب حسن كان يعتبر مثل هذه الآراء مبالغة من شأن وقوة الجمعية «حتى إن كان في مقدور الجمعية ذلك، فتنقية ودراسة كل أسرار المعرفة التي تراكمت على مدار عشرات القرون وبمختلف اللغات الحية والميتة، أمر ليس بالسهل» يقول إيهاب الذي طور أداء الجمعية نحو إنشاء ودعم الجامعات العلمية في مختلف أنحاء العالم كوسيلة للانفتاح التدريجي على العَالمِ، عبر تسريع عملية نقل المعارف والعلوم الإنسانية من أرشيف الجمعية إلى العلن.

هو يعرف أن التراث والأرشيف الكوني لخبرات ومعارف الجمعية موزع بين أرجاء الأرض كلها، وحتى إذا اجتمع كل أعضاء الجمعية الحاليين لن يجدوا الوقت في حياتهم للاطلاع عليه وقراءته، فما بالنا بالوقت الذي قد يحتاجونه لفهمه واستيعابه. لذلك كان يرى أن الأمل هو في الانفتاح التدريجي على العالم.

لكن بعد ما حدث في العراق بدا للكثيرين، خصوصًا أستاذ اللغات القديمة نيكولاي

براسو، أنه من الخطأ التوسُّع في خطط الانفتاح على العالم أو التخلي عن السرية. مَهَّد هذا لظهور أطروحة بابريكا الجديدة، يجب تصحيح المسار، يجب توسيع ميدان الصراع

القاهرة كانت البداية.

لا أستطيع أن أقر ما إذا كان ما حدث إيجابيًا أم سلبيًا، البشر، خصوصًا الشباب من حولي، يبدون أسعد مما كنا عليه في سنهم، صحيح أن بعضهم يكثر من تناول المخدرات، وآخرين يصابون بالاكتئاب وينتحرون، لكن اليأس المفاجئ والاكتئاب الداخلي أشياء يبدو أنها قدر الإنسانية جمعاء. في النهاية العجلة تدور، عملية الإنتاج تسير بانتظام، قوانين الفعل ورد الفعل تطبق بصرامة. يطيب لبعض المعالجات الصحفية تقييم النمو الذي حدث في العقدين الأخرين بمصر بالقفزة التي حققتها اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، يقولون «قفزة الأرنب من الهاوية» لكنهم لا ينتبهون إلى أن العالم كله قد أصبح شبيهًا بالقاهرة، لا مجال للتمرد، لا فضاء للعواء، الغابات تتم هندستها، الكوكب تقاس درجة حرارته بانتظام، والماكينات تحفر في أحشائه لاستجلاء المزيد من أسراره، الطواويس تخضع لرقابة صارمة، أعداد الحيوانات المُهددة بالانقرَاض يتم تحديثها ساعة بعد ساعة، حتى الفوضى تتحرَّك في مجالات محددة، أو تدخل في عملية الإنتاج كجزء من الماكينة الضخمة التي تعمل بتأنٍ وهدوء للحفاظ على التوازن وهندسة الكوكب.

حتى الفن خاضع لرقابة صارمة من قوانين سوق المال العالمية لدرجة أن التمرد الفني نفسه يتم تصنيفه كنوع فني يمكن المضاربة على أسهمه في السوق. أما هؤلاء الذين يفضلون الانغماس فيما هو استهلاكي أو يسعون للعب والعبث مع الميديا وقوانين السوق فهم القرود الفنية التي تضفي على المشهد شذوذًا طفيفًا ومحسوبًا يؤكد القاعدة والقانون ولا ينفي هيبته.

الفصل السادس

لا يعني هذا أنه لم تكن هناك أيام جميلة في القَاهرة، كانت هناك أيام ساحرة تتوزع على مدار السنة؛ بعضها في الصيف الطويل، والكثير منها في الشتاء القصير، وجميعها تشترك في أنها أيام عطلة أو تعطل. يقولون إن المدينة لا تنام، تنفجر من مخارجها. المدينة تتمحور. المدينة تتشعب. المدينة تنسكب وتندلع. النمل يجري في كل مكان، مصانع، شركات، مطاعم، مقاه، مساجد، كنائس. بشر يبيعون ويشترون ويتبوَّلون وعجلة الإنتاج دائمًا تسير رغم الزحام. هكذا يبدو المشهد من فوق إذا كنت نسرًا محلقًا، لكن إذا كنت شابًّا أو فأرًا صغيرًا يدور في عجلة الإنتاج فأنت في الحقيقية لا تتحرك من مكانك. تذهب إلى العمل وتنجزه، تتقاضى راتبًا قد يكون معقولًا كذلك. لكنك لا تحس أبدًا بالنتيجة وإذا حدثت فهي لا تحرك شيئًا. سواء عملت أم لم تعمل فالعجلة ستسير والتيار سيحملك.

أذكر مثلًا بعد حفلة يوسف بزي، ذهبت أنا ومود ومونى ومجموعة قليلة من الأصدقاء لشقة مود بجاردن سيتي، أكملنا السهرة حتى الصبَاح في تدخين الحشيش بطرق مُتعددة تبدأ بالدبابيس وتنتهي بالجوينتات، تسابقنا على إنهَاء زُجَاجة فودكا كَاملة. رأيت الموسيقى تتحول إلى قرود مُلتصقة بالسقف. كانت هناك فتاة ألمانية شقراء تهز ساقها اليسرى على الإيقاع. انتصابات متقطعة في البَلبل. شابُ أمريكي فلسطيني لا يتقن العربية ويتحدث كثيرًا عن العنصرية. دُخَان، سجَائر، حشيش، ثم دخان.

«كيكو» تلتفت نحوي عيونها غائبة تحت طبقات من اللون الأحمر:

ـ بسام.. دخان في عيني.

ـ سلامة عينك يا بيبي.

أتناول منديلًا ورقيًا، أضعه على عينها ثم أنفخ ببطء. الفتاة الألمانية تشاهد باستغراب، أزيح المنديل ومسام كفي تتشرب نعومة بشرة «كيكو» السمراء. أطبع قبلة خفيفة على

شفتيها. الألمانية تتحدَّث بالإنجليزي:

ـ هل تعلم أن هناك نوعًا من الفيتِش الجنسي، يُدعى فيتش لعق حدقة العين؟

ـ كيف يحدث هذا؟

مود يتدخل في الحديث:

ـ قرأت عن الأمر ذات مرة.

كيكو تبدي اعتراضها وهي تلف ذراعيها حولي:

ـ إيه القرف دا يا بيسو؟

ما الذي يفعله الشباب في مرحلة العشرينات في القاهرة؟

هل يلعق حدقة العين، أم يلعق الكس، أم يمص الزبر، أم يلحس التراب، ويستنشق الحشيش المخلوط بالأدوية المنوِّمة؟ وإلى متى سوف يظل أي فعل من تلك الأفعال الفيتشية مثيرًا ومجددًا، مُنشطًا للحيَاة. الجالسون الآن في هذا الغرفة، جربوا الكثير من المخدرات في شبابهم في المرحلة الْجَامعية وبعدها، لكن ها هم جزر مُنفصلة في الوقت ذاته لا يجدون معنى لأيامهم غير الاجتماع معًا، نعيش هنا على امتصاص البهجة من بعضنا بعضًا.

«مونى مي» واقفة بجوار السماعات، عيونها مُغمضة باتساع كأن روحها مع قرود الموسيقى في السقف، وجسدها تحركه الذبذبات الصوتية المتدفقة من السماعات.

لكن مع الوقت بدا واضحًا كم هي مُملة المخدرات. أو للدقة لا تكفي. وإذا ترك الواحد منّا نفسه يقع حتى النخاع في حب المخدرات، فحياته ستنتهي في أشهر معدودة. هذا ما يقوله العلم والتجربة. نحن الباقون في هذه الغرفة أجبن من أن ننهي حياتنا بهذه الطريقة أو بأي طريقة أخرى، ربما لأننا معلقون بالأمل، مربوطون بالمحبة، بالصداقة.

مقابل كل ما تفعله القاهرة في قاطنيها، لا تمنحهم سوى صداقات حتمية موثقة لا بحرية الاختيار بل بضرورات القدر. يقول القائل «يا ذاهب إلى القاهرة، ستجد فيها مثلك». لا معنى لأن تدخن وحيدًا، ولا طعم للطعام إذا لم يكن هناك من تنظر لوجهه

تتأمَّل حركة فمه وهي تلوك المواد الغذائية المسرطنة ببسمة رضا.

المحظوظون في هذه المدينة الذين يتجاوزون مرحلة الكبت الجنسي، يجدون نفسهم في مسافة لا يمثل فيها الجنس إلا فرعًا صغيرًا من فروع الصداقة. يتحول الجنس إلى ما يشبه اللبوَنة الدائمة. «كيكو» تداعب ظهري، وأشعر بالإثارة بين فخذي.

وحينما اقترب الفجر دخل مود حجرته، ذهب الجميع إلى منَازلهم، بينما تَكاسلت أنا عن العودة لـ 6 أكتوبر وفضلت النوم على الكنبةِ، استيقظت مُبكرًا شاعرًا بالصدَاعِ الخفيف، نمل يسير بين الجمجمة والمخ دبيب أقدامه يهيِّج الخلايا العصبية. دخلتَ الحمام وتناولت واحدة من حبوب مود التي يستوردها من الخارج لمقاومة «الهنج أوفر»، أخذت حمَامًا طويلًا بالمَاء الدافئ، أجريت اتصَالًا تليفونيًا بينما أرتدي ملابسي، تواعدت مع السيدة ملعقة على الإفطارِ في مطعم توماس بالزمالك.

في الطريق كانت الشوارع مَغسولة وخَالية من السيارات والمارة، اليوم عطلة ربما هو رأس السنة الهجرية، أو عيد النصر، أو عيد الثورة، أو عيد قرموط البحر. المهم أن المدينة كانت خَاملة والبشر في غفوة قصيرة. لا أعرفها في تلك اللحظات، وحينما أقطع المسافة من شارع قصر العيني إلى الزمالك في أقل من 20 دقيقة، أشعر كأنها تتودَّد إليَّ فجأة، تبتسم ابتسامة ماكرة. بين السطور أقرأ صوتها «في أي لحظة قد أتركك محشورًا في إشارة مرور لأكثر من ساعة، لا شيء تفعله سوى تذكر أحزانك وهواجسك، بينما طاقتك تمصها الضوضاء، وعمرك يتسرب ببطء" شرايين مفتوحة يهطل الدم منها في البانيو.

تقابلت مع السيدة ملعقة أمام باب المحل، حضرت مرتدية فستانًا طويلًا أبيض يكشف ذراعيها وجزءًا من صدرها، قبَّلتني على الوجنتين:

ـ رائحتك جميلة.

ـ استعملت عطر مود.

أحببتها بسبب رقبتها، تكبرني بنحو 9 أعوام لكنها مع ذلك تحافظ على شبابها، تمارس الرياضة بانتظام، وتتناول الطعام الصحي، جميلة، مرحة، نَاجحة مهنيًّا في مهنتها بشركة الإعلانات، لكنها مسيحية من طائفة البروتستانت، وللأسف تحب مصر بالتي فرص ارتباطها بشخص من نفس القَائمة أو الطائفة يرغب في الإقامة بالقاهرة ضعيفة.

درست في الخارج، ثم قضت فترة طويلة من حياتها خائفة من الزواج والارتباط الأبدي، أحيانًا تشتاق إلى الأبناء. تَعودت على مُصَاحبة الرجَال الأكبر منها في السن، لكن فجأة لم يعودوا يهتمون بها، ومن يهتمون بها لا تهتم هي بهم، كانت هذه أول مرة تصاحب شخصًا أصغر منها، وكانت تشعر بالخجل حينما تصرح لأصدقائها بعلاقتنا.

اسم «السيدة ملعقة» أطلقته عليها «مونى مي». شاهدتها مرة في إحدى الحفلات الموسيقية وكانت تضع في أذنيها حلقًا على شكل ملعقة.

الحلق نفسه كانت تضعه الآن وكان يهتز مع حركة يدها وهي تقطع الخبز بالسكين. حلقي جاف، ومع ذلك أواظب على التدخين منذ الاستيقاظ، للسجائر طعم مختلف مع رائحة هواء الصباح في الزمالك. طعم يشبه البهجة، الشوق، النعومة، البنفسجي، البرتقالي.

تناولنا إفطارًا مكونًا من البيض بصحبة شرائح من أجود أنواع لحم الخنزير المستوردة، عسل ومربى، عصير برتقال، ثم ها أنا إنسان جديد. يقول الشاعر «إنت مش إنت وإنت جعان». كأنما أفيق من النوم على بسمتها، أستيقظ تحت فراش أبيض في مطعم توماس.

تمشينا في شوارع الزمالك باتجاه بيتها، حول قدمها سلسلة رفيعة فضية. أظافر قدميها مطلية باللون الأحمر، أحيانًا نمشي متشابكي الأيدي، وأحيانًا أحيط خصرها. تحت ظلال الأشجار نضحك. نبتسم لعساكر الحراسة أمام السفارات المختلفة، لكن تجهمهم لا يتغير.

أفكرُ.. هل أحبها؟

بالطبع أحبها، لا أستطيع أن ألمس امرأة لا أحبها. ثم ما الحب؟ إنه فقط انشراح في القلب، سكينة في الروح، دفء في المعدة. مثل كل حب في القاهرة مُعرّض دائمًا للزوال. محب للرفقة.

في شقتها، دخنا سيجارة حشيش. داعبت ركبتها وهي تعبث بالكمبيوتر بحثًا عن أغنية قديمة لمادونا، رفعت الفستان إلى ما فوق ركبتها ثم نزلت على الأرض. جلست بين فخذيها، ثم رفعت قدمها، أخرجت لساني من بين شفتي ومددت طرفه ليلمس بشرة إبهام قدمها، ثم مشيت بطرف لساني في نقرات متباعدة على جلد ساقيها، حتى وصلت لركبتها

وأخذت أقبِّل النتوءات البارزة من صابونة الركبة، ضحكت وهي تقول بالانجليزية «بيزغزغ»، فقبلت ركبتها ثم أكملت رحلة لساني على فخذها. طبعت قبلة كأثر فراشة على قماش كيلوتها ذي الخيوط الرفيعة، ثم سحبته بيدي. غطست بلساني داخل كسها. شربت كثيرًا تلك الليلة شربت حتى شعرت بالعطش. أوصلتها أول مرة بلساني في وصلة كاملة من المص بلا انقطاع، ثم دخلنا إلى غرفة النوم ومارسنا الجنس ببطء وتمهل. منحتني ظهرها، وضعت أصابعي داخل فمها، بللتها بلعابها ثم وضعت إصبعي داخل كسها. تزليق ومنزلقات. أدخلته من الخلف. أمسكت شعرها القصير وجذبته ناحيتي. رهزتها بعنف ثم ارتميت فوقها لثانيتين أو أكثر. قمت من على السرير ونزعت «الكاندوم» ورميته مُلوثا في سلة النفايات. ابتسمت لها، رن جرس الموبايل.

ـ ألو أنت فين يا مان؟

ـ مونى.. ازيك، أنا في الزمالك.

ـ طيب مش عايز تشرب بيرة الغروب.

ـ ممكن..

ـ أنا معايا سميرة ورايحين المقطم.

ـ معاكم عربية يعني؟

ـ آه.

ـ طيب ما تعدوا عليا في الزمالك.

ـ إمتى؟

قامت من على السرير وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة. الجنس الآن انتهى، تتبقى على الوجه المودة، لوحة الصداقة وطيبة القلب، في الخارج يأكلون بعضهم بعضًا فلمَ لا نكون أكثر لطفًا مع بعضنا.

ـ نقول ساعة مثلًا.

ـ خليها ساعة ونص مثلًا، عند ديوان.

ـ أوكيه.

ـ باي.

ـ مع السلامة.

أخذت دشًّا سريعًا، ثم قبلتها ويدي تودع مؤخرتها بلمسة امتنان ربما. خرجت إلى الشارع وشعري لا يزال مبلولًا تمشيت إلى مكتبة ديوان وأنا أدندن إيقاع الكلمات الثلاث «أوكيه.. باي.. مع السلامة».دخنت سيجارة وأنا أتمشَّى أمام واجهة مكتبة ديوان التي احتلتها مجموعة من الكتب الإنجليزية الرديئة تحقق أعلى المبيعات في المطارات ومحلات البقالة السريعة تترك الدهون في العقل وتبقع القلب بالزيت، قريبًا سوف يبيعون مع هذه الكتب قطع دجاج كنتاكي. حاولت الاتصال بمونى لكنها لم ترد ثم ظهرت من نافذة سيارة سميرة، رأسها ويداها خارج النافذة، الهواء يطيِّر شعرها وإن كنا لا نعرف هل هو الهواء أم صوت الموسيقى العالية المنبعثة من الراديو. الأعلام ترفرف، والسيارة تقف، أركب من الباب الخلفي، وأسلِّم باليد على الاثنتين.

لكي نذهب للمقطم كان يجب أن نعبر أشلاء المدينة القديمة، على غير العادة لم يستغرق الطريق من الزمالك إلى شارع عبد الخالق ثروت أكثر من سبع دقائق، في يوم معتاد قد نقضي ساعة ونصف الساعة حتى نصل إلى مطلع كوبري الأزهر في نهاية شارع عبد الخالق ثروت، لكن في يوم غير عادي مثل اليوم تبدو القاهرة وكأنها توزع الهدايا على السائرين في شوارعها.

الفراغ الذي يظهر في الشوارع نتيجة قلة «الرِّجْل» في أيام الإجازات. يُظهر الشوارع خصوصًا في منطقة وسط البلد بمظهر وشكل جديدين. مونى ترتدي جيب قماشي خفيفًا وطويلًا. أرفع رأسي بين الكرسيين، فأشاهد ساقيها، حيث رفعت الجيب لتكشف ساقيها ووضعت عليها ورقة مقطوعة من مجلة وقد أخذت تفرك التبغ وتلف سيجارة حشيش. ركبتها تلمع أسرح فيها غير مُنتبهًا، سميرة ترفع صوت الموسيقى حيث جيتار جيمي هندريكس يتألم كفرخة تبيض بيضتها الأولى. أفتح النافذة ونحن فوق كوبري الأزهر، يُخيل إليَّ للحظة أني أشم روائح كمون وفلفل وبهارات. نهبط من فوق الكوبري إلى منطقة الحسين، فأشم رائحة بن محروق، دون أن أكون خبيرًا أعرف أنه بن رديء، لكن مع ذلك رائحته تملأ أنفي. في المقابر بين بيوت مدينة الأموات نسير ورائحة الكبدة المقلية

في زيت السيارات تنتشر في الجو كسحابة ممطرة. نصعد من صوف [illegible] القاهرة حتى سفح هضبة المقطم.. جلسنا في بار فرجينيا وطلبنا بيرة.

تحدثنا فقط عن الأمور والمواضيع المبهجة، الأفلام الجيدة التي [illegible] الموسيقى المثيرة التي استمعت لها، المزيد من قصص الغرائب والعجائب في حكايات سائقي التاكسي مهرِّجي المدينة.

الشمس في طريقها للغروب، والقاهرة مَبسُوطة كرقعةٍ، صورة ثُنَائية الأبعاد من «جوجل إيرث». وسط ركام الأطباق اللاقطة، والبيوت البشعة، والأبراج العالية تظهر واحدة من بركها القديمة. بقعة مياه صغيرة، آخر ما تبقي من برك سبق أن تركها النيل في المدينة قبل أن تتم عملية ختانه بالسد العالي في الستينات، صوت محمد محيي في الخلفية يغني أغنية قديمة للريس حفني أحمد حسن.

تهب نسمةٌ خفيفةٌ، الندى يتكثَّف على الزجاج الخارجي لزجاجة البيرة الخضراء، قطرات من المياه تبلل اليد عند إمساك الزجاجة، مُصَافحة بالسوائل موثقة بالمحبة بين البيرة وشاربها.

سميرة تعبث في الموبايل، مونى تمسك زجَاجتها، نقرع الزجاجتين في بعضهما بعضًا. بسمتها، خصلة من شعرها يطيِّرها الهواء، القاهرة في الخلفيةِ وقت الغروب. للحظات قليلة أشعر بما يشبه السعادة.

الانتقَام لا ينتمي للعصورِ الحديثة 2

زُرت المخبأ السري المدفون تحت مَجرى النيل أمام كورنيش جاردن سيتي مرتين. الأولى مع إيهاب حسن فقط، والثانية مع إيهاب ودولت بعد بدَاية العَاصفة في مُحَاولة للاحتماء منها ومن عشرات الأرواح الشريرة التي تطاردنا في شوارع القاهرة، كنت أنا وهو ومدام دولت.

المكان سري حتى على الكثيرين من أعضَاء المنظمة. جزء من فَلسفةِ الجمعية ـ هي في الوقت نفسه مُنظمة لا أعرف الفارق بين الكلمتين ـ هو الحفاظ على المعرفة موثقة لكن في الوقت ذاته موزعة، مجزأة، مفرقة، وبذلك تظل الأسرار المعرفية والعلمية للمنظمة التي حفظت على مدَار التاريخ، موزعة في مُختلف بقَاع الأرض، لا يمتلك أحد إدرَاكها كَاملة فتظل قوتها / ثروتها موزعة إلى الأبد. محفوظة ومكشوفة لكن غير معلوم مكانها، موجودة وموثقة وتتطور لكن لا يمكن إدراكها مجتمعة، نورها يغشى الأبصار.

إيهاب مثلًا يعرف المقر السري من خلال وثيقة عن إنشاء نظَام الصرف الصحي في القَاهرةِ، والهوس السري لإحدى مدَارس العمارة السرية في الجمعيةِ والمتمثل في إنشاء شبكات مُعقدة تحت المدن من الممرات والمتاهات السرية التي تؤدي فقط إلى غرف، مصمتة ولا توصل ببعضها بعضًا. الكثير من هذه الممرات والشبكات اختفى مع مرور الوقت؛ بعضها انهار، بعضها غرق في المياه الجوفية، لكن بعضها ظل موجودًا. وحينما وصلت هذه المعلومات إلى أحد كبار أعضاء المنظمة في الخمسينات كون منظمة شقيقة وسرية في الوقت ذاته مُهمتها رعاية وجود مثل هذه الممرات تحت بعض المدن الكبرى، القاهرة، ضواحٍ فرعية في لندن، واشنطن دي.سي، ريو دي جانيرو، بعض أحياء نيويورك خارج جزيرة مَانهاتن، بورسعيد، سانتياجو. وغيرها. إيهاب يعرف كل ذلك، لكن ولا

شخص من المجلس الإداري للجمعية بمن فيهم بابريكا يعرف بأمر هذه الحفريات المشهور منها كتلك الموجودة تحت مقابر شوارع باريس.

في المرة الأولى حكى لي إيهاب حكايته شبه الكاملة بداية من الجد فيلسوف بحيرة والتجسيد المثالي لمجانين ومهاويس عصر النهضة المصري - هكذ يسمونه بكل هص وتفاهة - وحتى موقفه الحالي كرئيس إداري للمنظمةِ يقود حربًا يرى خسارة جبهته فيها كارثة بالنسبةِ لكل ما سبق وما سيأتي، لم أفهم لماذا يخبرني بكل هذا، وحينما صارحته بذلك قالها ببساطة من يفرك قشر سوداني:

ـ لأنك شخص ذكي، خارج المنظمة ومحل ثقة.

طلبه ببساطة كان:

ـ أريد أن أنشئ موقع إنترنت.

بعد محاولات طويلة من الشرح، طلب أن يكون الموقع أشبه بموقع «ويكيليس»[19]، ولم أكن أحتاج لكثير من الذكَاء لأسأله:

ـ أتريد أن تكشف الستار عن المنظمة؟

ـ أتريد أن تلعب مثل هذه اللعبة معي؟ أعني أنت شاب ملول نعم، لا مبالٍ بالطبع، لكن على الأقل لديك رغبة في أن تكون لديك حكاية لتقصها؟

قبلت العرض ربما لأني فعلًا كنت أخاف أن أعبر الخامسة وعشرين قبل أن أمتلك حكاية كبيرة يمكنني أن أقصها، تمر حياتي كأنها لون واحد، لون السأم. اللعبة كانت بابًا جديدًا فُتح في مسار حياتي، والإثارة الناجمة عنها كانت كفيلة بمنحي قدرًا من الطاقة يعينني على ما ليس لي به طاقة.

مونى كانت تثرثر في ذلك الوقت معبرة عن مدى قرفها من عملها في شركة البرمجيات المحلية التي تعمل بها، عرضت عليها الأمر كسبوبة مَحتملة. إيهاب وعد أنه سيدفع، كاش ومن حسابه الخاص، مونى تذمَّرت في البداية:

(19) موقع إلكتروني ظهر في الفترة السابقة على «العاصفة» تخصص في نشر الكثير من الوثائق العسكرية التي تخص الجيش الأمريكي وعملياته في حرب العراق.

ـ يا مان أنا مبشتغلش مواقع، أنا آي. تي. فاهم يعني إيه آي. تي.

ـ بس إنتِ عملت مواقع؟

ـ زمان بقه أيام الجامعة.

ـ طيب تعالي قابلي الراجل، وأهوه معرفة وخلاص.

أجزم القول بأن ملامح الانبهار والدهشة التي رأيتها على وجه «مونى» في أول زيارة لإيهاب حسن كانت أفشخ علامات وآيات الانبهار التي رأيتها طوال حياتي على وجهها، لا أشك أنها قد وقعت في حبه من النظرة الأولى، إيهاب أيضًا كان يبتسم من فترة لأخرى وأخرج أعتق زجَاجة نبيذ رأيتها في حياتي، كان هذا وحده كفيلًا بمداعبةِ بظر مونى باللسان.

«أنا أصرخ من الإثارة» تقول بصوت نائم في العسل.

أنا أحتَاج أيضًا للإثارة، ولا أشعر بها حتى لو قَام أحدهم بمص زبي، أحتاج لمنبع إثارة آخر، أحتاج أن يحفر أحدهم بئرًا جديدًا في جسدي، يكشف الطبقات عن حَاسة مَطمورة تحت الجلد و سأم وبيضان إيقاع الوقت. أحتاج لإثارة «مونى مي». لا أصدق ما يقوله ولا أكذبه، لكن ما يقوله إيهاب نسَائم تداعب وجهي، أري أشياء جديدة في الأفق.

"لنتبع الضوء ونحترق كالفراشات يا بيسو" تقول مونى.

قبلت مونى العودة إلى هوايتها القديمة في تَصميم المواقع، بالطبع قَابلت إيهاب كثيرًا دون وجودي، بالطبع نَشأت بينهما علاقة. هل شعرتُ بالغيرة؟

بالطبع لا كان الأمر جميلًا وسَاحرًا لدرجة جعلتني غير مهتم إلا بتلك السعادة التي تشع من وجه الاثنين حينما أقابلهما، كانت رؤية شهيتها مفتوحة على الحياة تبعث في نفسي قدرًا من التفاؤل، أقول لنفسي «سأنجح يومًا ما، سأصير ما أريد».

أحيانًا فقط كنت أتمنى أن أكون شريكًا في هذه العلاقة، ضلعًا ثالثًا.

الأمنية نفسها كنت أتمناها مع ريم وبابريكا، رغبت فقط أن أكون موجودًا بينهما، شعرت لأول مرة أن هذا النوع من العلاقات ذات الطرف الثَالث المُعلق على الخيطِ

الرابط بين ما هو واقع وما هو مُتوهَّم هو نوع العلاقات التي ترضيني، هو نوع الحب الذي طالما رغبت فيه.

عندما قابلت ريم لتخبرني بموضوع الفيلم الثالث المطلوب تَنفيذه، شعرت لأول مرة بأن الجمعية قد أكلت حياتي كاملة، وأن حياتي كلها ما هي إلا سر، لغز، شبكة متاهات تحت القاهرة صممها قديمًا أحد معماريي الجمعية.

***

هذه المرة تقابلنا في فرع مقهى سيلانترو بالدقي، المفاجأة الأولى كان حضورها وحدها مُنفردة دون بابريكا، المفَاجأة الثانية كان ارتداءها وشاحًا أحمر فوق رأسها عرفته بعد ذلك بالحجاب، المفاجأة الثالثة فيلم 45 دقيقة عن حياتها هي ريم السعيد.

طلبت سيجارة من علبة سجائري «أصلي بحاول أبطل تدخين»، أشعلتها من ولاعة خضراء كانت معي، نفثتْ دخانها بعيدًا والنادل يرفع القهوة من على الطَاولة.

حفني أحمد حسن[20]

يُحفظ الجزء الأهم من أسرار المنظمة عن طريق التوارث الشفهي لا بين كل أعضاء الجمعية، بل بين كل معلم ورفيق. لا يوجد في الجمعية تلاميذ أو طلاب، لا يوجد في المنظمة أعلى وأسفل. فقط مُعلم ورفيق ولا تحكم العلاقة معَايير السن فقد يبلغ المعلم 21 عامًا والرفيق 60 عامًا.

آرثر رامبو، الشاعر الفرنسي كان صغير السن حينما انتقل إلى إثيوبيا لكنه كان مُبتكرًا لأحد أهم أسرار الجمعية الفكرية، وبالطبع لا يعلمها إلا قلة ليس بينهم إيهاب مثلًا، لكن بابريكا تعرفها، مدام دولت تقول إنها أشياء تخص البناء الكيميائي لعمارة الغابات، وكيف يمكن التحكم بها وتطويعها من خلال يقظة الوعي تحت تأثير تركيبات مخدرة تستخرج من النباتات.

الجزء الثاني من أرشيف المنظمة موزع على قسمين، القسم الأول وثَائق ومَخطوطات مَكتُوبة منذ قديم الأزل بعضها بلغات ميتة والبعض الآخر بلغات حية، بعض النسخ من تلك الوثائق موزع على متاحف مُتناثرة في أنحاء العالم، ورغم أنها مُتَاحة للجميع، لكن تظل اللغة المكتوبة بها مجرد نقوش مُبهمة للغات قديمة لا تُعرف شفرتها. لكن الجزء الأكبر منها محفوظ في مكتبات متناثرة في أماكن متعددة أحيانًا مجهولة ومطمورة تحت التراب أو الماء لكن هناك حراسًا قائمين على رعايتها.

---

(20) مغنٍ شعبي مصري، معروف بغنائه للملحمة الشعبية «شفيقة ومتولي» التي تدور أحداثها في نهايات القرن التاسع عشر حيث الأخ يقتل شقيقته وفاءً لقيم الانتقام للشرف العائلي والعسكري. كما سبقت الإشارة كان هذا في الماضي، حيث اليوم الانتقام لا ينتمي للعصور الحديثة.

القسم الثاني عبارة عن وثائق مكتوبة ومنشورة بعضها بأقلام بعض أعضاء منصمة معظمهم شعراء، روائيون، علماء اجتماع، أساتذة عمارة، فنانون، نخبة من الإنتجنسي التي تُحَافظ على عضويتها للجمعية سرًا لا يمكن الإفصاح أو التلميح عنه. بعضه مكتوب بأسماء مختلفة أو منسوب لشخصيات أخرى، رسائل إخوان الصفا، قصائد العلاء المعري، قصص الأخوان جريم، ملحمة ذي القرنين بروايتها الماليزية، عوليس جيمس جويس... القائمة تطول وتقصر وتتوه في الذاكرة.

هذا النسق شبه السري الملغز في تكوينه وطريقة إدَارة الجمعية لم يكن نوعًا من الرفَاهية بالنسبةِ لأعضَاء الجمعية، بل جزء من جوهر وجودها، وعجلة أسَاسية من العجلات الدافعة لتحقيق أهدافها.

لقد آمن أعضاء الجمعية طوال تاريخها بأن هناك فروقًا دائمة بين البشر وتفوقًا عقليًا لدى بعضهم، وبأن هناك دائمًا مَجموعة من البشر يجمعهم مستوى مُحدَّد من الذكَاء وسعة الأفق يقودون الباقين دائمًا للوصول إلى أفكار سابقة لعصرهم، وباستطاعتها تحقيق السعادة والهناء لكل البشرية. لكن المشكلة أن البشرية يسود فيها نوع آخر من البشر يتحكم فيهم الخوف من كل ما هو مجهول وكل ما هو غريب، وهذا النوع من البشر دائمًا ما يكونون عقبة لا في طريق تطور البشرية، بل أحيانًا في وجود مثل هؤلاء البشر غير محدودي الأفق.

هناك أسطورة اختلقها مرة أحد أعضاء الجمعية وهو جراح بريطاني في القرن التاسع عشر تنسب له الجمعية ابتكار جراحات نقل الأعضاء وعمليات القلب المفتوح، وهي الجراحات التي ظلت سرًّا لم تخرجه الجمعية إلى البشرية إلا بعد ذلك بعقود طويلة.

يقول هذا الجراح الذي قضي السنوات الأخيرة من عمره في مقاطعة ما جنوب الهند. «الأسطورة طبعًا مجموعة أكاذيب لا نؤمن بها لكن سنجد دائمًا داخلها الكثير من الإشارات والرموز التي تفهمنا الكثير عن سبب وجودنا نحن أعضاء الجمعية، لنتخيل الإنسان الأول الذي قرر للمرة الأولى أن يقود قطيعه الصغير من البشر للاختفاء في أحد الكهوف الحجرية. لنرى الآن كيف تتغير حياة هذه المجموعة بشكل كلي. لنشعر بهذا الدفء الذي سيولده البعد عن الرياح في الخارج، وحرارة الشمس التي اختزنتها الجدران لتخرجها عند الليل. هذا الدفء جديد تماما على هذا النوع من الكائنات، هذا الدفء

سوف تعرفه البشرية بعد ذلك بقرون طويلة بكلمة أخرى وهي الأمان.

هذا الرجل وقد يكون امرأة بالمناسبة، ليس أقوى مَن في المجموعة، ليس أكثر الصيادين مهارة، بل جسمه ضئيل ضعيف، لذلك هو أكثر من يشعر بالبرد ليلًا، أكثر من يشعر بالخوف من هجوم الضواري والحيوانات المتوحشة، لكنه أيضًا مُختلف عن أي كَائن آخر ضعيف في المجموعةِ، شيء ما في تركيبه العصبي ربما، شيء ما في تكوين ذَاكرته، شفرة مُختلفة في شريطِه الوراثي، قفزة طبيعة، أو مصادفة مُنظمة، قادته إلى اكتشاف المبيت في الكهف. الذي سيُعرِّف جميع أعضاء جماعته على المعنى الأول لكلمة الأمان.

لن تنظر تلك الجماعة البدائية لهذا الكائن ضعيف البنية على أنه بطل أو حاكم، هو ليس السلطة السياسية أو الملموسة، بل هو السلطة اللا شعورية التي ستعرف بعد ذلك بالكثير من الأسماء هو الساحر، الكاهن، العَالم، الشاعر، المسرحي، الكاتب المفكر، الرياضي، الطبيب، لكن الأهم وقبل كل شيء أن الجماعة حينما سكنوا الكهف زاد عددهم بعد أول عام، واستكملت الزيادة في العام الذي يليه، وفي مرحلة ما لم يعد الكهف مُتسعًا بما يكفي، كان أول من حاول توسيع الكهف من الداخل، أو بناء امتداد خارجي له، كان هو المعماري الأول، الأب الذي خرجوا منه جميعًا. ضمير الجمع هنا طبقًا للأسطورة يعود على جميع أعضاء الجمعية».

أما السرية فقد كانت شرطًا جديدًا تمت مناقشته للمرة الأولى داخل شوارع مدينة طيبة زمن تأسيسها، وبعد قرون طويلة من القلاقل والاضطرابات، تم تفعيله في الأشهر الأخيرة قبل حريق مكتبة الإسكندرية.

كجينات سرية، انتقلت أسرار المعرفة بين أفرادها، نمت المعرفة عامًا بعد عام، بعضها خرج للفضاء البشري وأكثرها لم يخرج، أحيانًا كانت تحدث قفزة غير متوقعة، الإنترنت مثلًا لم يخرج من عباءة الجمعية، تطوير التلفزيون كذلك. بعض أعضاء الجمعية كانوا ينسون أنهم أعضاء فيها، أحيانًا كانت الجمعية هى من تنساهم، لكن فجأة يظهر مندوب ما، يدق بابك، أو يرسل رسالة نصية قصيرة على الموبايل، يضع يده على كتفك في المترو، يقترب من أذنك ويهمس بجملة قصيرة لن تزيد في معظم الأحوال على ثلاث كلمات، يبتسم المندوب وعيونه تشع بدفء المحبة.

أهم أسرار الجمعية هو كيفية بث الأمان. سوف تشعر به حينما تصافح أحدهم. سوف يهبط الثقل من على كتفيك، وستشعر بالرغبة في النوم. كطفل صغير يعود مرة ثانية إلى رحم أمه.

الجري في المكان، الجري في الزمن. ستجده أمرًا لا داعي له. ثم من رفيق لرفيق ينتقل جزء من الفكرة، قدر من المشاعر، خبرية من الخبريات المعرفية.

عن أثر الماضي على المستقبل

دخلتُ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية تأثرًا بوالدي الذي توفي وأنا في المرحلة الثانوية تاركًا لى مكتبة غرائبية، تتألف من أعمال هيكل وكتابات شيخ الأزهر عبد الحليم محمود، وفي المرحلةِ الأخيرةِ من سنوات الجامعة توصلت إلى خلطة تتكون في جوهرها من قراءتي لأعمال حنا آرندت وفوكو -الاثنان للأسف لم تكن لهما أى علاقة بالجمعية - ربما كنت أتمتع بالحدس الصائب الذي عوّضت به عدم نضج البصيرة، لكنني رأيت مبكرًا أنه لا أمل. كان هذا هو الدرس الأهم الذي تعلمته من الاثنين آرندت وفوكو.

في نهاية الألفية الأولى بدا أكيدًا أن الإيديولوجيا قد ماتت لتحل محلها الثقافة، والسياسة تحولت إلى علم الإدارة. لا أحلام بتحقيق المستحيل في ذلك العصر. بدا واضحًا بالنسبة لي ولآخرين أنه ما من أمل، والألم هو قدر الإنسانية، لا نستطيع إيقافه أو القضاء عليه نهائيًا. نستطيع أن نبني سدودًا، لكنها سرعان ما ترشح، تصيبها الشروخ وتنهار بكل بساطة كغشاء فقاعة صابون تنفثئ.

لهذا فقد تفهمت كثيرًا الأسباب التي دعت أعضاء الجمعية للحفاظ على سريتهم. حتى نجد وسيلة يمكننا بها القضاء نهائيًا وبشكل لا رجعة فيه على الألم، يمكننا فقط حينها أن نعلن عن أنفسنا، ونقدم منجزنا كاملا.

ليل أكتوبر في الخارج. الصمت يقطعه فقط صوت الموسيقى العالية منبعثة من سيارات يقودها شباب يريد أن يكون أسرع، اعتقادًا منه أن هذا يمنحه مقدارًا أكبر من المتعة.

بالأمس كنت واقفًا في أحد محلات السوبر ماركت القريبة أشتري زجَاجة شطه، كيس خبز، وسجَائر، لفت انتباهي تقريرٌ مصوَّرٌ يُذَاع على التلفزيون..

شهدت المنطقة الإعلامية حادثة تفتح مجموعة من الملفات كمستقبل التكنولوجيا البيوميكانيا، وقوانين الحفاظ على الاستقرار الديمغرافي.
كريم عبد الرحمن، عامل بسيط يعيش مع زوجته في منطقة بمساكن الزلزال.
متجوزين ليناه سنين، كريم كان نفسه في عيل يشيل اسمه.
شغله في المطابع، وكلها هنا في أكتوبر.
قالوا لنا علشان نخلفوا في أكتوبر، لازم يكون عندكم شقة أكبر من ٥٣ متر، فكان بيشتغل ليل ونهار عشان ننقل ونخلف.

زوجة الضحيـة كريم
عندك فكرة كريم كان **بيشتغل إيه**؟
كان بيقول إنه بيشتغل في مطبعة كبيرة، بس مكنتش.. إهيء إهيء.. **مكنتش أعرف.**
ما لم تعرفه زوجة كريم أن زوجها كان يعمل في مطبعة تستخدم التكنولوجيا البيوميكانيا

إحنا بإذن الله بنحافظ على أعلى درجات الأمان. المطبعة عندنا هنا من أهم مطابع الشرق الأوسط.
العامل بيجي
نظامه العصبي بالأجهزة من ألياف عصبية متوصلة بالنخاع الشوكي، والمخ مباشرة.
جميع العمال بيخضعوا لنظام
تف دوري للتأكد من سلامة جهازهم العصبي والعقلي.
سئول التأمين البيولوجي بالمطبعة

التقرير الطبي يشير
إلى إصابة كريم بلوثة عقلية، هيأت
إمكانية إقامة علاقة شبه جنسيه
الطباعة، و
دافعت
مؤخراً مكنش مضبوط. كان
بياخد شفتات كتير،
وكان ممكن يقعد مع المكنة
بالعشر ساعات.
زميل للضحية كريم
..مما أدى إلى تدمير النظام العصبي لكريم،
حملت أخر مجموعة من الأوراق أخرجتها
المطبعة، أخر ما كان يردده
أريد أن أنيكك حتى الموت
أريد أن أنيكك حتى الموت
أريد أن أنيكك حتى الموت
أريد أن أنيكك حتى الموت
أريد أن أنيكك حتى الموت
أريد أن أنيكك حتى الموت
منهم لله..
حسبي الله ونعمة الوكيل،
حسبي الله ونعمة الوكيل.

لا حول ولا قوة إلا بالله.
عبوة توفير

الفصل السابع

توزَّعت الحياة الليلية للقاهرةِ بين عدة مجَالات؛ السهرات المنزلية، وجلسات المقاهي على الكراسي البلاستيكية الرديئة ودخان الشيشة المخلوط بالجلسرين، والمشي في الشوارع حتى الإعياء، والنوم أمام التلفاز، وممارسة الاستمناء أمام شاشات الكمبيوتر، والعمل، والكباريهات، وبعض الضوضاء المنبعثة من البارات ونوادي الموسيقى.

البيرة ثم البيرة فالبيرة.

صديقٌ لمود كان قد عاد من الخارج وعلى جواز سفره سمحت له الحكومة بشرَاءِ أربع زُجَاجات خمر، حسبما يُحدِّد القَانون المصري، تَبرَّع بواحدة منها لسهرة الليلة، بعد زُجَاجة البيرة الأولى كنا في نادي القاهرة للجَاز، أخرج الصديق زجاجة التكيلا. بدأنا في إعداد الطقوس لكن «مونى» لم تكن في أروع حالاتها. الإضاءة خافتة. الفرقة الموسيقية المتخصصة في عزف وغناء الأغاني الغربية القديمة تستعد. مود يحكي عن مشاكل العمل. «أقول لك هذا بلد ضائع يستحيل أن تفهم قوانينه». صاحب زجاجة التكيلا يدعى «عماد» مصري-كندي يعمل في أحد البنوك في الخارج. مونى مي تعبث في تليفونها المحمول. كيكو تهز رأسها مع الموسيقى. فتاة أخرى من طلبة الجامعة الألمانية تبدو مُندهشة من كل ما حولها «ما الذي تشربونه؟ لماذا يجب أن أضع الملح على يدي؟» وعماد صاحب زجاجة التكيلا يجاوبها «هذا عصير الصبَّار سيدتي، والملح يمنحنا الصبر والسلوان».

أسأل الفتاة ذات الأصابع المصبوغة باللون الأسود:

ـ ماذا تفعلين في حياتك يا حلوة؟

ـ أنا أدرس تصميم جرافيكي بالجامعة الألمانية.

مود يتدخَّل في الحوار «هي اللي صمِّمت بوستر (لا) اللي شفته في المظاهرة». أي

مظاهرة وأي (لا)؟ لا يهم، المهم البوستر. في هذا الزمان كانت الْمُظَاهرات بوسترات، والنشاط السياسي عناوين جرَائد، أو تقَارير إخبارِية مصورة، دقائق ساخنة على شاشة الفضائيات، شباب منفعل في زحام مفتعل.

تشعل سيجارة وتندمج في حديث سياسي. «كوكي» بجواري لبوة يحرقها الملل. وفتاة المظاهرات تنفعل أكثر وقد استفزها عمَاد لسبب ما، تتحدَّث عن الفقر والجوع «أنا زرت مكان اسمه عزبة عنتر، يستحيل تتخيل الفقر والمعاناة في عيون الأطفال هناك». مثل الكثيرين من شباب تلك المرحلة وكل مرحلة تبدو مُهتمة كثيرًا بالفقر والجوع لدرجة أنها لا تنتبه كم هي جائعة.

يبدأ المكان في الازدحام؛ مومسات درجة أولى، وسيدات في نهاية العشرينات يستحلبن المتعة من فم الثعبان، وأجانب سحلتهم القاهرة ونسوا لم أتوا هنا في البداية. مونى مي تذهب للحمام، تعود لتشاركنا في رفع الشوط الأول من التكيلا. تقابل زميل دراسة قديمًا، تدردش معه على البار. أشم تحت إبطي فأشعر أن رائحة عرقي فائحة. طوال اليوم في العمل والشارع، الشمس حارقة والرطوبة خانقة. كوكي تصيح «أنا تعبت من الحر، مش قادرة، مود تعالى معايا الساحل». مونى مي ترقصٍ مع زميل الدراسة القديم، عيونها مُغلقة، ترتدى بنطلون جينز أسود وقميصًا أخضر، فكَّت الجزء السفلي من أزرار القميص، وربطت طرفيه على شكل عقدة ليكشف جزءًا من بطنها وسرتها، والسوتيان أبيض من الستان المخرَّم يحتوي نهديها.

تعود إلى الطاولةِ وتجلس إلى جواري، تأخذ سيجارة من علبتي. التدخين ضار جدًا بالصحة ويسبب السرطان، تفتح حقيبتها وتخرج الموبايل، ترتسم ابتسامة واسعة على شفتيها:

ـ أحَّه، عارف مين جاي دلوقتي؟

ـ مين؟

ـ إيهاب.

ـ إيهاب مين؟

ـ إيهاب بتاعنا.. إيهاب حسن.

يتدخَّل مود في الحوار وقد التقط الاسم:

ـ مين إيهاب؟

أجاوبه وأنا أشعل السيجارة لمونى:

ـ حكيت لك عنه.

ـ لا .. مش فاكر.

كنا قد بدأنا في الخطوات الأولى لتأسيس الموقع، مونى اشترت «الدومين نيم»، و«السيرفير» باستخدام بطاقة إيهاب البنكية، وإيهاب سافر خارج القاهرة «سأنجز بعض المهام وأعود قريبًا، يمكننا التواصل من خلال البريد الإلكتروني».

شجرة الإثارة تنمو داخل صدري، شيء ما يبعث على الحماس. قامت مونى للرقص ثانية، اقتربت من مود وأخذت أحكي له بداية من اليوم الذي أخذني فيه إيهاب إلى ذلك المخبأ أسفل جاردن سيتي، فتح فمه وارتسمت علامات البلاهة على وجهه.

ـ بسَّام.. إنت بتضرب نوع جديد من المخدرات؟

ـ لا

ـ أنت مقتنع بالكلام اللي بتقوله؟

صدمة المنطق. الواقع حجر خرسانة يرتطم بمقدمة الرأس ويشجها. أبي كان يقول دائمًا قبل الامتحانات «ركز ولا تسرح بخيالك». كنت أصل إلى محل البقالة فأنسى ما الذي أرسلتني به أمي من طلبات. هل في الأمر نوع من الاشتغالة؟ هل إيهاب يشتغلني أم أنا من أشتغل نفسي. ربما المسألة بين هذا وذاك.

لم أخبر مونى بالكثير عن طبيعة الموقع، غير أنه موقِع لنشر عدد من الوثائق، لكني لم أكن أعرف إلى أي مدى وصلت علاقتها بإيهاب. هل أخبرَها؟ هل صدَّقت؟

مونى مي بالتأكيد لديها القَابلية لتصديق مثل هذه الألعاب، لكن أنت بسام هل ستضيِّع

حياتك وراء وهم كهذا؟

وماذا تعرف أنت يا بسام عن العالم؟ التفتُ لمود:

ـ أنت ليه بتتعامل مع الموضوع كأنه خيالي؟

ـ لا خالي ولا خالك يا عم.

يرفع شوط التكيلا، دون ملح، دون ليمون.

***

أصرَّت ريم أن تكون عملية تصوير الفيلم بأقل عدد ممكن من طاقم التصوير، قالت «جودة الصورة ليست بالأمر المهم، وآخر ما سيشغل بابريكا».

ثم أضافت «من الأفضل أن يكتسب هذا الفيلم بعدًا أقل حرفية وأكثر ميلًا نحو التجريب».

الاقتراح الذي توصلنا إليه أن أكون أنا مخرج ومُعدّ الفيلم في ذات الوقت. تهامي أبدى اعتراضه في البداية لكن المبلغ الذي حدَّدته مدام دولت بصفتها مسؤولة الاتصال بين الشركة والجمعية بدا له مشوقًا، بالطبع لم يمنعه ذلك من ممارسة البيضان المعتاد «إنت مسحول من زمان مع الناس دول، وإحنا ورانا شغل تاني أهم».

ـ طالبين ترجمة إنجليزية مع الفيلم لعرضه في الخارج.

ـ شغلنا الأهم مع الجزيرة وبقية المحطات الفضائية.

ـ مدام دولت اتكلمت معاك عن احتمالية عرض الأفلام كسلسلة على قناة البي. بي.سي.

ـ إذا كنت مقتنعًا بما تفعله بجد، فافعله يا بسام..

***

كنت أرقص مع فتاة الجَامعة الألَمانية حينما التفتُّ فجأة للخلفِ لأجد إيهاب يدخل

المكان، كان يرتدي بنطلون أسود قطيفة، وقميصًا حريرًا أزرق مَفتُوحًا حتى منتصف الصدر. في كل مرة، في كل لقاء لم يكن إيهاب يتوقف عن إثارة دهشتي كأنما كان يتأنق ويبدع في ابتكار التفاصيل الصغيرة التي تلفت الأنظار، أو تحديدًا نظري أنا. من رقبته تتدلى، من خيط بني، منحوتة ذهبية ضخمة لرأس ثور. كان يعانق فتاة التارنتينو وبيد الأخرى يمسك حقيبة قماشية معلّقة على كتفه. تركت فتاة الجامعة الألمانية واقتربت لمصافحته، مود قام من على الطاولة ومد يده وهو يتصنع الجدية في محاولة لمدار اندهاشه.

ـ أهلًا وسهلًا.

يجاوبه إيهاب بالشامية «مرحب بيك خيِّي».

يَفْتَحُ حَقِيْبَتَه وَيُخْرِج زجَاجَة ويسكِي. يَضَعُهَا عَلَى الطَّاولَة. المزيكا تعلو، والفرقة تلهبها حرارة الموسيقى، فتَاةُ الجَامعة الألمانية تنتبه، تَنجذب أكثر نحو إيهاب. يبدو كأن المكان كله مجرة مركزها إيهاب. حتى في الملاهي الليلية وسط الشباب ودخان السجائر ورائحة الكحول. يتجلى إيهاب حسن كأنه مركز الكون.

غلافه يتغيَّر بهدوء وانسيابية، كأنه ليس قناعًا بل انعكاس لجوهر عميق متعدد. مثل الشعاع الأبيض يدخل المنشورَ الزجاجيَّ من جهة فيخرج في هيئة سبعة ألوان، كل لون ليس قناعًا أو ادعاء من المنشور بل هو انعكاس لجوهره. الأشياء يهضمها إيهاب فتخرج منه شيئًا واحدًا.

❋ ❋ ❋

اتفقتُ مع ريم أن يأخذ الفيلم التسجيلي شكل الحوار الداخلي بين ريم ونفسها. في الفيلم ستظهر اثنين ريم. للتمييز بينهما، ستكون إحداهما مُحجبة، والأخرى سافرة بشعرها. أولى جلسات التصوير التجريبية كانت في منزلها بكاميرا صغيرة.

ـ ريم حدثيني عن وظيفتك الحالية في الجمعية؟

ريم (المحجبة) تجيب:

ـ انضممتُ لفريق عمل الجمعية في القاهرة منذ بضعة أشهر، الأمر تم بالمصادفة. ـ

أكن مهتمة كثيرًا بالعمارة، لكني عرفت أن دور الجمعية لا يقتصر على العمارة بصفتها ممارسة هندسية، أو عملية ترتيب لمجموعة من الحجارة والخرسانة، بل هى عملية تهيئة وتكييف لمواد الطبيعة في المدينة، بحيث تناسب احتياجات جميع الكائنات الحية في هذا الحيز الجغرافي بما فيها الإنسان. وفي الوقت نفسه هندسة الإنسان نفسه على مستوياته الثلاثة الجسدية، والنفسية، والروحية بحيث تتناسب هذه الاحتياجات مع محيطه الجغرافي. والنتيجة تكون تحقيق السلام داخليًا وخارجيًا، الأمر الذي يسرع من عجلة التطور، وبالتالي تحقيق الغاية الأسمى والأكبر من وجودنا هنا على هذا الكوكب وهي تعمير الأرض.

لم أفاجأ قط بأن جوهر فلسفة الجمعية يتفق مع الرسالة الأسمى للدين الإسلامي، بل تفاجأت من الطريقة التي يتم بها تنفيذ ذلك داخل الجمعية حيث التركيز على التفاصيل الصغيرة والطارئة بنفس القدر الذي يتم به التركيز على القضايا الكبرى، وبنفس القدر الذي يتم به التركيز على التفكير في المستقبل، وكيفية تحسين العمارة الداخلية للإنسان والخارجية المحيطة به.

ـ وَمَا هِي وَظِيْفَتُكِ تَحدِيْدًا فِي الجَمْعِيَّة؟

ريم (السافرة) تجيب:

ـ في البداية، كانت مهمتي هي القيام بدور الوسيط الاتصالي بين الجمعية وبين عدد من الجمعيات التي تتماس مع أفكارها غير الشقيقة. فكما تعرف «جمعية معماري المدينة» لديها بروتوكولات للتعاون مع عشرات المنظمات والجمعيات العالمية، لكن مع افتتاح مكتبنا في القاهرة كانت أحد الأهداف الرئيسية التي نسعى لتحقيقها هو التواصل والتعاون مع منظمات أخرى شقيقة. لكن مسمّى وظيفتي تغيَّر مع حضور السيدة بابريكا مسؤولة التخطيط المستقبلي في الجمعيةِ إلى القَاهرةِ، حيث أصبحتُ المُسَاعدة الشخصية لها.

ـ هل يمكنك إعطاؤنا تفاصيل أكثر عن طبيعة عمل قسم التخطيط المستقبلي في الجمعية؟

ريم (السافرة) تجيب:

ـ يمكن النظر إلى قسم التخطيط المستقبلي باعتباره ساحر القبيلة القديم، فالقسم يتحمَّل مسؤوليتين أساسيتين؛ الأولى هي النظر في معطيات واقع المدينة الجغرافي والإنساني، والعمل على ربط هذه المعطيات في مجموعة من العمليات الحسابية المنطقية وغير المنطقية للتنبؤ بمستقبل المدينة. مستقبل المدينة نعني به كل ما هو بعد 50 عامًا، ثم البحث عن الطرق والوسائل الواقعية والميتافيزيقية التي يمكن عبرها تجاوز مشكلات المستقبل، وتحسين الإيجابيات.

أما المسؤولية الثانية التي تقع ضمن اختصاص القسم، فهي البحث عن حلول عاجلة غير واقعية للأزمات والمشاكل الواقعية للمدينة.

ـ طبيعة دورك كمساعدة للسيدة بابريكا مديرة قسم التخطيط المستقبلي بالجمعية هل تتضمن تقديم بعض الخدمات الشخصية العاطفية أو الجنسية لها؟

ريم (المحجبة) تجيب:

ـ لا تتضمن وظيفتي في الجمعية تقديم خدمات مثل هذا النوع، بل العكس تمامًا. طبيعة العلاقة بين المدير والمساعد في الجمعية تقوم على أسلوب الرفقه، فالمسؤول رفيق للمساعد، يقوده في دهاليز المعرفة والعمارة، يساعده على بناء نفسه، والتواصل معها ليستطيع المساهمة في عملية العمارة والتعمير المستمرة إلى مالا نهاية.

أعتبر نفسي أيضًا محظوظة بالعمل مع السيدة بابريكا، فهي شخصية مبتكرة، ولديها أفكار مثيرة وجديدة من نوعها لتحديث وتثوير عملية تعمير الأرض.

ـ هل بإمكانك توضيح طبيعة هذه الأفكار؟

ريم (المحجبة) تجيب:

ـ أَعْتَقِدُ أَنَّه مَن الْأَفْضَل أَن تُجيب بابْريكا بِنَفْسهَا عَنْ هَذَا السُّؤَال، لَكن أَكْثَر مَا يُبْهرني فِي أَفْكَار بابْريْكا، وَمَا أَثَّر عَلَيَّ بِشَكْل شَخْصي، هُو ذَلك الطُّمُوح لا لتَطْويع مُعْطَيَات الْوَاقع وَالْجُغْرَافيَّات، بَل إِلَى خَلق تِلْكَ الْمُعْطَيَات، ثُم تَوْلِيفهَا. هُنَاكَ شَيْء ثَوْرِي فِي مَنْهَج وَطَرِيْقَة عَمَل بابْريْكا، إِنّهَا تُسَاعدُكَ عَلَى رُؤْيَة مَا لَم يَكُن مَلْحُوْظًا، وَفِي رُؤْيَة مَا هُو ليس مَوْجُودًا مِن خِلَالَ إِيْجَادِه أَوابْتِكَاره لَك.

***

الساعة الرابعة ظهرًا.

تحرَّك المركب الصغير من كورنيش النيل المقابل لمبنى الإذاعة والتلفزيون يحمل على متنه إيهاب حسن، وبابريكا.

جلس الاثنان متقابلين.

حسب اتفاق ريم مع المراكبي فقد تم استئجار المركب لمدة ساعتين، مرت الساعة الأول دون أي كلمة. عبر بجوارهما مركب آخر ترتفع منه أغنية لتامر حسني، فتاة مُحجبة تَرقص وسط مَجموعة كبيرة من الشباب. عَائلة خليجية في مركبِ آخر. طَابور من السيارات المتوقفة أعلى كوبري 15 مايو.

إيهاب كان يحمل معه الترجمة الإنجليزية لرواية خيري شلبي «وكالة عطية»، بابريكا كانت كل عدة ثوانٍ تريح ظهرها إلى الخلف، وترفع رأسها إلى الأعلى لتتأمَّل السماء. مرَّت نصف ساعة أُخرى.

المراكبي الشاب أخرج الموبايل، ثم وجَّه حديثه لإيهاب بصفته الذكر الآخر:

ـ نرجع بقه؟

هزَّ إيهاب رأسه موافقًا. شغَّل المراكبي الشاب موتور المركب وأدار الدفة استعدادًا للعودة تحدثت بابريكا:

– القرار تم اتخاذه ولن أتخلَّى عن عملية تنفيذه.

رد إيهاب ببرود وكأنما كان يتوقَّع جملتها:

ـ لن أسمح لك بأن تستفيدي بكل فعلناه على مدار آلاف السنوات.

ابتسمت نصف ابتسامة:

ـ لقد استفدت بالفعل يا إيهاب.

عادوا إلى المرسى، حيث كانت ريم في انتظار بابريكا، سلمت باليد على إيهاب، ثم سارت مع بابريكا في اتجاه المعادي، إيهاب عبر ميدان عبد المنعم رياض في اتجاه وسط

البلد، تحت إبطه رواية خيري شلبي. قراره الأخير كان هدم المعبد على رؤوس الجميع.

***

بعد أول جلسة تصوير، والتي كانت في منزلها قالت ريم:

ـ هذا الفيلم. وصيتي. بسام.

***

فَتَح البَاب مُرتَديًا رَوبًا أَزرَق، صَدرُه عَارٍ لَكِن هَذه المَرَّة غَابَت قِلادَة الثَّوْر. نعم كنت متحمِّسًا، كنت أشعر بأهميتي، وأنا أتحرَّكَ في الشارِع وسط كل هذه الجموع محتفظًا بكل هذه الأسرار عن الجمعية داخل عقلي. لم أفكِّر في أثر ما نحن مقدمون عليه، ولم أكن أعرف الكثير عن طبيعة مشروع بابريكا. لم يكن لديّ قلق على القاهرة. فلا يمكن أن يحصل لها ما هو أسوأ من واقعها، ربما بالإمكان أن تسقط بيضة ضخمة من السماء فتغرق كل هذه المدينة القميئة في صفار البيض. هذا سوف يكون نوعًا من التغيير الإيجابي بالتأكيد.

جلست على الكرسي نفسه الذي سبق أن جلست عليه. صوت السيارات المنفعلة في شارع عدلي يصل إلينا في الأعلى، أبواق، صراخ، زعيق، معارك تقوم على السباب، باعة جائلون. الإضاءة خافتة، أشعة خفيفة تأتي فقط من «أباجورة» طويلة موضوعه في المطبخ. انتبهت هذه المرة أن شقته لا تحتوي على أية إضاءة تأتي من السقف. بدا كأن ملاءة السرير ذات اللون البنفسجي قد شهدت معركة ما، أو ربما كان أحدهم ينام تحتها.

عرين الأسد الملكي. قبو ما بعد الحداثة. زهرة من زهور اللون البنفسجي.

«تشرب حاجة؟» قال إيهاب، أجبت وأنا أخرج «اللاب توب» من الحقيبة «فقط بعض الماء».

أمي هاتفتني اليوم صباحًا «أنت واحشني يا بسام، ولاد أختك عايزين يشوفوك، وكل يوم بيسألوا عليك».

رغم أن المسافة الفعلية بين القاهرة ومنزل أمي لا تتجاوز الساعتين، لكن صوتها يومها بدا لي آتيًا من مجرةٍ زَمنية أخرى بعيدة تمامًا عن مدَاري الفلكي والكوني. بدا صوتها

غريبًا، ومعه كانت كل الذكريات عن حياتي قبل بداية التعرف إلى إيهاب والعمل في هذا المشروع كأنما هي حياة شخص آخر.

على خلفية شاشة الكمبيوتر كُنت أضع صورة من فيلم ستانلي كوبريك الستيني «أوديسا الفضاء 2001». لا شيء من الماضي قد تبقى معي.

ألمح يدًا تمتد من تحت الملاءة البنفسجية لتضيء «أباجورة» بجوار السرير. إيهاب في المطبخ يعد القهوة، يُخرج زُجَاجة مياه بلاستيكية من الثلاجة ويضعها أمامي على الطاولة مع كوب زجاجي فارغ. أحاول تجنب النظر في اتجاه السرير، لكنها تزيح الملاءة وتعتدل جَالسة، كانت «مونى مي» عارية، وقد سقط شعاع من الضوء على جزء من نهدها فبدا أبيض مشعًا والحلمة غامقة منتصبة في المنتصف.

صوت «هال 9000»[21] يرن داخل رأسي:

"Dave, Dave, I'm afraid my mind is going"

تَناولت تي- شيرت مُلقى على الأرض بجوار السرير، ثم قامت من مكانها، سارت على خشب الغرفة عارية، فخذاها المصقولان يلمعان في الظلام، لا ترتدي سوى «كيلوت»أسود وذلك التي-شيرت الرمادي يستر صدرها، لكن حلماتها من أسفله نافرة. قبَّلتني على الوجنتين

- بيسو مساء الفل ازيك.

من المطبخ كانت ابتسامة إيهاب تتسع لسبب لا تعلمه إلا الشياطين، أو هال 9000 [22] الخائف التائه في الفضاء الخارجي.

---

(21) ولماذا يختار آرثر المؤلف اسمًا مثل هذا؟

كان بإمكانه تعلم شيء من إدجار آلن بو حينما اختار اسمًا ينساب كجندول صخري لبطل روايته الوحيدة

"The narrative of Aruthur Gordon Pym of Nantucket"

(22) على العكس في رواية «بو» الوحيدة، والتي نشرت لأول مرة في نيويورك عام 1838، لا يشعر أحدهم بالفزع من الوحدة. فبطل الرواية يتسلل إلى سفينة صيد حيتان متجهة في رحلة طويلة تبدو عادية ثم تزداد غموضًا نحو القطب الجنوبي، وعلى ظهرها يمرّ البطل بمجموعة من التجارب والمآسي تهدد حياته؛ مخاطر التمرد على سطح السفينة، حوادث الغرق، والقتل، والسلخ، وأكل لحوم البشر، والحروب مع السكان المحليين.

نظرت مونى إلى زجاجة المياه وقالت:

ـ لماذا تشرب المياه يا بيسو؟ افهم، اعرف.. النبيذ يعطيك الحقيقة، البيرة تعطيك القوة، لكن المياه لا يوجد فيها إلا البكتيريا.

هززت رأسي مبتسمًا:

ـ يا سلام.

ثم انحنتْ أسفل الطاولة وتناولت زجاجة نبيذ نصف مفتوحة كانت موضوعة في الأسفل. أمسكتها من عنقها، وصبت في الكوب الفارغ أمامي. سألتُ مندهشًا:

ـ هل تخبِّئون النبيذ الآن أسفل الطاولة؟

ردَّت بتلقائية كأنما تهرش في عنقها:

ـ لا كنا نمارس جنسًا عنيفًا فوق الطاولة، فوضعتها أسفلها حتى لا تنكسر.

يومها أطلعنا إيهاب على الجزء الأول من الوثائق التي ينوي نشرها، بعدها بيومين كانت هناك فرقة كاملة من الأشباح تُطَارد إيهاب لقتله، في اليوم الثالث كان السيناريو الذي وضعته بابريكا لإنهاء القاهرة وبناء مدينة جديدة يدخل الحيز الفعلي للتنفيذ، بدأت التغيرات المناخية، وعمليات تعديل مسَار النيل وتحريك الطبقات الأرضية.

أتذكر هذا الاجتماع بسبب طعم النبيذ القوي، والإضاءة الخافتة، ورائحة الملوخية التي هاجمتنا من نافذة أحد الجيران، فخذ مونى العاري، قدمها التي أخذت تداعب قدمي من أسفل الطاولة على فترات متباعدة، الوحدة التي أحسست بها دوامة تحيط بي حتى إنني لم أنتبه إلى خطورة المعركة التي أوشكنا أن نخوضها.

أنهيت الاجتماع واتصلت بالسيدة ملعقة، مررت عليها في فراشها في الزمالك، ضاجعتها بعنف لفترة طويلة، أدخلته في كسها، وفي مؤخرتها. نامت منهكة، بينما دخلت الحمام لأمارس الاستمناء بهدوء وأنا أنظر لتعبيرات الرغبة تغزو وجهي في المرآة، خلف صورة وجهي المنعكسة في المرآة كنت أرى المصباح الأحمر للحاسب الكوني الضخم «هال 9000» وهو يردد عبارته بخفوت:

ـ أنا خائف ديف، خائف ديف.

والزهرة الثالثة..
أين أضع الزهرة الثالثة ريم؟

كُنت تعبة جدًا يا بسام، وحيدة، ألمي جعلني لا أرى الأسباب. لكن في البداية دعني أسألك السؤال العلامة والوقفة والدلالة:

ـ إذا كانت الثمرة المحرمة هي خبزك اليومي، فكيف تأتيك الرعشة الكبرى؟

***

لم تكره ريم عائلتها.

هى الابنة الكبرى.

العائلة هي التي سعت إلى أن تمتص حياة ريم.

في مرحلتها الجامعية بكلية الألسن التقت ريم بالرجل الذي ستحبه. عاشا معًا قصة حب سرية توزعت بين شقة عائلته في مصر الجديدة، وبارات وسط البلد. لم تكن العائلة متديِّنة إلى حدٍّ كبير لكنها كانت محافظة، لم يتحدث والدها أو أمها معها عن ارتداء الحجاب، لكن كانت الساعة التاسعة هي آخر وقت يمكنها أن تكون فيه خارج المنزل. كانت هناك قائمة طويلة من المحرمات والقوانين. «لماذا يجب أن أفعل هذا؟ ولا أفعل ذلك؟».

«لأننا نخاف عليك ريم، لأننا نحبك».

«ارحمونا من هذا الحب القاسي».

الشاب الجامعي كان غاضبًا من أشياء كثيرة في البلد، يحلم دائمًا بالسفر ويقول: «كل ما أرغب فيه أن أترَك خاليًا بنفسي أبحث عن نفسي». يتحدث في السياسة بغضب ويسب الجميع، لكنه عاجز عن اتخاذ قرار. أي قرار. لا يوجد ما هو أصعب من القرارات في القاهرة، لأن القاهرة غالبًا هي من تقرر لك كيف تكون حياتك. كيف تتوزع قصة حبك. كيف تنتهي، متى تأكل، كم ساعة من عمرك ستضيع في زحام الشوارع، نسبة إصابتك بالسرطان، نوعية وتوقيت تعرضك لحادث السيارة، درجة قذارة الطعام الذي ستضطر لتناوله في الشارع. كم كلبا سيجري وراءك ليلًا في حياتك. أنت هنا عبد لهذه المدينة. ولكي تمنحك نفسها يجب أن تبيعها روحك بعقد موثق بالدم والقلب.

فقدت ريم الأمل في أن يقوم الشاب بأي خطوة، بدا لها مريضًا، ومرضه انتقل لها وأصابها في القلب مسببًا عطبًا بالغًا في الروح. تحدثت مع والديها: «أريد أن أسافر»، وما وجدته وقتها كان فرصة عمل كمدرسة في دولة قطر. الأم أصابها الفزع من ابتعاد ابنتها عنها في «غربة» لا تعرف شكلها ولا طبيعة الأخطار التي قد تهددها. الأب بدا قلقًا لكنه واثق أكثر في ريم. ريم كانت فقط تريد أن تبتعد عن المدينة وعن كل ما فيها، عن قصة حب أصابتها بالاكتئاب وجعلتها تبكي ليلًا على سماعة التليفون. أو تمسك موس حلاقة في الحمام وتجرح به ساقها.

كان هذا هو السفر لريم. لا كرحلة بل زنزانة انفرادية. مازوخية وأذى أكثر ضد الذات. وكانت الدوحة هي المخبأ، حيث كورنيش كبير يمتد على طول شاطئ فقير والكثير من العمال شرق الآسيويين، وحرارة ورطوبة وشمس أصابتها بالإعياء ثاني يوم حتى إنها فقدت الوعي بينما كانت تسير في الشارع تتأمل المدينة الخالية.

قضت ثلاثة شهور هناك، قيل لها لا أحد يسير في الشارع هنا، في الدوحة الجميلة نسير فقط داخل المول التجاري العالمي، حيث المحلات العالمية، والمطاعم العالمية. فنحن مثل بقية مدن الخليج مدينة عالمية ونطمح أن نصبح مدينة كونية مثل دبي.

عادت خائبة حالتها أسوأ مما كانت عليها، حتى مذاق الحرية لم تتذوقه، وهجران حب العائلة لم تتمكن من التخلص منه. الشاب اتخذ قراره شاعرًا بألم الفراق وبعدم قدرته على إنهاء العلاقة.

عند الغروب يقف الشباب فوق أسطح العمارات، يمسكون علمًا أحمر كبيرًا يحركونه

في الهواء وهم يصفرون للحمام لكى يأتي عائدًا لأعشاشه. أهم الهوايات لدى سكان القاهرة هى إطلاق الأشياء في الهواء بعيدًا وانتظار عودتها. البعض يطيِّر طائرات ورقية مربوطة بخيط، والبعض يطيِّر الحمام كهواية وتجارة، أو حلم خاص بالطيران.

تزوجت ريم بالشاب الجامعي. لا عن حب كما ظنت في ذلك الوقت، ولكن لأن الاثنين فشلا في الهروب. القاهرة قررت مسارهما. وضعت حجر الزاوية وأقامت أساسًا للبيت عماده الفوبيا والارتياب.

عاشا معًا في شقة ورثها عن عائلته، الشقة نفسها التي سأزورها فيها ملبيًا دعوتها على زجاجة الويسكي، تنتهي بجلسة حديث ومداعبات تستمر حتى السادسة صباحًا بعدها نلج السرير غارقين في العسل.

العلاقة بينها وبين الشاب الجامعي - كان يدعى تامر بالمناسبة - لم تسر بشكل حسن، مثل كل المثقفين الشباب في القاهرة كانا يشعران بغربة قاسية في القاهرة، نتيجة أفكار وتصورات لديهما عن شروط الحياة الآدمية وعن تصورات أخرى للحياة في القاهرة. القاهرة بدورها لم تكن تمنحهما أي فرصة للنسيان أو لتناسي مشاكلهما الداخلية والضغوط الخارجية. النتيجة انفجار تلك المشكلة، فترات طويلة من الانفصال والعودة، بكاء كأنهار من المياه المالحة، صريخ متواصل في الرأس، كحوليات وكحوليات ومزيد من الكحوليات، تشكيلة متنوعة من المخدرات والحبوب الكيميائية.

في واحد من تلك الانفصالات أقام تامر علاقة مع فتاة أمريكية كانت تعيش في القاهرة، تدرس ربما، واقعة في حب مدينة القاهرة، حزينة بما يكفي، سعيدة لحد ما. التقيا خمس مرات، أولاها في حفلة عند صديق مشترك، تبعها حديث قصير عن دراساتها التي كانت على الأغلب رسالة دكتوراه عن صراصير البلاعات في القاهرة وعلاقتها بفئران نيويورك وتأثير ذلك على وضع الحركات الإسلامية في الشرق الأوسط. ثم مارس الجنس ثلاث مرات معها، في إحداها تضايق من إصرارها على ارتداء الواقي الذكري فأدخل عضوه دونه وقذف داخلها، فقالت بالإنجليزية «هذا أفضل شعور أحسست به طوال حياتي».

انتهت العلاقة بخناقة مفتعلة من جانب تامر أغلق خلفه باب شقة الأمريكية بعنف. عاد لريم، ثم وصله إيميل من الأمريكية بأنها حامل وسوف تسافر لنيويورك لتحتفظ بالولد.

عاد وبكى، تدهورت علاقته بريم. ترك ريم وسافر خلف الأمريكية لنيويورك ثم عاد

إلى القاهرة بعد نحو ستة أشهر حينما كان عمر ابنه يومين.

انتهت علاقته بريم بطلاق رسمي. بقيا صديقين يلتقيان أحيانا على الإفطار باكرًا في فندق من الفنادق المطلة على النيل في جاردن سيتي.

هل انتهت بذلك قصة ريم؟

هل حقًا أمكنني أن أكتبها فيما لا يتجاوز الصفحتين؟

يدهشني كيف أنه حينما أتذكر كل ما حدث يأتيني مكتملًا في ثلاث دقائق، بينما حين أتذكر أثره عليَّ أشعر بأني في حاجة إلى عمر آخر لأكتب باحثًا عن مبررات أخرى لا تظهرني بذلك الضعف والعمى.وبينما أتذكر كل ما مضى، لا أستطيع تذكر ما حدث بالأمس، يقولون إن هذه هي الشيخوخة.

***

بابريكا لا تستطيع فقط قراءة أفكارك ومشاهدة كلماتك داخل عقلك قبل أن تنطقها. بل هي أيضًا قادرة على بث الأفكار داخل ذاكرتك وعقلك مباشرة، فتتحول لجزء من معرفتك ومُشاهدتك للعالم.

بابريكا يمكنها أن تلهو مثلًا في مراكز الألوان في المخ، فتجعلك تشاهد اللون الأحمر أخضر، والأخضر أزرق، والأزرق أحمر، فترى الألوان كلها عكس ما يراه الآخرون.

بابريكا لديها القدرة أن تكون في أكثر من مكان في الوقت نفسه، كما أن لديها على الأقل 77 قرينًا، والسبب كما يقولون أنها قد عاشت 77 حياة، ولكل من السبعة والسبعين قرينًا حياة مختلفة، بلغة وعلوم وألعاب ذهنية وخدع ميتافيزيقا تختلف عن القرناء الآخرين، ومعرفة السبعة وسبعين قرينًا تسير في أنهار متدفقة لتصب كلها في بحيرة معرفة بابريكا. معرفتها وبصيرتها أكبر من أي شخص خارج المنظمة أو داخلها سبعًا وسبعين مرة، يقولون هذا. تتردد أقاويل كصدى الصوت في قبة سماء العالم. حجر وسط ملايين الحجارة في «ماتشو بيتشو»[23] يحمل حكايتها الكاملة وعليه لعنتها وحلها.

---

(23) في لغة هنود الإنكا تعني «ماتشو بيتشو» القمة العتيقة. ويشيرون بذلك اللفظ لمدينة السماء، أو مدينة الإنكا المفقودة. من العجيب أنها من الأشياء النادرة التي نجت من كل ما حدث. وهي عبارة عن مدينة كاملة من

البعض قال إنها المختارة، الأم الأولى، الإنسان الأنثى الأول الذي قرر أن يترك العراء ويدخل الكهف. كانت لديها طائفة تعبدها في سوريا، علامتها تتطابق مع بعض الأوصاف لمنقذ العالم في الكتاب المقدس للطائفة الدرزية. جميع أعضاء المنظمة الخبراء في علوم عمارة وبناء الروح كانوا يقولون إنهم حتى لو أرادوا النظر لجوهر روحها، لم يكونوا ليستطيعوا.

لكنها أبدًا لم تستجب لكل الترهات الروحانية التي تحاول إضفاء نوع من القداسة على شخصيتها، كانت تحتقر الأتباع والمريدين، وتمقت المؤمنين سواء بها أو بأي شيء آخر. كانت ترد على مقدسيها بلهجة كأنها مقتبسة من حوار الشخصيات الكارتونية المدبلجة للغة العربية «أنا أقدِّس العقل فقط، أغرب عن وجهي أيها المأفون». وكان كل ما تفعله مجموعة من الحقائق الواقعية أو المتوهمة، تقوم ببنائها في خطاب عقلاني منطقي يكشف المشاكل والعيوب، وينطلق منها للبحث عن حلول نهائية وجذرية.

كانت ريم جالسة في بيتها ترتدي فقط كيلوت أبيض مرسومًا عليه ورود حمراء وبرتقالية، الحر والرطوبة تدفعانها للهاث، وطبقات رقيقة من مياه العرق المالحة تتكاثف على مسام بشرتها، الكلب يتمشى بين حجرة المكتب والصالة، وهي في غرفة المكتب تنظر لعلبة السجائر أمامها وتفكر في التوقيت المناسب لإشعال سيجارة، حينما سمعت صوت بابريكا يسألها:

- أين تريدين الزهرة يا ريم؟

بسطت كف يدها اليمنى على ركبتها، فظهرت وردة بيضاء فيه.

- والزهرة الأخرى؟

بسطت ريم كف يدها اليسرى على ركبتها، فظهرت وردة بيضاء فيها.

- والزهرة الثالثة، أين أضع الزهرة الثالثة يا ريم؟

القرن الخامس عشر على ارتفاع 2430 مترًا فوق سطح البحر، على حافة جبلية أشبه بهاوية تطل على وادي «أوروبامبا» في «البيرو» على مسافة 80 كيلومترًا شمال غرب مدينة كوسكو، لم يتم اكتشافها إلا عام 1911 على يد «هيرام بنجهام».

محمد طه

لطالما أحببت جعبورة، كنت قد عرفته أصغر مني ببعض سنوات يدرس شيئًا ما في جامعة ما، شاب من ضمن الشباب الممتلئين حبًّا لهذا الوطن وحماسًا كبيرًا للتغيير والإصلاح. كس أم هذا الوطن مرة أخرى، ويلعن أم الحماس. سوف يردد الجملة الأخيرة ما إن يتخرج ويتجاوز مرحلة الشباب.

لكن شيئًا مضحكًا خفيف الرائحة أو الروح فيه طالما جذبني إلى الاتصال به والاطمئنان عليه، تمر أيام وليالٍ تتوتر فيها العلاقة بيننا وبين الوطن، يتركني تائهًا وقد كسر قلبي، وأغير علاقتي على الفيسبوك فتظهر علامة القلب المنكسر، نفقد الحماس بعد ذلك. يتوقف جعبورة عن النزول إلى المظاهرات، وأتوقف أنا عن متابعة أخبارها.

نلتقي فجأة في شركة الإنتاج حيث أتى للعمل كمصمم جرافيكي في الشركة:

ـ فينك يا عم، بتعمل إيه اليومين دول؟

يجيب جالسًا على الكرسي أمام شاشة الكمبيوتر كبوذا صغير في معبده:

ـ بشتغل، واصطاد.

ـ تصطاد إيه؟

ـ سمك.

ـ زي محمد طه؟

ـ محمد طه مين؟

ـ المغني.

ـ فيه مغني اسمه محمد طه؟

ـ أحّه.. متعرفش محمد طه؟

جلسنا على شاطئ النيل في يد كل واحد منا سنارة، وفي المنتصف صوت محمد طه يخرج من الموبايل. أثناء الإعداد لفيلم «اختفاء النيل» استعنت بجعبورة للتصوير مع عدد من الصيادين الهواة. بعضهم معلق على الكباري، أو يجلس تعيسًا متوحدًا مع سنارته على الشاطئ، يعرفون أسماء بعضهم بعضًا أحيانًا لكنهم يشعرون بالألفة حينما يتقابلون في صمت. أحدهم كان يعمل سائق تاكسي حكى لي أنه حينما بدأ يصطاد في النيل منذ عشرين عامًا التقى بصديق عمره الحاج محمد، كان الاثنان يلتقيان فقط أمام النيل، تعوّدا على الصيد معًا لمدة عشرين عامًا، قال سائق التاكسي «كان أكثر من أخي، عندما كانت امرأتي تلد ابنتي الأولى، تركت المنزل وهربت ليلًا إلى الشاطئ مع الصنارة، كنت مهمومًا ولم يكن كل ما في جيبي ليتجاوز المائة جنيه، ولا أعرف من أين سأوفر مصاريف الولادة واحتياجات البنت من تطعيم لكساء لخلافه، الحاج محمد ربّت على ظهري وقال لي ارم سنارتك والخير يجي لك، رميت الصنارة فوجدته يضع في جيبي 300 جنيه» سائق التاكسي نفسه بعد انتهاء التصوير صباحًا أمام كورنيش حلوان، طلبت منه توصيلة إلى ميدان التحرير، وأخذ مني 30 جنيهًا.

صراعات الطرق، والزحام، والعنف، والغضب الذي يتفجّر من الشوارع، والشمس الحامية وسحب التراب والدخان. قيادة السيارات في شوارع القاهرة مثلما قال لي «نحن لا نعمل، بل نحارب»

سائق تاكسي آخر أخبرني يومًا «ما فعلته في حرب 73 أقل مما أفعله كل يوم لكي أقود في هذه الشوارع» يضحك جعبورة ويسأله « ليه يا عم.. كنت في سلاح إيه؟».

السائق العجوز يجيب دون أن يحول بصره عن الطريق:

ـ سلاح الدفاع المدني.

نسكت نحن الاثنان، وأنظر لسائق التاكسي؛ عجوز يرتدي قميصا رماديًّا وملابس أخرى مقطعة بألوان باهته مُتداخلة، أظَافره متآكلة. جعبورة في الكرسي الخلفي متحدِّثًا لي كأنما نسي السائق العجوز العامل بسلاح الدفاع المدني في 73:

ـ أنا نفسي أعرف هياخدوا السمكة دي فين؟

جاوبته:

ـ دى مش سمكة.

ـ أُمال؟

ـ لا أعرف، لكن يمكنني أن أحاول أن أعرف.

كان جعبورة قد احتل الصفحات الأولى في عدد من الجرائد والمجلات الصفراء، أحس بالثقل في الصنارة، سحب الخيط فظهر له كائن ذو جلد وردي حجمه يساوي طفل صغير في سنته الثالثة، له أقدام، وأذرع طويلة في نهايتها أظافر أقرب للحوافر، طرف الصنارة كان عالقًا في مؤخرته النازفة، الدم يقطر منها، وهو يتحرَّك محاولًا الفكاك منها. أصيب جعبورة بالفزع وظن أنه طفل حديث الولادة ألقاه أحدهم في النيل، لكن الكائن لم يكن له وجه، ولا رقبة بل امتداد صغير من الجسد ينتهي بقرني استشعار صغيرين.

جعبورة قام أولًا بتصوير الكائن الغريب الذي لا يزال يصر على وصفه بالسمكة، ثم اتصل بشرطة النجدة -لا يعرف لماذا فعل هذا؟- التي بدورها اتصلت بالإسعاف -لا أعرف لماذا حضرت الإسعاف- وتحوَّل الأمر إلى أسطورة شعبية حول المرأة الزانية التي ولدت جنينًا مشوهًا فألقت به في النيل.

أوصلنا سائق التاكسي المشارك في حرب 73 إلى ميدان طلعت حرب. جعبوره أخذ طريقه نحو جاليري التاون هاوس، وأنا اتجهت لشارع عدلي حيث منزل إيهاب.

الأطفال كم كرهتهم قديمًا، كم أكرههم الآن، كم سأظل أكرههم.

«ليسوا أي أطفال، إنهم مستوردون من الخارج» قال إيهاب وهو يطالع الصور. كان يضغط على زر المسافة لتتوالى الصور التي التقطها جعبورة لسمكته التي تبين أنها طفل من ضمن قطيع أطفال تم استيراده من اليابان.

كنا نعرف حتى الآن ثلاث نقاط أساسية:

* بابريكا لن تتنازل عن قرارها بإنهاء القاهرة.

* بابريكا بدأت فعليًا في تنفيذ قرارها.

* بابريكا ستستخدم الكثير من الأسرار والأدوات التي لا يمكننا حتى تخيل وجودها.

وعلى ضوء ما سبق، فقد رأى إيهاب أن نحافظ على تقنية مجموعة أزرار الأمان المتدرجة من اللون الأصفر فالبرتقالي، فالأحمر. وزرّنا الأحمر كان - يا للتفاهة - عبارة عن ضغطة على زر موقع على الإنترنت لنشر كل المعلومات التي نعمل على أرشفتها وتبويبها وتدعيمها بكل الوثائق اللازمة التي قد تؤدي لإنهاء وجود المنظمة وانكشاف جميع أسرارها.

إيهاب كان يقول: «من الواضح أنها لا تهتم لهذا الأمر، أو على الأرجح تؤمن تمام الإيمان بالمذهب الرومانسي القائل بأن وجود المنظمة محمي بقانون الوجود، ولا يحتاج لحمايتنا»

إيهاب لم يعرف أن بابريكا هي الوجود ذاته، هي قانون الوجود.

لقاء الدكتور

اللحظة التي شعر فيها إيهاب أن هناك شيئًا ناقصًا في حياته، كانت المرة الثانية التي وقف فيها أمام مبنى مركز سكيوبا لأرتا أيسوزوكي في اليابان. يومها تسربت مادة زرقاء سامة من خلال عينيه المتأملة للمبنى وانسابت إلى قلبه ومنها إلى مختلف أنحاء الجسم، ثم استقرَّت في ركن صغير في صمام القلب.

بعدها كان يتصفح ألبومًا مصورًا عن العمارة المعاصرة في أوربا حينما شاهد للمرة الأولى صورًا للمبنى الخارجي لمتحف جاجنهيم لفرانك جاري في مدينة بيلباو الإسبانية، تدفَّقت شحنة أقوى من المادة الزرقاء السامة من خلال عينيه، دخلت قلبه ومنه إلى باقي جسمه، حيث تسلَّلت إلى تلافيف خلاياه الرمَادية في المخ.

يومها شعر بأن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام، خطأً ما غير منضبط. فحتى الأخطاء - مقصودة أو غير مقصودة - لها قوانينها الحاكمة والضابطة.

أرجع الأمر إلى نمط منفلت ساد عمارة ما بعد الحداثة حيث تجنب كل ما له علاقة بالخشونة والتجريدية لدى الباوهاوس، مع الحفاظ على حد أدنى من التفاصيل لكنها في الوقت ذاته موجودة وبارزة للعين تعبث بما هو تاريخي وما هو جمالي دون تمييز أو تفرقة، وكأن الرداءة مسألة وجهه نظر.

بالطبع في الأمر وجهة نظر، لكن ماذا عن الجزء الوظيفي لمهمة العمارة والمعمار. أين هو من كل هذه الممارسات؟

صحيح أن المتحف ذو وظيفة نفسية واجتماعية في المقام الأول، إشعار ساكني

المدينة بالأهمية وخلق وسيط معبر عن هويتهم الجماعية، صحيح أن المتاحف في النهاية انعكاس لتصورات مجموعة من الفنانين والمعماريين عن ذاتهم وعلاقتها بالعالم، لكن ما الذي يحدث حينما تتحوَّل الذات إلى ذات «فنان». بما يعنيه هذا المصطلح في لحظته الراهنة؟

تحمل هذه الصفة كعلامة تجارية، شجًا في الرأس، هوية وصورة في الوقت ذاته.

تسيرُ في الشوارع، تدخل المطاعم، تجلس في البارات، تعقد الصفقات، تدشن المؤتمرات، تتحدث في الندوات، وتقول: أنا ذات فنان.

إنه يضع توقيعه في النهاية فيحكم على ما يريد أن يكون فنًّا. حتى لو كان فنانًا ثوريًّا متمردًا، يرفض العمل مع الشركات الكبرى، ويرفض بيع وتسليع فنه، ويحمل آراء عنيفة تجاه النظام السياسي وكل ما هو قائم، ففي النهاية يعتقد أن ما يصنعه يستحق بعض التقدير ويحمل الكثير من الصدق، إنه فن. إنه فنه هو.

لذلك فكر إيهاب للحظة، ألا يمكن أن يكون هذا الأمر متنافيًا مع ضرورة الفن؟ مع ضرورة الدور الوظيفي للفن على الأقل؟

بالطبع يحمل سؤال إيهاب قدرًا ما من الثقة النقدية والإيمان الأعمى والمضحك بحتمية وجود قوى عظمى أو حقيقة مطلقة تحدد ما هو صواب وما هو خطأ بشكل نهائي قاطع، كما أنه يحمل في ثناياه انحيازًا واضحًا لفكرة «الدور» وواجب الذات والفرد تجاه ما يحيط به. هذه كلها أفكار قابلة للشك، وكانت موضع تساؤل شغل إيهاب لفترة طويلة.

لكن إيهاب كان يتقدم في العمر، يشعر بالسأم، انتماؤه للمنظمة صعَّب عليه المهمة وجعله غير قادر على الإفصاح عن الكثير من الأفكار والأبحاث. الجزء الظاهر من شخصيته كأستاذ أكاديمي تخصَّص في الأدب المقارن والنقد الثقافي لم يكن إلا قمة جبل الجليد الضخم.

أسئلته حول الدور الوظيفي للفن وتحديدًا فن العمارة، قادته إلى أفكار جديدة عن العمارة ودورها الوظيفي، أفكار جده بالتالي، قادته إلى أرشيف وثائق الباوهاوس.

الأوغاد الأوائل صمَّموا عوالم كاملة، كانت هناك رسومات دقيقة أنجزت على مدار

سنوات طويلة بواسطة معماريين تخيلوا عالمًا بمساحة وحجم كوكب الأرض لكن بدلًا من الشكل الدائري البيضاوي أصبح مربعًا، نحن نعيش في داخله. أوغاد آخرون أنجزوا رسومات معمارية دقيقة لبناء المخ البشري وتوزيع شبكات الأعصاب داخله، معتمدين على نموذج لعقل امرأة تدعى «هيزل يلينك».

البحث الأعمق، نحو الداخل، السفر إلى نيوزيلندا، زيارة اليابان، قضاء العطلة في براغ. كل هذه الزيارات واللقاءات بأعضاء قدامى في الجمعية انتهت إلى أسئلة أوسع وأكثر تفصيلًا، قادته إلى الاهتمام بالبحث في دور المنظمة الوظيفي الحقيقي.

بحثه أثار موجة عريضة من الغمغمات والنقاشات بين أعضاء المنظمة الفاعلين في جميع أنحاء العالم.

في مدينة «أريكا» في تشيلي كان هناك خبير شاب في ميكانيكا طيران الحشرات والكائنات الدقيقة، يمارس الجنس مع سيدة أربعينية من أعضاء المنظمة الإداريين. التفاصيل هنا مهمة، السيدة كانت ربة منزل لديها زوج وطفلان. التقت بالشاب من خلال المنظمة، حيث طلب منها البحث عن فرص للسفر لأوغندا لاستكمال بعض أبحاثه. سافر الشاب لأوغندا هناك وصلته أصداء أبحاث إيهاب حسن، عاد إلى مدينته الجميلة «أريكا» والتقى بالسيدة مرة ثانية، دعت نفسها لزيارته في منزله. مارس الجنس كأنه قطار بلا قضبان، لعق كل شبر في جسدها، وضع إصبعه أولًا في مؤخرتها، ثم أتبعه بقضيبه. تألمت فأدخله ببطء وعلى مراحل مُتمهلة، ذلك البطء في عملية الإيلاج، ورعشات الألم التي كانت تخفق على صفحة وجهها، جعلته يهدأ أكثر، يرى الأمر أكثر صفاءً، يقترب بوجهه من وجهها يديره، ويطبع قبلة على شفتيها، قبلة مليئة بالحب الصافي النقي النابع من إدراك واحدة من الحقائق التي تجعل دفقة نور تتدفق في معدتنا.

همس في أذنها

ـ ربما كان الأمر هكذا فقط، الاستمرار، الاستمرار إلى ما لانهاية.

عبارة الشاب وصلت إيهاب في رسالة نصية على تليفونه المحمول يوم 2 أبريل 2001 بينما كان يسير في الجادة الخامسة بمنهاتن نيويورك. قرأها ثم رفع رأسه ناظرًا للسماء.

ولم يعد شيء في حياة إيهاب إلى ما كان عليه قبل هذه اللحظة، كأننا في واحدة من

تلك القصص الصينية حيث مفتاح الحل يكون على بعد خطوتين، لكن مع ذلك لا تراه لأنك تنظر للخلف.[24]

***

مبنى قديم مُتهالك من مباني روض الفرج على واجهته في الدور الأول توجد لافتة سوداء مكتوب عليها بخط أبيض: دكتور أحمد محمود حامد، دكتوراه في أمراض الباطنة. اللافتة أكلتها الشمس والرطوبة والأتربة، تقشَّر الطلاء في الكثير من أجزائها. مدخل العمارة لُصق عليه الكثير من الورق «مركز النحافة والتخسيس العالمي. نعالج الصلع والضعف الجنسي وجميع أمراض الذكورة. علاج فيروس الالتهاب الكبدي الوبائي بي وسي. نعالج السكر نهائيًا بإذن الله» ثم مجموعة من أرقام التليفونات.

نشاهد مثل هذا الورق في شوارع القاهرة يتكاثر دائمًا في كل مكان، والغريب أنه لا يوجد من يعلم متى كانت بداية انتشار مثل هذا الورق العلاجي. في الحافلات العامة مثلا سنجد ورقة عن إطالة القضيب وتكبير الثدي وتصغيره في الوقت ذاته دون عمليات جراحية، في الشوارع المغطاة بأعمدة الكباري سنجد أوراق علاج السكر والتهاب الكبد الوبائي. العناوين في الغالب غير موضحة على هذه الأوراق هناك فقط أرقام التليفونات.

صعد بسَّام بهجت يحمل في حقيبته كاميرا صغيرة، وبصحبته إيهاب حسن سلالم البناية المتهالكة. توقف الاثنان أمام باب خشبي، ضغط إيهاب الجرس مُبتسمًا، وبسام كالعادة نصف مُندهش نصف مُتحمس.

فتح الباب رجل ثلاثيني أصلع، شبشب جلدي في قدم ذات أظافر طويلة، بنطلون

(24) يحلو لي أحيانًا تخيل لحظة «التنوير» والاستيقاظ التي جمعت التشيلي بإيهاب حسن كواحدة من لحظات تجلي «السمعاني» صاحب الإشراق، الأب لكل أبناء وشياطين القرن التاسع عشر ومبدع «كنيسة العمل». بينما أتخيل لحظة انبلاج «بابريكا» بلحظة الإشراق التالية التي عبرت بأذهان أعضاء الجمعية من «السمعانيين» في القرن التاسع عشر.
أتذكر تحديدًا هذا الاجتماع بالمنزل المتواضع في شارع النصر بالدائرة التاسعة بباريس عام 1846، حينما وقع التلامذة عقد تأسيس «شركة دراسات قناة السويس» برأس مال قدره 150 ألف فرانك فرنسي. المضابط معلنة ولا حاجة للتنقيب عنها في الأرشيف، يتردد صدى كلمات «المستنير» في نهاية هذا الاجتماع كما حفظته المضبطة: «أيها السادة، لم تعد قناة السويس نظرية فلسفية ولا هي مسألة سياسية. إنها صفقة تجارية».
القطار غادر المحطة، لكن الأرض لم تكن ممهدة بالقضبان.

قماش أخضر، قميص ترابي اللون، ذقن نصف محلوقة. نموذج لوحيد القرن البري أحد حيوانات القاهرة المشهورة.

ـ سلام عليكم.

ـ المركز سيفتح في الساعة 8.

ـ لدينا موعد مع الدكتور.

ـ حضرتك أستاذ إيهاب.

ـ نعم

ـ تفضلوا.

على العكس من الخارج، الشقة نظيفة تمامًا تفوح منها روائح عطرية طيبة. ديتول ومواد مطهره، بخور برائحة الصندل. الألون كلها بين الأزرق والأبيض، حتى الكراسي والكنب تمت تغطيتها بأغطية زرقاء لحمَايتها من أي وسخ أو شوائب غير مَرغُوبة يمكن أن تكون عالقة في ملابس الجالسين. أحيانًا هم مرضى، أحيانًا زائرون مصابون بالوسواس القهري، نساء أو فتيات يبحثن عن قدر من الثقة في النفس، أو هياج يتبعه شيء من الراحة.

يغيب وحيد القرن في غرفة من الغرف الكثيرة المحيطة بالصالة والمغلقة بأبواب بيضاء اللون. يخرج مُغلقًا الباب خلفه، ثم يتجه لباب آخر، يفتحه مشيرًا للداخل:

ـ الدكتور في انتظاركم.

بالنسبة لإيهاب حسن فالدكتور محاولة لاكتساب حليف جديد لصفه، قد يكون لديه ما يمكنه أن يساعده في معركته ضد بابريكا، وقد لا يكون. لا يعوِّل إيهاب كثيرًا على الدكتور، لكنه على الأقل قد يكون حَائط صد وأداة مواجهة تؤخر من استخدامه لسلاحه الأخير، نشر الوثائق وهدم المعبد فوق رؤوس الجميع.

الدكتور، رجل عجوز جدًا، أكبر عجوز رآه بسام في حياته، لكنه مع ذلك يبدو مُتمَاسكًا، شعره مُصفف إلى الجانب الأيمن على طريقة محمود ياسين، لا يرتدي نظارة طبية، و«البايب» معلق في فمه. خشبي، عتيق، كبير الحجم، عليه نقوش يصعب تمييزها،

دخانه يملأ الغرفة التي تتكون من مكتب يقف خلفه الدكتور، وسرير كشف في ركن من أركانه دولاب زجاجي يحتوي على بعض الأدوية والأدوات الطبية. ميزان طبي متآكل، لا نعرف هل يعمل أم لا يعمل.

كل شيء هنا يجمع بين السمو والتدهور، الفخامة والحقارة، التبجيل والتنكيل. هذه عيادة الدكتور، الاسم المعلّق في الخارج ليس الاسم الحقيقي، بل واحد من الأسماء التي يتخفّى خلفها. الدكتور يبلغ عمره الحقيقي 174 سنة، ولكي تعيش مثل هذه الحياة يجب أن تغير محل إقامتك، وتحافظ على ورقك الرسمي مُستعَارًا، تسير في الشوارع بعيدًا عن الأضواء وتحت أغطية كثيفة من العدم. كل هذا لكي تعيش أكثر من حياة لتنجز مُهمتك.

الدكتور لا يهتم أيضًا بالصراعات الدَاخلية دَاخل المنظمة، هو مُتفرغ منذ عقود طويلة لأبحاثه في مجاله الخاص.. الإيهام والأثر البيولوجي على جسد القائم بالإيهام، وعلى أجساد كل المتوهمين. الدكتور يحقق منذ سنوات نجاحات كبيرة في هذا المجال. توصل منذ سنوات لعلاج بعض أمراض السرطانات في بدايتها، قدرته على الإيهام ذات تأثير على الخلايا والأعضاء البيولوجية، باستطاعة الدكتور أن يتدخل في عملية التواصل بين الحواس والعقل، وبين العقل وأعضاء الجسم. إلى جانب مشروعه العلمي، فالدكتور طبقًا للتوصيف الإداري في الْمُنظمة «حَارس مدينة». تحديدًا هو الحارس المعين والمختار للقَاهرة. المنصب نفسه الذي ستعرضه عليَّ بابريكا بعد ذلك بسنوات، لكن هذه المرة كان منصبي الحالي حارس مدينة 6 أكتوبر.

صوت مجموعة كلاب تنبح في الخارج، الساعة تتجه نحو الرابعة، والأطفال يستغلون مثل هذا الوقت الذي تبدأ فيه الشمس رحلة وداعها للعب في الشارع على ضوء الغروب الحاني. شيش شباك الغرفة نصف مغلق، يدخل ضوء ضعيف منه. الدكتور يقف مرحبا خلف مكتبه، ملامحه ثابتة، لا يصافحهما بل يشير إلى كرسيين أمام المكتب:

ـ تفضلا.

يجلس بسام مُرهقًا من صعود السلم، يفرد إيهاب صفحة من جريدة الفجر الأسبوعية، يلقيها على المكتب، في الصفحة تظهر مجموعة من الصور للطفل السمكة، إيهاب يسأله بصوت محايد كمن يقلب السكر في كوب الشاي:

ـ هل رأيت هذا؟

الدكتور ينزل بعينه على الصفحة، ببرود وصوت حيادي.

ـ هل هذا نموذج جديد لتشوه الأجنة؟

ـ إيهاب يجيب بنفس الصوت الذي يصدره السكر عند ذوبانه في الشاي:

ـ بل كابًّا.[25]

رفع الدكتور الجريدة إلى مستوى نظره، أخذ نفسًا عميقًا من غليونه نصف المنطفئ ثم نزعه من فمه وقال:

ـ ليس كابًّا.

اقترب إيهاب خطوة من المكتب ثم جلس على الكرسي المقابل لبسام، ورد:

– إنه كابًّا متطوِّر جينيًا، لديّ دلائل أن بابريكا هي المسؤولة عن وجوده هنا.

ـ لكن مهما كان تطوره من الصعب أن يعيش في مياه النيل.

ـ ربما كان في مهمة تطلبت مروره بتعديلات.

سكت الاثنان للحظة، تبادلا النظرات في صمت يشبه صمت ذوبان السكر في الشاي.

(25) الكابًّا أحد مخلوقات الكريبتوزولوجي (علم الحيوانات المخفية). في ديانة الشنتو باليابان يعتبر أحد الآلهة المائية. تظهر معظم الأعمال الفنية والأدبية اليابانية الكابًّا على شكل طفل في بعض الأحيان يأخذ وجهه شكل القرد، أو الضفدع. للأسف بقية ما عثرت عليه يندرج تحت بند علم «الكريبتوزولوجى» والمرويات المعلنة لا تفصل بين شطحات خيال الفنانين اليابانيين وبين تلك التعديلات الجينية أو الوراثية التي يمكن إدخالها بطرق مختلفة لإنتاج آلات بيولوجية مصممة.
تحتفظ بابريكا أيضًا بمفتاح الباب المؤدي لتلك المعرفة.

مقبرة الموسيكا

لا أحد يَصفُ ما يحدث الآن بأنه فوضى. يستخدمون مصطلحات وتعبيرات متنوعة في شكلها لكن جوهرها إيجابي فخور.

اللغات التي يمكن أن تسمعها في الشارع حيث تختلط الإنجليزية الحديثة بالصينية والفرنسية وبقايا العربية يقولون إنها دليل لحيوية الواقع واللحظة، الكل أصبح للمرة الأولى يفخر بالتنوع.

في لقائي مع بابريكا في المطعم المطل على الميناء أشارت أثناء تعدادها لمحاسن ما حدث بأن البشرية كانت قد وصلت لمرحلة تحتاج معها للتخلص من أثر الهويات القومية المرسخة بالسلطة العسكرية والدستورية للدولة. الاقتصاد يمكنه أن يفعل ذلك، امنحوا قوة ومجالًا أكبر للشركات، وأقوى الشركات دائمًا هي شركات المقاولات والاستثمارات العقارية، لذا كان يجب أن تتحول الجمعية إلى واحدة منهما، إلى أقوى واحدة، وربما الوحيدة، أما التنافس فلنجعله لعبة للتسلية بين أقسام وفروع الشركة المختلفة.

ـ انظر يا بسَّام، إنهم يحبون بعضهم بعضًا للمرة الأولى. خلصناهم من الماضي وصنعنا مستقبل ليس مشرقًا تمامًا أتفق معك، لكنه يتجه نحو الضوء الموجود في نهاية النفق.

خسرنا آلاف الفنانين هنا في مصر أثناء العاصفة. وخسرت البشرية أضعاف هذا العدد في معظم المدن الكبرى التي شهدت حوادث مشابهة. من كثرة الأسماء لم أكن أعرف من ظل حيًّا ومن مات ولم أهتم للأمر إلا بعد نحو السنتين حينما سمعت اثنين يتحدثان بالمصادفة في أتوبيس عام ويقولان إن سميرة سعيد قد ماتت في العاصفة. الموت علينا حق ومع ذلك يظل هناك ضوء في نهاية النفق.

والآن بعد عشرين سنة، يتذكَّرون سميرة سعيد في قسم التاريخ ومعمل التوثيق والأرشفة، توضع بياناتها وأعمالها بجوار أم كلثوم.

الجيل الجديد تختلط في ذهنه سميرة سعيد مع أم كلثوم، فالاثنتان في وعي هؤلاء الفتية بناة المستقبل تنتميان إلى الماضي، ما قبل العاصفة حزمة واحدة. عالم مختلف عمَّا بعده.

أعود ثانية إلى معرض «برقية حب للضفادع» وهو المعرض الذي شارك فيه نحو تسعة فنانين شبابًا أكبرهم كان عمره خمسة أعوام وقت العاصفة. هناك شاهدت عملًا وظف خلاله الفنان واحدة من صور سميرة سعيد الضاحكة حيث تلمع حبات أسنانها تحت ضوء الفلاش، واستخدم خط الثلث العربي ليكتب في الخلفية عبارة «فات الميعاد» وفي أعلى اللوحة توجد شمس ذات لون أخضر وعقارب الساعة متوقفة عند التاسعة وربع، أما إطار اللوحة فقد تمت إحاطته بمصابيح كهربائية صغيرة وملونة.

وقفتُ بعيدًا وأخذت أراقب الجمهور الذي كان معظمه من جيل الشباب وهم يعبرون أمام اللوحة، يتوقفون لثوان وأحيانًا لدقائق، يتظاهرون بالتأمل أو يتأملون بالفعل. تحدثتُ مع بعض الجمهور وصافحت الفنان صاحب العمل سريعًا. ولا أحد يلتفت للتناقض بين عبارة أم كلثوم وصورة سميرة سعيد، هذا إذا وجد بينهم من يحسن أو يجيد قراءة الأحرف العربية القديمة، حيث أصبحت هناك مجموعات كاملة من هؤلاء الشباب يستخدمون الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية.

في مصر والعالم كله نمت تأويلات جديدة لعلم النفس بعد العاصفة، واندمجت هذه التأويلات مع سياسات شركات الإعمار الجديدة لإعادة هندسة الفرد وبالتالي هندسة الأسرة فالمجتمع ككل. كانت إحدي أبرز هذا الآليات ضرورة إحراق الحنين. فحتى بعد علاج الصدمات العصبية التي تولَّدت عن ألم الخسارة وفقدان الأحبَّة اللذين حدثا للكثيرين، لم يكن من السهل السيطرة على الارتدادات غير المباشرة التي قد تنشأ بسبب لحن قديم، أو مشهد من فيلم أقدم أو أي منتج ثقافي آخر.

حذرت تقارير كثيرة من مخاطر الاستماع للموسيقى القديمة -يقصد بها موسيقى ما قبل العاصفة- وقدرتها على إثارة الحنين بشكل يدفع للبكاء، ويصنع صدمات ارتدادية تستهلك الكثير من طاقة الأفراد التي كانت شركات الإعمار في أمس الحاجة إليها.

انظر للمستقبل.

حين نجتاز فترة هم أو خيبة شيء ما كالبلغم في الحلق يمنعنا من الاستمرار في العيش، أبلعه، أكبته. الذكريات المكبوتة تُمحى، يتطلّب الأمر زمنًا، ولكنها تُمحى، بالفعل. هذا ما كان يروِّج له علم النفس الجديد ومؤسسات التنمية الذاتية وإعادة تهيئة وبناء الفرد الجديد. وكنت أبتسم من كل هذه الدعاية والترويج لمثل هذه الأفكار بسبب إيمان خاص بي بأن التجاوز وهم، والنسيان أمر نسبي جدًّا، والأهم أني كنت أتابع كيف كانت تتم عملية إعادة صياغة الماضي والذاكرة، وإصباغ أوصاف مبالغ فيها عن القاهرة وجمالها وعظمتها وكمالها. كانت العملية دائرة من اللاجدوى، ابتكار ذكريات مبالغ في موضوعيتها أو حدوثها ثم الترويج لها ثم طلب نسيانه وتجاوزها.

هكذا كان عمل الجمعية مع بابريكا، امتدادًا لأفكار دائرة الحياة اللانهائية.

الإيهام والاستمناء

ثم أمسك أحد القتلة المقنَّعين بقصبة سوداء قصيرة، وضع طرفها بين شفتيه. كان على مسافة ثلاثة أمتار مني، ومن مكاني سمعت صوت الهواء يخرج من رئتيه، ليدفع السهم المدبب في اتجاهي. لم يكن باستطاعتي تفاديه، فكرت لجزء من الثانية في تفاديه، لكن لم أجد أي داع لذلك، ارتطم السهم بكتفي. ركبتي تحولت إلى مهلبية وانهرت دون وعي على الأرض، شاهدت الدم ينساب من صدر «مود» وكان السكين لا يزال مغروزًا في قلبه، وبجواره كان أحد رجال النينجا المقنعين جثة هامدة بعدما نجح مود قبل أن يتلقي الطعنة في تهشيم رأسه. رمشت بجفني لا إراديًا مرة أو اثنتين وشعرت كأن أحدهم يغلق الأنوار أمام عيني، لم أعرف هل هو الموت أم مداعبة ثقيلة الظل من بابريكا.

حينما استيقظت كنت في شقتي الصغيرة المتواضعة بـ 6 أكتوبر، غير أن كل شيء في الشقة تكسوه طبقة كثيفة من التراب، لم أكن في سريري بل نائمًا على كنبة الصالة، اعتدلت جالسًا، وشعرت بالهواء ساخن، والعرق يبلل ثيابي ويترك بحيرة جافة مكان نومي على الكنبة.

كان كل شيء قد انتهى. لم أكن واثقًا بل أحسست بذلك فقط، اتجهت نحو الثلاجة في المطبخ فتحتها فلم أجد ولا زجاجة مياه واحدة، فتحت الصنبور بدا جافًا هو الآخر عدت مرة ثانية للثلاجة وفتحت الجزء العلوي حيث الفريزر، ووضعت رأسي داخله وأخذت ألعق الثلج من على جوانبه.

***

حينما يسألني أحدهم «أنت عشت النكبة، أنت حضرت العاصفة الترابية، والزلازل..

احكِ لنا، أخبرني يا بسام كيف نجوت؟» أبتسم وأتظاهر بالتأثر، أمضغ الأسف كعلكة وأبصقها في صوتي «كانت لدي شقة في 6 أكتوبر، لم أخرج من المنزل».

يهزّ المتحدِّث رأسه متفهمًا. لا يرغب بالتأكيد في توجيه أسئلة أكثر، الجميع لديهم أحباء فقدوهم في العاصفة، الجميع يحتاج للمواساة، ولا يحاول نكأ الجروح القديمة لأي شخص.

شعرت في السنوات الأولى التي تلت النكبة أن بابريكا كانت على حق، بل كنت أشعر بالحنق لغبائي وثقتي المفرطة في إيهاب حسن.

بابريكا كانت على حق. أقول لنفسي وبائع السوبر ماركت يبتسم لي وهو يعطيني ما طلبته، المدينة كانت عبئًا حقيقيًا على أرواح قاطنيها.

عشت مصابًا بالعجز بعد النكبة، تهت في شوارع 6 أكتوبر، سهرت الليالي عاجزًا عن النوم، كنت مفزوعًا. ماتت أمي بعدها بسنة ونصف السنة. وانقطعت صلاتي بكل أفراد العائلة الذين نصحوني أكثر من مرة بالعودة، لكني ظللت متمسِّكًا بشقة 6 أكتوبر. بالحياة على أنقاض النكبة. على منظر عام يطل على الكارثة.

شاهدت الناس وهم يتغيرون، يشعرون بالصدمة، ويفيقون على أنهار من الدموع وكوابيس لا تنتهي، الاقتصاد وهو ينهار، والمجاعة وهي تسود، والمعونات وحملات الإنقاذ الإنسانية والتاريخية، ثم القيام من جديد والنهوض من تحت الرماد، كل هذا في خمس سنوات. ظهرت بعدها مصر جديدة، لم تكن مصر بالمعنى المفهوم سابقًا فالاسم مجردًا «مصر» أصبح يعني حيزًا جغرافيًا محددًا على الخريطة التي لم تعد تحتوي على حدود مرسومة باليد. العالم كله بدأ في التغيير. ما حدث في القاهرة تكرر بسيناريو مشابه في كل من نيويورك، كوبنهاجن، فوكوشيما، والكثير من المدن الساحلية ومدن أخرى ربما لا أستطيع تذكرها. زلازل، تسونامي، عواصف ترابية غريبة غير مفسرة.

لقطاع كبير من البشر بدا أن القيامة قد اقتربت، وستار النهاية يسقط ببطء نحو الأسفل. قطاع آخر كان يرى أن هناك ضوءًا في نهاية النفق.

الجمعية تعاظم دورها، ظهر تحالف الشركات الكوني، 9 شركات كبرى يضمها تحالف واحد، زاد عدد أعضاء التحالف إلى 12، ثم 21، ثم 99، كانت هناك فقط شركة

واحدة تحكم هذا العالم، شركة «معمار» مجلس إدارتها يضم مجموعة من الدمى تحرِّكهم بابريكا. ما ظنه إيهاب سيقود لنهاية المنظمة من كشف وجوده أدى إلى تطوير هذا الوجود وإشهاره ووضعه تحت السيطرة.

أعمال الشركة تبدأ من تنظيم أعمال المحاصيل الزراعية في 60٪ من الرقعة الزراعية في جميع أنحاء العالم، حتى تصنيع السيارات والأدوية، دعم شبكة الإنترنت الثانية، صناعة الأسلحة الخفيفة والثقيلة التي تباع لشركات تأمين تحمل أسماء متعدِّدة، وفي الوقت ذاته ليست سوى قطاعات من شركات «معمار» الأم، نظم تأمين المفاعلات النووية، إعادة تدوير 75٪ من نفايات العالم، تطوير نماذج وأدوات الاتصال من الموبايل حتى شرائح يمكن زرعها تحت جلد الرأس تؤدي كل خدمات التواصل والإتصال ومن يقلق مثلي من دمج التكنولوجيا بأجهزته العضوية لا يزال بإمكانه استخدام أجهزة اتصال تأخذ شكل الموبايلات القديمة أو ساعات اليد أو أزرار القمصان، إدارة إمبراطوريات إعلامية كونية ضخمة، مئات العلامات التجارية لملابس الأطفال والمراهقين، فساتين السهرة، البوكسرات الذكورية الملونة، منتجات بورنوغرافية يزداد تنوعها كل ساعة، القمصان الداخلية اللامعة وغيرها من الملابس النسائية المهيِّجة، جينز رجالي ونسائي ومخنث. العالم كله يتغير، وأخيرًا في ظرف عشر سنوات كان عصر الحكومات القومية ينحدر، ينتمي للتاريخ أكثر منه للحظة الراهنة، الدولة القومية وسلطة الحكومة على أفرادها ونشاطاتهم الاقتصادية أصبحت مسألة شرفية.

المدن الكابوسية التي أسستها الدول القومية القديمة سقطت في عواصف ترابية زلازل فيضانات، أعاصير، وتمددات مفاجئة لمياه البحر. حتى المدن التي تبقت أعادت شركة «معمار» الكونية صياغتها وتلوينها، الحدود كانت تحتضر، الجغرافيا تغيرت.

كل هذا كان يحدث في الخارج، وأنا في شقتي في 6 أكتوبر، صباحًا أعد الأفلام التسجيلية عمَّا حدث، وجهود «إعمار» وتغيير المدينة والعالم، وليلًا أتوحد في النافذة أو أمارس الاستمناء على السرير ناظرًا لسقف الغرفة.

لم أكن جاهلًا، ولم أكن في الفريق المنتصر. لم يكن لي مكان فيما يحدث، حتى مونى مي الوحيدة التي تبقَّت لي، سافرت للعمل في الخارج. وقررنا أنه من الأفضل المحافظة على مستوى تواصل مُنخفض. هي استطاعت أن تُكمل حياتها، عاشت لفترة على المسكنات وتدربت على النسيان، ثم أصابها الملل من المدن الشمالية الباردة.

عادت إلى القاهرة أو ما تبقى منها في 6 أكتوبر لتتوحد مثلي مع نفسها ومع الاستمناء الداخلي، بينما أنا كنت قد دربت نفسي على مستوى من الحزن يمكنني من إكمال الحياة.

***

«ليس من المفروض أن تكون القاهرة هكذا.

ليس من المفروض أن يجري النيل هنا.

ليس من المفروض أن تكون الحياة هكذا، أن يكون هذا هو واقع العالم ومصيره، يجب أن يكون لنا دور أكبر، يجب الآن أن نتدخل لإيقاف هذا الهراء».

تقول بابريكا في خطبة طويلة لأعضاء المجلس الأعلى في المنظمة، وهم مجتمعون في شقة إيهاب بشارع عدلي.

تطرح أفكارها حول نظرية الإيهام وتكمل «لقد تركناهم يبنون أفكارهم الحمقاء، يضعون السور فوق السور، والحائط بجوار الحائط، يعانون من التعاسة، بينما نحن وسطهم أيضًا نعاني من التعاسة. لماذا لا نفعل شيئًا أقوى من أبحاثنا المستمرة إلى ما لا نهاية».

يطرح إيهاب مداخلة: «ما نفعله هو جوهر وجودنا، السؤال وطرح المزيد من الاستفسارات، البحث عن المعرفة والمزيد منها، ومد البصيرة إلى ما لا نهاية هو جوهر وجود وعمل هذه الجمعية، هو جوهر وجود الحياة على سطح هذا الكوكب. ولا يمكننا ادعاء المعرفة كاملة وتحديد الصواب من الخطأ».

لا تبدي بابريكا أي اعتراض أو اهتمام بمداخلة إيهاب «وكيف نختبر صدق بصيرتنا، حقيقة معرفتنا إن لم نضعها محل الإختبار والتجريب، إن لم تكن جزءًا من معركة الواقع، إن ما أدعو له -على الرغم من قسوته- جزء أساسي من البحث عن المعرفة، وأنا أثق في أن جميع من في الغرفة لديه الكثير من الأسئلة التي لن نجد البيئة الصالحة لطرحها إلا بتغيير شروط الواقع الحالي».

ريم كانت ترى كل هذا. كانت تسمع، وترى.

حينما تعرَّت للمرة الأولى مع بابريكا، وعانقتها الأخيرة وألصقت شفتيها بشفرات كسها، بكت ريم.

كانت هناك أسهم سوداء تخرج مندفعة بقوة أنفاس شيطانية من قصبات سوداء قصيرة، تطعنها في كل مكان. تأنيب الضمير، إحساس الذنب الناتج عن عصيان كل وصايا العائلة والدين، نفاق وضغوط المجتمع التي لا تنتهي، غدر الأحبة، العواصف السوداوية والكئيبة التي تهاجمها. كلها تضغط على صدرها، تعصر قلبها، وبابريكا في الأسفل تداعب بلسانها الوردي شفرات كسها الرقيقة.

فجأة رفعت بابريكا رأسها، صعدت نحو وجه ريم المبلل بالدموع الصامتة، عانقتها وهمست في أذنها بالإنجليزية:

-كل هذا الألم وهم، كلها أوهام شريرة، هزِّي رأسك وانفضيها من شعرك يا صغيرتي.

لكن ريم كانت قد وصلت في مرضها إلى مرحلةٍ لا يمكنها خلالهما الحياة دون وهم تؤمن به. حياة ريم كانت كلها عبارة عن سلسلة من الاندفاعات من موجات الحب والإيمان، تتبعها ثورات صغيرة من الشك وخيبات الأمل.

كان الدين أولها، الله والمسجد وصحبة الوالد بالحجاب الصغير نحو مسجد السيدة نفيسة رضي الله عنها، ثم الشك وتصاعده، والشكوى في الجامعة من غياب العدالة الاجتماعية، ثم البكاء على كتف الحبيب الأول والزوج بعد ذلك، الشك في الأيديولوجيا، والثقة أكثر في الحب، ثم موت الحب كَئبةٍ أصابها الجفاف، ثم أخيرًا محاولات الإيمان بالنفس، أبادلها الحب وأشعر بها تقترب من قلبي ببطء، لكنها تتركني في الليل لتستلقي على الكنبة في الصالة تفتش عن نفسها في داخل نفسها.

صوت بابريكا «هزِّي رأسك وانفضيها من شعرك يا صغيرتي، الأفكار الخبيثة حشرات سيئة يمكننا التخلص منها».

مع كلبها في شقتها تكتشف ريم كمْ هي وحيدة، كم هي ضعيفة دون إيمان، دون وهم.

بابريكا عرفت منذ اللحظة الأولى أنه ما من علاج لداء ريم، سوى وهم جديد. إيمان يثبِّت القدم على الأرض. وإذا كان ليس من ذلك بد، فليكن هذا الوهم مفيدًا للآخرين على الأقل. لتكن ريم مسيحًا جديدًا يضحِّي بنفسه من أجل حياة جديدة لابن الإنسان.

منحت بابريكا ريم وهمًا جديدًا يحافظ على تماسكها، ثم استهلكتها لتعظيم تجربته، كانت بابريكا تحتاج لحياة ثامنة تضاف لحيواتها السبع والسبعين، وكانت في حاجة لجسد ولتضحية لكي يمكنها تحريك كل الأرواح وتجميع كل الطاقات غير المرئية وصياغتها وتشكيلها لتحقيق مشروعها.

ضرورة هدم وإنهاء القاهرة.

أصبحت ريم جزءًا من بابريكا، وبابريكا كل من ريم، بقوة الإيهام والاستيهام.

ذات صباح لن أستيقظ

لكل مدينة حَارس، وظيفته ليست الحمَاية، بل الحفاظ على أسرَار المدينة ومفاتيحها.

لكل مدينة مجموعة من الأسرار، قد تكون سرًا واحدًا أو تسعة وتسعين، ولكل مدينة سبعة مفاتيح. البعض يقول إن الأمر ليس أكثر من خرافة، البعض يعتبره حقيقيًا. ما دام الحراس يحافظون على سرية ما يعرفونه، فالأمر ليس مؤكدًا.[26]

الدكتور كان حارس القاهرة، وحينما سألته بسذاجة عن سر من أسرارها، نظر إلى مجرى نهر النيل تحتنا فوق كوبري الطريق الدائري الموصل لمخرج منطقة الوراق، ثم ابتسم ابتسامة صفراء والهواء يطير شعره وقال:

ـ ما الذي تتوقعه يا مغفَّل؟

ـ هل بإمكانك تجاوز ازدحام الطرق مثلًا؟

استدار وأخذ يتأمل حركة السيارات فوق الكوبري، من موقعنا كنا نعرف أنه على بعد كيلومترات سوف يمتد صف طويل من السيارات واقفة في طريق انتظار غير نهائي فوق

(26) لاينطبق هذا على كل المدن القديمة. لكن منذ القرن التاسع عشر ومع النمو البشري وإخضاع المدينة لسيطرة ما عُرفت وقتها بالثورة الصناعية، أو ما أفضِّل أنا تسميته «بالإشراق الأول ليد الأخوية» حاولت التيارات القديمة التي رفضت الاندماج في العالم الجديد الحفاظ على عين لها تسهر على الانحرافات الحرجة وتحرس الدهاليز السرية. ويعود الفضل في تدعيم هذه السياسة إلى الأمير عبد القادر الجزائري الذي طور من نظام ميكانيكا حراسة المدن، وأوكل المهام لمن تفرعوا من عرق الخضر عليه السلام.

الطريق الدائري الذي يطوِّق القاهرة. أما داخل المدينة فقد كان الازدحام والانتظار هما الإيقاع الطبيعي للحياة. قال الدكتور «لا يمكننا الطيران، للأسف»[27]

طلب الدكتور أن يشاهد كل الأفلام التي صنعتها للجمعية[28]، ثم أخذ يسألني عن المناطق التي أبدت بابريكا اهتمامًا كبيرًا بها. وكان من ضمنها تلك المنطقة التي نقف عليها، كوبري الطريق الدائري الواصل لمنطقةِ الوراق.

إيهاب أخبرني «لم نكسبه بعد، لكن لا نريد أن نخسره».[29]

من هنا يخرج النيل مُغادرًا القاهرة. كان يحاول أن يقرأ من خلالي ومن خلال ما

---

(27) حينما سقطت «الزمالة» في يد الفرنسيس، انفعل بعض التلامذة وحثوا الأمير عبد القادر الجزائري على إيقاف هذه البربرية والطموح المدمر لإخوته في أخوية الجمعية. تنسب المدونات إلى أحد التلامذة الأفارقة مطالبته الأمير باستخدام أسلحة أكثر تطورًا، لكنه رد بالجملة التي يقتبسها الدكتور هنا «لا يمكننا الطيران للأسف».

(28) عام 1942 تحركت قوات البيكونوري الفرنسي لاحتلال قلاع الأمير عبد القادر الجزائري. في باريس دعم أفراد من الأخوية الحملة، في العلن كان الهدف نشر الحداثة والقضاء على الهمجية وإعادة تنظيم العالم. في الخفاء كان هدفهم الضغط على الأمير بهدف الانقلاب والانضمام إليهم، حيث من خلاله يمكنهم فتح أبواب المعارف القديمة. في أسوأ الظروف راهنت أخوية باريس على هزيمة الأمير عبد القادر أو وضعه في موقف يدفعه إلى الإفصاح عن قدر من كنوزه، لكن الأمير رد الخنجر الفضي إليهم.

حينما داهمت القوات الفرنسية عاصمته وقتها «تاقدمت» وجدتها خالية وقد أمر الأمير بإخلائها من السكان ونقل القطع الحربية المهمة ومصانع الأسلحة ومشاغل الذهب ومدابغ الجلد ومكابس الورق. ابتكر الأمير «الزمالة»، أول وآخر مدينة سحرية متكاملة. مدينة متنقلة تختفي وتظهر في قلب الصحراء يصل عدد سكانها إلى سبعين ألف نسمة.

في المنتصف «الدائرة» حيث خيام الأمير وعائلته ومعاونيه المباشرين وخيوله وحرسه الشخصي المكون من ثلاثين عبدًا أسود – قيل إن منهم التلميذ الأفريقي الذي سبقت الإشارة إليه– ثم فرسانه الذين يرتدون السترة الحمراء والسروال الأزرق مع بُرنسين أحدهما أبيض والآخر رمادى. وحول الدائرة دُوارات، كل دوَّار من ثمانين إلى ثلاثين خيمة. إلى جانب مكتبة الأمير وتلامذته ومسجد مثمن الأضلاع صممه الأمير بنفسه على هندسة مسجد الصخرة في القدس.

تضرب «الزمالة» في بقعة في الصحراء على مسافة مناسبة من مدينة قريبة، قد يمكثون أسبوعًا أو أقل، قد يأتي الخبر بإشارة عن كتيبة فرنسية شاردة، فترفع «الزمالة» الخيام وتنطلق في الغبار، تختفي المدينة وتظهر في مكان آخر مع الفجر.

(29) بسبب التجربة المؤسفة التي مر بها الأمير عبد القادر الجزائري وتلامذته مع عاصمتهم «الزمالة». فقد كانت للحراس طبيعة متشككة دائمًا ومتقلبة، وحيث إنهم يتحركون بالأساس بموجب خُلق نسكي غير متزن سلوكيًا فلا يمكن التنبؤ بتقلباتهم.

أخبره به من أحاديث مع «بابريكا» ومساعدتها الشخصية السيدة ريم ما تفكر فيه ريم. إنها تتحدَّث عن ضرورة تغيير تلك الصورة وعن ضرورة إنهاء هذه المأساة وهدمها وبنائها من جديد، لكن ما هي الخطة؟ ما هو المخطط؟ كان الدكتور يحاول القراءة ويبحث عن إجابات.

ولم تتأخَّر الإجابات.

هبَّت العواصف الترابية في اليوم التالي، وبدأت الفوضى. كان من المقرر أن يغادر إيهاب إلى لندن لكن المطار تم إغلاقه بسبب سوء الأحوال الجوية.

ثم انهار كوبري الطريق الدائري الواصل إلى الورَّاق، الكوبري نفسه الذي كنت أقف عليه مع الدكتور نعاين المنطقة على الطبيعة في مُحَاولةٍ لقرَاءة ما هو داخل عقل بابريكا.

مكثت في المنزل يومين مُحَاولًا تجنب الرمال التي تملأ الجو، هاتفت ريم لتحديد موعد لاستكمال تصوير الفيلم، لكنها لم ترد.

وذات يوم في الرابعة فجرًا وصلتني رسالة قصيرة من تليفونها المحمول تحتوي على عبارة واحدة «ذات صباح لن أستيقظ».

حاولت مهاتفتها بعد ذلك لكن التليفون كان دائمًا خارج نطاق الخدمة.

***

حكى لي الدكتور يوم نزهة كوبري الورّاق حكاية مؤثرة ظلت لفترة في ذاكرتي، وأرى الآن كم كانت مؤثرة على قراراتي وقتها.

قال لي «هل تعرف «كريستوفر رين» يا ولد؟

لقد كان معماريًّا بريطانيًّا شهيرًا، وأحد رموز الجمعية والمساهمين في تطويرها داخليًا نحو حقبة ما بعد الحداثة، أما على المستوى المعلن فقد أسهم كثيرًا في إنشاء مكان لا أذكر اسمه الآن في إطار سياسات خلق أماكن مشجعة للباحثين الشباب من خارج الجمعية لتطوير خلفياتهم المعرفية. ليس هذا هو المهم الآن.. عمَّ كنت أتحدَّث؟»

ـ شخص ما اسمه كريستوفر رين.

ـ نعم في القرن السابع عشر تقريبًا، على ما أذكر، نشب حريق هائل احترقت فيه نصف مباني لندن، كان رين أحد اللاعبين الأساسيين، هناك نمائم تاريخية مُتداولة أنه كان مسؤولاً عن تلك الحرائق، بعدها وضع رين مجموعة مخططات جديدة للمدينة تشمل جادات واسعة وميادين تقليدية راقية مشابهة للموجودة في بقية المدن الأوربية في ذلك الوقت. نجح رين في تنفيذ بعض أفكاره، لكن أكثرها وأهمها لم ينجح في تنفيذه. على سبيل المثال كانت لديه ملاحظات أساسية عن حتمية الاعتماد في البناء على الأحجار الجيرية والإسمنتية لتلافي مثل هذه الحرائق مرة أخرى وهو ما رفض تنفيذه عدد من سكان المدينة. خطط لإعادة رسم التخطيط الديمغرافي للمدينة عبر القضاء على الأحياء القديمة والفقيرة، وهو ما لم يحدث أيضًا. مخططاته الأساسية والتي لم يعلن عن بعضها وإن حفظت في السجلات الأرشيفية للجمعية، كانت ستحول لندن إلى قطعة فنية من المستقبل بحق.

بعلاقاته مع الجمعيات الشقيقة وعلى رأسها التنظيم الماسوني الذي كان في أوج مجده في ذلك الوقت، نجح رين في إقناع الحكومة البريطانية بتبني مخططه. لكن الحكومة لم تكن كل شيء، وإذا دخلت في ميدان التفاوض فيجب أن تخفض سقف طموحاتك وتتخلّى عن بعض أحلامك، لم يستطع رين أن ينفذ كل شيء. واتخذ أصحاب الأراضي قرارهم بإعادة إنشاء مبانيهم بالمخطط السابق نفسه، والذي وضع شكله العام الرومان في القرن الأول الميلادي، ولم يتمكن كريستوفر رين من تنفيذ مخططاته التي كانت ستنظم شوارع المدينة وتجعلها أكثر قربًا لنظيراتها في أوربا، إلا أنه تمكن من تنفيذ تصميماته لكنائس وكاتدرائية المدينة... هل فهمت شيئًا؟

ابتسمت «نعم». ولا أعرف لماذا، رغم أني رأيت النهاية كثقب أسود يبتلع كل شيء حولي وفي طريقه لابتلاعي أنا شخصيًا.

أحيانًا يستلزم الأمر استخدام الديناميت لتفجير ثقب صغير يدخل منه الضوء في نهاية النفق.

اتجهنا نحو السيارة كورية الصنع، التي يقودها وحيد القرن المساعد الشخصي للدكتور وهو يكمل حديثه:

ـ إيهاب يتحرَّك بناء على تصورات مثالية فلسفية، كما أنه يكن تقديرًا مبالغًا فيه لإرث الماضي، لكأنه يرغب في المشي إلى ما لا نهاية على أن يظل بإمكانه الالتفاف إلى الخلف ومشاهدة أثر خطوته الأولى.

فتح باب السيارة الأمامي وركب، وفتحت الباب الخلفي ودخلت.

«ليس بإمكاني الطيران، لكني واثق أننا سنستطيع ذات يوم». قال ويده تمتد لمفتاح الراديو وتديره فتخرج منه أصوات الإذاعات مختلطة.

الفصل الثامن

الخطوط تنساب من بين يدي كالماء، وحين أفتحها لا أجد شيئًا.

الذَاكرة حديقة للأعشَابِ البرية.

الطقس اليوم صحو.

أترك القبعة وآخذ حذري. أخرج من المنزل. أقف أمام السيارة، أقلِّب المفاتيح في يدي وفي النهاية أضعها في جيبي، أقرر التمشية باتجاه الحديقة. بعد بضع خطوات أفكر أني ربما سأشعر بالسأم، أفكر في مهاتفة أحدهم وقضاء الوقت معه، لكني أشعر باللارغبة في الحديث تطبق على حنجرتي، وليس لديَّ مزاج لزيارة مونى.

أراقب الناس من حولي وأشعر بغربتي. من هؤلاء؟

من أنتم؟

***

أصعد درجتين ثم أجلس على الثالثة وأتأمَّل المنظر أمامي. لا سحاب في السماء، الحديقة بلا أسوار، أرض خضراء تمتلئ بالعشب الذي يحظى بعناية فائقة، لا شيء يشوِّش انسياب المشهد سوى السلالم التي بنيت في الفراغ، ففي كل مكان من تلك الحديقة هناك سلالم يرتفع أقصاها لنحو 60 درجة ثم تهبط ثانية مشكلة ما يشبه البناء الهرمي. لا أعرف الكثير عن تلك الحديقة بل إنني بالأساس اكتشفتها مصادفة أثناء إحدى نزهاتي. انتشرت في الميادين والحدائق العامة أعمالٌ تحاكي الآثار القديمة، شاهدت ذات مرة في مدخل مؤسسة حكومية نموذجًا هندسيًا لجامع السلطان حسن، أما الأهرامات فهي في كل مكان تقريبًا، لكن في تلك الحديقة أعجبني كيف طور المصمم من الشكل الهرمي التراثي ليحوِّله إلى مجرد درج يصعد إلى أعلى ثم يهبط إلى أسفل، لا فرق بين الاثنين الأعلى والأسفل، والصعود إلى الأعلى يؤدي بالضرورة للنزول للأسفل. إلى جانب ما

سبق، تتميَّز الحديقة بمساحتها المتوسطة كما يتم الاعتناء بها بدقة عالية، فهي تخضع لإدارة حاسوبية.

نما بشكل جنوني الاهتمام الفائق بالمساحات الخضراء وبناء الجدران والسدود الخضراء لمواجهة موجات التصحر ومخاطر الصحراء.

كمبيوتر تمتد أذرعه ومجساته تحت الأرض ويرتبط بشبكة الإنترنت، يقيس الكمبيوتر مقدار الملوحة ودرجة جفاف النبات ويحدد مواعيد رش المياه ويضبط الدرجة والكثَافة، وفي الأوقات التي تخف فيها أقدام الزائرين تنطلق الروبوتات الصغيرة لالتقاط بقايا الطعام والأوراق التي ربما تكون قد سقطت سهوًا منهم.

أضع سيجارة بين شفتي، وأشعلها. ومع أول نفس خرج من رئتي مشبعًا برائحة النيكوتين سمعت صوتها بجواري:

ـ ممكن سيجارة؟

***

مدّ يده ليشعل لها السيجارة. أخذت نفسًا عميقًا فاشتعل طرفها، هبطت رموشها على عيونها للحظة، ثم قالت بالإنجليزية ما معناه:

ـ شكرًا.

ردّ:

ـ عفوًا.

نظرت باتجاه تمثال للكاتب المصري يعلوه سلّم هرمي صغير يتوسط الحديقة، حرَّكت ثقلها من قدمها اليسرى إلى اليمنى. قالت:

ـ هل كنت حاضرًا في افتتاح معرض برقية حب للضفادع؟

ابتسم أو تظاهر بذلك، مثل سلحفاة تشعر بالخجل:

ـ نعم.

صمت الاثنان. كانت تحتاج لسيجارة ما بشدة لكنها في الوقت ذاته لا تريد الخروج من الحديقة. شاهدت العجوز حزينًا على السلم، بدا مألوفًا فجربت أن تطلب منه. هو حاول إبعاد عينيه عن عينيها، ليس فيه طاقة لإقامة نوع من هذا التواصل، نظر برأسه للأسفل. كانت ترتدي شبشبًا تظهر منه أصابعها وقد وضعت في أحدها خاتمًا فضيًّا، فكر "هناك أشياء في الموضة لا تنتهي"

شعر أن الدور عليه لإكمال الحوار، تظاهر بأنه يرفع رأسه لكن عينيه ارتفعتا فقط من أصابع قدمها إلى ركبتها.

ـ اعذريني لكن كان هناك الكثير من الأعمال لفنانين شباب لا أعرفهم، هل أنت فنانة؟

ابتسمت، كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا أخضر اللون، شعرها غير مصفف كأنما قضت الليلة الماضية في مكان غير مريح، قالت:

ـ أحاول أن أكون كذلك، لكن لم يكن لي أعمال في ذلك المعرض، وأنت؟

ـ لا لست فنانًا.

ـ آه محب للفنون إذن.

قالت الجملة الأخيرة بالانجليزية، رد عليها:

ـ كنت محبًّا، لكنها أصبحت جزءًا من مجال عملي.

ـ حقًّا.. ماذا تعمل؟

ـ أنا منسق فنى.

قال الجملة الأخيرة بالإنجليزية، فاتسعت ابتسامتها وهزت رأسها:

ـ ها.. رائع، هل تعمل في مؤسسة ما؟

ـ أتنقل بين عدد من المؤسسات، ألقي بعض محاضرات هنا وهناك، لا مانع أحيانًا من بعض أعمال السمسرة.

ـ ها..

جاء الصمت من جانبها هذه المرة، بِالنسبة لها تحول العجوز إلى مجرد خنزير من هؤلاء الذين يلوثون الساحة الفنية، يسلِعون الفن، يبدلون الأفكار. هناك حس ثوري ممتزج بغضب داخلي، روابطها بالحياة ومتطلباتها هشة، لذلك محددات الصواب والخطأ واضحة دائمًا أمام عينيها، وتأخذ المواقف حاسمة دون مساحة للتفاوض أو تغيير الرأي. الرجل يقول إنه سمسار أعمال فنية= خنزير.

هو في المقابل لم يعد يهتم منذ زمن بصورته لدى الآخرين، والأمر بالنسبة له ليس أكثر من وظيفة مريحة توفر له دخلًا يمكنه من الاستمرار في الوقوف في مكانه.

أخذت نفسًا أخيرًا من سيجارتها، ثم رمتها على درجة من درجات السلم، دهستها بقدمها، بالشبشب الذي تظهر منه أصابعها عارية غير مطلية مُنهكة من أثر المشي.

«حسنا، أشكرك على السيجارة» ثم انصرفت.

***

قرأت ذات مرة عابرة «الشيخوخة حينما تتذكَّر ما حدث منذ سنوات وتنسى ماذا أكلت بالأمس».[30]

أنا الآن في منتصف الأربعينات أجد نفسي غارقًا في الماضي، أعيش جزءًا مما حلمت به صغيرًا ومع ذلك غير قادر على الاندماج، قوة الدفع لا تحركني للأمام بل تثبتني مكاني والجميع يعبرون من حولي.

لكني أخمن أن البشر من حولي لا يشعرون أبدًا بما أشعر به، ليس فقط لأنهم لا يعرفون ما أعرفه، بل لأنهم نسوا كيف كانوا وكيف كانت الأشياء؟

بشكل شخصي لا أشعر بالاندماج مثلًا مع جميع الصور التي يتم إنتاجها لمحاكاة ما كان، فهناك مسحة من التبجيل والتجميل مضافة دائمًا على كل شيء، لكن لا أملك الرفض أو الاعتراض بل حتى لا أبديه. أكتفي غالبًا بهز الرأس والابتسام، وأتعجب أكثر من قدرتي على التلون والمحاكاة وإقامة الأحاديث الودودة.

الأحاديث الودودة... كم كنا نفتقدها في الماضي، في القاهرة.

---

(30) أرجو أن تكونوا قد اعتدتم على لحظات الرطانة التي تداهمني.

الفصل التاسع

في شاشة التلفزيون هناك فتاة ترتدي ملابس فضَائية بألوان زَاهية تتدرج من اللون الأحمر إلى البرتقالي. مود وإيهاب يتجادلان حول أمر ما، ورغم عدم تركيزي فإنني كنت أتدخل في الحوار بتعليقات ساخرة، أو أعارض رأيًا، وفي الغالب تكون المعارضة موجهة لما يقوله مود.

انتبهت هذه المرة فقط لوجود جرح قديم في رقبة إيهاب. وكانت فتاة التلفزيون تدعو المشاهدين للاتصال بها والفوز بجائزة قيمتها عشرة آلاف دولار إذا تمكنوا من إجابة السؤال ومعرفة ما هو الشيء الذي نضعه في غرفة النوم وننام عليه.

مود يتحدث في موضوعه المفضل، السياسة والمزيد من السياسة، حديث أكثر عن السياسة وللسياسة وعلى السياسة. لكني كنت أعرف أنه يدور حول الموضوع الرئيسي الذي يتمنى أن يسأل إيهاب عنه. عند نقطة ما من الحديث كان مود يستعرض معرفته بالتجمعات السياسية غير المعلنة في أمريكا، والروابط الأخوية التي تجمع أبناء الطبقة الوسطى والأغنياء منذ دراستهم في الجامعة حتى تخرجهم وترقيهم واندماجهم في الإمبراطوريات الاقتصادية والأحزاب والحركات السياسية. الصورة عن مجتمع السياسة الداخلية الأمريكية أشبه بأن تكون صورة لمجموعة من السحرة والكهنة والرجال العسكريين يتصارعون على فرْض سطوتهم على القبيلة الكبيرة، إيهاب كان يهز رأسه مُتفقًا مع معظم ما يقوله مود. بدا واضحًا أنه على دراية ببعض هذه الجماعات، فقاطعه مود:

- هل لهم علاقة بجمعيتكم؟

- ربما، في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم، حينما تصبح الأسرار هي اللغة الأساسية فمن الصعب تحديد الحقيقة.

تذكرتُ فجأة عند هذه النقطة من الحوار واحدة من زياراتي لجامع الحاكم بأمر الله، حينما شاهدت في زاوية من زوايا المسجد لافتة تاريخية قديمة، كان واضحًا أنها قبل عمليات الترميم التي قامت بها الحكومة في شارع المعز، لكن اللافتة كانت تحمل عبارة «إهداء من نادي روتاري». فكرت أنه لا يوجد شيء سري، فالإشارات والعلامات ملقاة على قارعة الطريق والبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير لكننا فقط لا ننتبه، نعمل بجهد أكثر في عمليات الهدم والتخريب، ولا نراقب البطء والهدوء اللذين تتم بهما عمليات البناء والعمارة أمام أعيننا.

رنَّ جرس الباب..

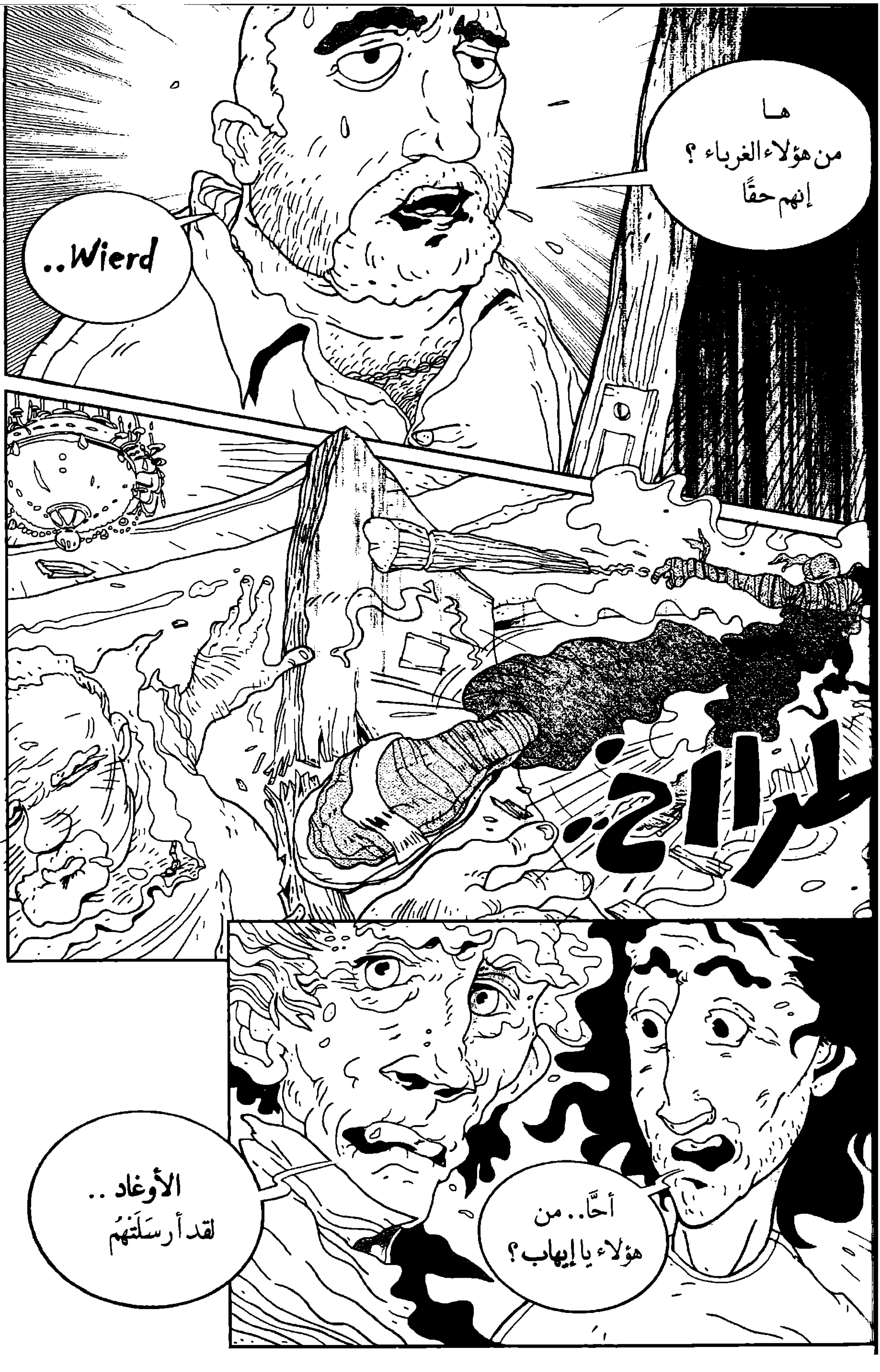
ها
من هؤلاء الغرباء ؟
إنهم حقًا
..Wierd
أحًّا .. من
هؤلاء يا إيهاب ؟
الأوغاد ..
لقد أرسَلَتهُم

بابريكا

لقد باعتنا
مدام دولت.
أنتم لا تعرفون مع
من تعيشون.
وَرَأَى الربُّ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ

أحَّا..

الشجرة

ألصقُ خدي الأيمن بالثلج المترسِّب في قاع «فريزر» الثلاجة، أتمنى لو كان يمكنه أن يسع جسدي كاملًا. أحاول التفكير، التذكر. لكن الذاكرة حجرة معتمة مَطلية بالأسود. كيف أتيت إلى شقتي؟

آخر ما أذكره جثة مود والخنجر في صدره. هل ما حدث حقيقي. أدير وجهي وأريح خدي الأيسر. البلاط تحت قدمي ساخن. أخرج من المطبخ وأحاول البحث عن موبايلي ولا أجده.

هل أنا بالأساس في شقتي؟

أفتح جهاز الكمبيوتر، على الإنترنت لا أخبار، لا شيء جديد. ومن أبحث عنهم لا أجدهم جميعهم تظهر أيقوناتهم معتمة تحمل شعار «أوفلاين». مود أوفلاين، مونى أوفلاين. في النهاية أرسل رسالة لإيهاب تحتوي على عبارة واحدة.

«أين أنت؟».

ثم أضاءت أيقونة «سميرة» باللون الأخضر فطلبت منها رقم «مونى» تناولت قطعة ورقة من جريدة قديمة دوَّنت عليها الرقم وخرجتُ من الشقة دون حتى أن أستحم.

السماء لونها برتقالي. والرطوبة في أقصى درجاتها، ومع كل خطوة أخطوها في شوارع أكتوبر شبه الخالية أشعر بصعوبة بالغة في التنفس. ومع ذلك أكملت المسير حتى وصلت لناصية الشارع ووقفت في انتظار ميكروباص ليقلني نحو القاهرة.

لا أعرف ما هي الرغبة التي تحركني. ولماذا لم أمكث في المنزل. كان يجب أن أعتبر

ما يحدث لفتة إنسانية من بابريكا لتنحيتي عن مجرى الأحداث. من الأفضل أن أكون شخصًا طبيعيًا وأعود إلى المنزل. لكن الإصرار تحفزه الرغبة، والرغبة في المثابرة غريبة عليَّ لا أعرف منبعها، ربما كان شعورًا بلا جدوى الحياة يجعلني غير مهتم بالنهاية. أو ربما كنت أستشعر النهاية، لذلك أصر أن أكون فيها لتكون نهايتي الخاصة.

معظم الميكروباصات تعبر كاملة العدد، ألوِّح لها فيشير السائقون إليَّ بمعنى «كامل العدد». إلى أين يتجه كل هؤلاء البشر؟

تركت مكاني واتجهت نحو كشك يبعد بضعة أمتار، أخرجت ورقة الجريدة من جيبي وهاتفت مونى، ردت علي، واندفعت الأسئلة منها كصنبور مياة معطوب، انفجر تحت وطأة ضغط المياة:

ـ إنت فين يا بسام، تليفونك مقفول ليه، مبتردش عليّ ليه.

ـ أأأأ..

لم تخرج الكلمات، حلقي جاف ومع ذلك لا أشعر بالعطش، واستمر الكلام يخرج منها. الصنبور معطوب ولا يمكن إغلاقه:

ـ وإيهاب فين؟ كلمني وصوته مش طبيعي واختفى.

نطقت عبارة واحدة:

ـ أنت فين؟

ـ أنا رايحة شقته في عدلي.

***

ارتفع الأسانسير. هذه المرة كان يحملني مع إيهاب ومدام دولت. وكانت تلك زيارتي الأخيرة لغرفة الأسرار تحت جاردن سيتي. خرجنا من الأسانسير وتوقفنا أمام السيارة في الجراج، التفت إيهاب لدولت:

ـ إلى أين تنوين التوجه الآن؟

ـ سوف أذهب للمنزل لأعد حقيبتي، الطائرة تقلع في السادسة صباحًا.

هز إيهاب رأسه متفهمًا، اقتربت منه دولت وطبعت قُبلة واحدة على خده الأيسر، قالت جملتها الأخيرة ثم انصرفت:

ـ هذه ليست معركتي ولا معركتك كذلك إيهاب.

***

اشتريت زجاجة مياه معدنية من كشك بجوار العمارة، كانت آخر زجاجة في ثلاجته شبه الفارغة. وأنا في الأسانسير نحو شقة إيهاب أنهيت الزجاجة كاملة، وما زلت أشعر بالعطش، لساني كتلة جافة من الرمال.

ضغط الجرس ففتحت لي مونى. لا أزال أشعر بالعطش. تهيجٌ في الشعب الهوائية. لا أتنفس بشكل طبيعي فأضطر لفتح فمي، وهو ما يشعرني دائمًا بالضيق. إيهاب ليس موجودًا وحتى الآن لم تظهر إشارة لمكانه، مع كل مُحَاولة للاتصال تأتي الرسالة «الهاتف الذي طلبته مُغلق حاليًا. اضغط نجمة لترك رسالة».

تذكرت فجأة المشهد الآخير. كأنما كان هناك جزء من ذاكرتي معتم وأنار تحت ضوء الأباجورة في شقة عدلي. مود، هل لا تزال جثته في مكانها. رفعت رأسي نحو مونى وقلت نصف لا مبالٍ.

«يجب أن نذهب لجاردن سيتي».

قالت: «لماذا؟».

حكيت لها المشهد الأخير، وضعت يدها على فمها من المفاجأة حينما علمت بما حدث لمود، سألت أكثر من مرة «هل أنت واثق أن إيهاب قد نجح في الهروب».

ـ نعم.

جلست على السرير، وأخذت تضغط براحتي يديها على وجهها، تدلك بأطراف أصابعها النقطة أعلى أنفها. اتجهت نحو الثلاجة بحثًا عن زجاجة مياه.

«لا يمكنني الذهاب إلى هناك، المنطقة مليئة برجال الأمن، إذا كانوا قد اكتشفوا ما

حدث فسوف يتم إيقافي، سأتعرَّض للتحقيق والتعذيب» قلت وأنا أفتح باب الثلاجة، بحثت في أدراج الباب لم أجد أي زجاجة، لكن لفت نظري جسم غريب ملفوف في كيس بلاستيكي شفاف، نظرت داخل الأرفف كانت هناك مثل هذا الكيس أكياس أخرى، تناولت أحدها وأخرجته، فتحت الكيس وأنا أشعر بدفقة من سوائل الهضم ترتفع في معدتي لتصل إلى الحلقوم، لم أملك سوى أن أقول بصوت عالٍ مشمئزًا:

ـ ما هذا؟

تتم عملية هضم الطعام في المعدة في وسط حامضي قوي بمساعدة إنزيم الهضم المعروف بإنزيم ببسين.

باستخفاف ردَّت مونى على سؤالي:

ـ لحمة.

أملت رأسي ناحيتها ونظرت لها. النور العالي كثيرًا ما يضايق السائقين في الاتجاه المعاكس على الطرق السريعة.

- وما هو نوع هذه اللحمة؟

- لحم بشري.

وضعت الكيس في الثلاجة، وأغلقت بابها. اتجهت إلى حوض المياه فتحت الصنبور وأخذت أغسل وجهي لأزيل طبقات كثيفة من العرق والرمال، ثم دوَّى صوت موبايل مونى «لقد وصلتك واحد رسالة لم تتم قراءتها».

صرخت مونى «إنها من إيهاب».

تناولت بكرة من ورق مناديل الحمام وأخذت أجفف وجهي بالكثير منها:

ـ هل من جديد؟

* * *

الرسالة قالت «أنا في المارستان.. أريدك حبي لأودعك».

الشمس في الطريق إلى الغروب. والنهاية تتأرجح نحو الماضي. يقال إنه قد تحدث حرب نووية وتنتهي الحياة من على سطح الأرض سيتبقى فقط نوع محدد من السحالي الصحراوية والخنازير البرية. مثل الأفلام القديمة كانت شوارع القاهرة، لكن بدلًا من اللونين الأبيض والأسود كان الأصفر بدرجاته يغطي كل شيء، رغم أنه لم تكن هناك شمس في السماء.

المارستان المقصود في الرسالة، اتضح أنه مارستان السلطان قلاوون. مونى قالت إن إيهاب أظهر اهتمامًا خاصًا بذلك المكان، بينما نحن في الأسانسير هابطون إلى الأسفل، انفجرت في البكاء وقالت «أخبرني مرة أنه المكان الذي يتمنى أن يموت فيه»

أخذت أربِّت على كتفها من بعيد محاذرًا التأثر أو الانفعال، كنت أعرف أن أي ذرة تأثر قد تنفلت مني حتى ولو حضن تشاركي أخوي كان سيكون كفيلًا بانفجارها في نوبة من البكاء والجنون والهذيان. الجنون كان أبرز الصفات التي اعتادت الافتخار بها.

لا يمكن أن نأخذ التاكسي من شارع عدلي، حيث جميع السيارات قادمة من قلب المدينة القديم، كان يجب أن نسير، لنأخذ التاكسي من شارع آخر. فالقاهرة مجموعة من الدوائر التاريخية من السهل أن تذهب للمستقبل لكن من الصعب أن تعود للماضي. هذا درس آخر تعلمته جيدًا.

***

كان إيهاب غارقًا في العرق. قابضًا بقوة على الموبايل. وساعة العد التنازلي تتجه بسرعة نحو الصفر. أقل من نصف ساعة ويقضي السمّ عليه. جسده محشورٌ في فراغ يفترض أنه إحدى الغرف الضيقة الشبيهة بالزنازين التي تم ترميمها ويفترض أنها مماثلة لغرف المارستان.

يقال إن هذا المكان كان مأوىً أساسيًا للجنود الذين يعودون بإصابات من الحرب وقد أصابتهم لوثة أو مس من الجنون. في الساحة عند العصاري كانت تأتي فرقة موسيقية، وتفتح أبواب الغرف للمجانين للاستماع إلى الموسيقى كعلاجٍ للجنون.

لم تكن هناك موسيقى، ولم أكن أعرف تحديدًا من المجنون بيننا نحن الثلاثة، أو ربما

كان المجانين فقط في الخارج، وهنا مأوى للعقلاء العجزة، ضحايا الحرب والمعركة التي لم تحدث.

«اخرجوا منها آمنين» قال إيهاب. ومشهد درامي تحتضنه فيه مونى وهي مستمرة في الابتسام والضحك، وأنا بجوارهما أدخن سيجارة أخيرة.

الفصل العاشر

ـ أنا تحت.

ـ طيب خمس ثواني وهبقى عندك.

أغلقت التليفون، أنزلت زجَاج النافذة وأشعلت سيجارة من ولاعة السيارة الحرارية. كانت الخطة أن آخذها بالسيارة، ثم نذهب للتمشية بجوار الميناء. هبطت ترتدي جينزًا أسود، وقميصًا أبيض، وقد تركت شعرها الطويل حرًّا. حينما وصلنا للميناء كانت الحركة هادئة لا توجد سوى سفينة واحدة تنزل حمولتها، بينما جلس معظم الشيالين على صناديق البضائع الخشبية في تكاسل بنفسجي، أوقفت السيارة وهممت بفك حزام الأمان، نظرت من النافذة:

ـ ما تيجي نخش جوًّا شوية.

ـ جوًّا فين؟

ـ في البحر.

بحر أكتوبر عبارة عن أرض رملية ذات لون برتقالي يختلف عن رمال اليابسة الصفراء، يمتد بحر أكتوبر حاملًا عشرات السفن الشراعية التي تعتمد في حركتها على مد وجزر الرمال وحركة الرياح. لا يمكن للسيارات أو مركبات اليابسة التوغل فيه كثيرًا، عند حد معين قد يسحبك التيار إلى دوامة رملية لتغيب في بطن بحر الصحراء البرتقالي، أما إذا كنت تسير على قدميك فيجب أن تكون حذرًا، فعلى حسب مواسم القمر وحركة الأجرام السماوية تتحدد حركة الرمال البرتقالية قد تتركك تمشي في سلام إلى ما لا نهاية، وقد تبتلعك بعد أول خطوة.

ـ نخش وما له، إنشا الله ما حد حوِّش.

حرَّكتُ يد السرعة، وضغطتُ على البنزين مُتجَاوزًا حدّ الميناء - مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان- دخلت بحر الصحراء، على الرمال البرتقالية شعرت بنعومة الطريق. أنزلت الزجاج وخرجت برأسها تستمتع بالريح التي تطيِّر شعرها، وذرَّات الرمال التي تلامسه. مررنا بجوار سفينة قوطية صغيرة تسير ببطء بالغ، حينما لمحنا بحَّارتها أطلقوا صيحات التحية، فرددتُ عليهم ضاغطًا على نفير السيارة.

بدأت الرمال تخشن تحت عجلات السيارة، لم أعد مرتاحًا لصوت المحرِّك. فأوقفتها ببطء بالطبع دون أن أضغط فجأة على المكابح، نزلنا من السيارة، تأكدت من غلق الأبواب. مشيت خطوتين في اتجاهي:

ـ حلو القميص الأزرق دا على فكرة.

ـ ميرسي ربنا يخليكي يا رب، لسه جايبه إمبارح.

مشينا والسيارة خلفنا وحيدين في منتصف بحر الصحراء، فجأة دون أي تمهيد، وجدتها تمسك أصابع يدي وتشبك أصابعها الطويلة فيها، شعرت للحظة أني استعدتها ثانية كأن كل ما كان لم يكن، نظرت لها لكن عينيها كانتا معلقتين أكثر بالكثبان البرتقالية.

ابتسمت لنفسي «على الأقل هي بقربي الآن يدًا بيد». ضغطت برفق على أصابعها، كانت هذه أول مرة نسير معًا يدًا بيد منذ سنوات بعيدة جدًا جدًا، ربما حتى قبل أن يصبح الكيتش بيضانًا.

***

عادة لا تبحر السفن في هذه الطريق، أحيانًا فقط تظهر من تحت الأرض الأسماك البرية ذات الهياكل العظمية، ثانية أو ثانيتين تأخذ نفسًا قصيرًا ثم تغوص تحت الأمواج الرملية. من بعيد كانت تلوح أفيال البحر. أفيال ضخمة لديها سيقان رفيعة طويلة يبلغ طولها أكثر من عشرين مترًا تتحرّك بثقل وتناغم. كنّا نخوض الآن في خليج «دالي» والأفيال تتحرّك بعيدًا في قطعان متقاربة، بين فينة وأخرى يطلق أحدهما نهيمًا عاليًا، لم أستطع أن أخفي تأثري من منظر الأفيال العالية، وكأنها أحست به، وجدتها فجأة تضع يدها اليمنى على بطنها:

ـ أنا بتبضن من المنطقة دي.

ـ طيِّب، شوية وهنعدي برزخ الوقت ونوصل للهضبة.

بعد خمس دقائق من المشي على الرمال كنا نخوض في رمال ناعمة، نحاول تفادي ساعات «دالي» الذائبة.

مشينا يدًا بيد، صعدنا الهضبة الرملية، وحين وصلنا إلى أعلى نقطة، سحبت يدها برفق. درت بعيني على الرمال الممتدة حتى آخر الأفق ثم توقفت عند الصخرة الضخمة التي تجمع عندها مجموعات من الناس في ملابس متباينة. قبل انفجار الاحتباس الحراري، وفي التخطيط المبدئي لأكتوبر تم بيع كل هذه الأرض إلى إحدى الشركات العقارية التي احتارت في كيفية التصرف مع هذه الصخرة التي تشبه جبلًا يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار. قررت الشركة إقامة مستعمرة سكنية تتوسطها هذه الصخرة كحديقة جبلية. بعد الانفجار غِيضت الرمال وَقُضِيَ الأمرُ.

هبطنا من على الهضبة وأرجلنا معفرة بالرمال ممسكين بأيدي بعضنا بعضًا. في منتصف الطريق توقفنا مرة ثانية، سلّت يدها من يدي، ووضعتها في جيبها لتخرج علبة سجائرها:

ـ همّ مش شغالين النهاردا ولا إيه؟

نظرت باتجاه أعلى الصخرة، لم تكن هناك مناطيد معلّقة في السماء، أو حتى واقفة على الأرض في وضع الاستعداد.

ـ يعني من فترة ما عدش فيه حد بيطلع من هنا.

وضعت السيجارة في فمها، فتحت غطاء الولاعة «الزيبو». أشعلت سيجارتها ببطء، ثم أعادت الولاعة إلى جيبها.

ـ بس ممكن يطلعوا لي واحد مخصوص.

في لحظات كهذه كنا نتعمد كسر حدة ميلودراما الموقف، بتعليق سخيف أو إفيه مقتبس من أحد الأفلام التجارية. لكن حينما وقعت عيناي على عينيها شعرت بضعف غريب، كأنني لست أنا ولا هي هي. غريبان يخجلان من البكاء أمام بعضهما بعضًا، أحمقان ضيَّعا جوازيّ سفرهما في غابة الوحشة. اقتربت خطوة منها وعيوننا معلقة، ملت

باتجاهها بجذعي مقتربًا من شفتيها، لكنها مالت بجذعها للخلف ووضعت سيجارتها في فمي درعًا من القبلة.

إذا كان صحيحًا أن الألم هو المحرِّك الأقوى للكتابة، فربما كان من الأفضل أن أبدأ من هذه اللحظة. لكني في هذه البقعة من بحر أكتوبر تركت قلبي جثة مشجوجة بفأس في الرأس، لهذا نسيت بعدها الألم.

نظرتُ في الأرض، أخذتُ نفسًا من السيجارة ونفثته في اتجاهي، رفعت رأسي متحاشيًا النظر لوجهها

ـ أي حاجة انتِ عايزاها ممكن تتعمل يا مونى.

***

جذب القرد الحبل المعدني مرَّات متتالية بسرعة، فازداد اللهب وانتفخ بالون المنطاد أكثر، أغلق القرد الباب الخشبي القصير بيده، ارتفع المنطاد بضعة سنتيمترات عن الأرض لكن ظل مربوطًا بحبل المرسى.

لم تلوِّح «مونى» بيدها، لكنها هزت رأسها في فرح وقالت وهي تخاطبني:

ـ أشوفك هناك بقى..

فك القرد حبل المرسى، ارتفع المنطاد عاليًا يحمل «مونى» والقرد ذا الطربوش الأحمر.

تجمَّعت في السماء بعض الغيوم، وما إن وصلتُ إلى السيارة وأدرت محركها عائدًا كان المطر قد بدأ بالسقوط في قطرات صغيرة، ازدادت كثافتها بعد دقائق. لتبديد الوحشة أدرتُ مشغل الأسطوانات. كانت هناك واحدة من أسطواناتها. حركة المساحات الرتيبة تزيح مياه الأمطار، على البوصلة حدَّدتُ طريقي واتجهت جنوبًا.

أكتوبر 2007

يناير 2011

ما كان بالإمكان أن يصل هذا العمل إلى هيئته الأخيرة دون دعم ومراجعة وملاحظات هؤلاء؛ سارة المصري، إيمان مرسال، وائل عشري، حسن عبد الموجود، فادي عوض، «بن» سفيرنا في أرشيف المكتبات الغربية، فواز طرابلسي، دفيد بواي، أحمد وائل.

الفهرس

الفصل الأوّل 7
أين مقبرة الموسيكا؟ 15
مُربعات ابن عروس 21
الفصل الثانى 23
بورتريه لعجوز في 6 أكتوبر 33
الفصل الثالث 37
رسالة من ريم 42
بورتريه لمونى مي في العشرين 45
زهرة الزهرة 49
شفيقة الإسكندرانية 59
هذا عتاب الخول للخولات 63
الفصل الرابع 67
طريق الهوى 79
حيوانات القاهرة 87
النيل يلتقي بابريكا 102
الفصل الخامس 113
الليل 125
الانتقام لا ينتمي للعصور الحديثة 1 134

الفصل السادس 139
الانتقَام لا ينتمي للعصورِ الحديثة 2 148
حفني أحمد حسن 152
عن أثر الماضي على المستقبل 156
الفصل السابع 163
والزهرة الثالثة.. أين أضع الزهرة الثالثة ريم؟ 178
محمد طه 183
لقاء الدكتور 187
مقبرة الموسيكا 194
الإيهام والاستمناء 197
ذات صباح لن أستيقظ 203
الفصل الثامن 209
الفصل التاسع 215
الشجرة 224
الفصل العاشر 231

استخدام الحياة

أطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلّمه خط البرابي، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر، وأطلعه على عمل الصنعة في الجبل الشرقي فسُمّي المقطم. سار الإخوة ومن تلاهم على العهد الذي قطعه مصر لفليمون، بعضهم أفصح وبعضهم أسرّ، وحتى إن حدث وتعارضت أفعالهم، فنياتهم لا تحيد عن العهد، ومصير أفعالهم الاجتماع في مجرى نهر التقدم والتطور، واعيين دائمًا لدورهم كحملة لمشاعل النور والهداية والعلم، وحرّاس لخزائن المعرفة تنتقل في "استخدام الحياة" عبر ثلاثة أزمنة تبدأ من لحظتك الحاضرة أيًا كان الوقت في ساعتك. حيث "بسام بهجت" يتخبّط داخل شبكة عنكبوتية من الإحباط والفشل العاطفي، يحاول خلق عالم صغير كفقاعة داخل قذارة القاهرة، لكنه يستيقظ على دعوة للغداء تنقلنا للماضي، حيث بسام نقطة صراع بين ورثة "الصنعة" من تلامذة فليمون. تنتهي القاهرة ومعها فقاعة "بسام" لكن لا تنتهي حياته بل تمدنا بإطلالة على المستقبل حيث ينتهي كل هذا ويعيش الجميع في سعادة وهناء تحت ظل الوريثة الشرعية لفليمون، ما عدا بسام المشغول بفك خيوط الشبكة.

يصوغ أحمد ناجي راويته بلغة تقوم على مزج مستويات مختلفة من العامية والفصحى، وفي أجزاء من الرواية تختفي اللغة المكتوبة لتكمل رسومات أيمن الزرقاني مسار الحدث، ويرتبط النص بالرسوم ليشكل وحدة عضوية في مغامرة يمزج فيها ناجي والزرقاني بين الرواية المكتوبة والرواية المصورة، ليقدم الاثنان عملا يستكشف أراض جديدة. تنهض "استخدام الحياة" من بؤس القاهرة ببنيان يكتسب تماسكه من تشظّيه، وتستعيض بالتناغم عن الدراما، وبالخطأ والتجربة بدلا من الصواب والمعرفة.

أحمد ناجي:
مواليد برج العذراء ١٩٨٥. نشر روايته الأولى "روجرز" عام ٢٠٠٧، ترجمت للإيطالية. وبعدها فشل في تعلم رياضة القفز بالحبل، فانصب تركيزه على العمل الصحفي حيث أسّس مجلة "وصلة"، وعمل في مجال الصحافة المكتوبة والأفلام الوثائقية داخل وخارج مصر.

يعيش حالياً في مدينة ٦ أكتوبر، يراقب بحماس هجوم المولات التجارية وينتظر نهاية مدينة شبابه الصحراوية ويكتب الروايات والقصص. استخدام الحياة روايته الثانية ويمكن التواصل معه من خلال موقعه الالكتروني: Ahmednaje.net

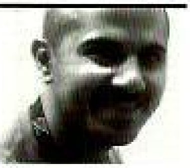

أيمن الزرقاني:
وُلد في ديسمبر ١٩٨٢. رسّام ومصمم ازياء، عمل في الدعاية والاعلان لمدة اربع سنوات، ترك الوظيفة مع بدايات العام ٢٠٠٩ متفرغا للعمل الحر، قام بعدها بتصميم أزياء عروض مسرحية عُرضت في دار الأوبرا المصرية، واشترك في عمل أفلام قصيرة وإعلانات تليفزيونية. وفي يونيو ٢٠١٢ شارك كرسّام كوميكس بثلاثية مصوّرة من تأليفه ورسمه بمهرجان "أيرلانجن" الدولى للكوميكس بالمانيا.

لوحة الغلاف: أيمن الزرقاني
تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

توزيع: دار التنوير

ISBN 978-977-6483-02-6
9 789776 483026